

[redacted]

’مفاجئة ومؤثّرة‘

France Inter

أرق

الطاهر بن جلّون

رواية

ترجمة
أنطوان سركيس

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- الإرهاب كما نشرحه لأولادنا
- العنصرية كما أشرحها لابنتي
- الإسلام كما نشرحه لأولادنا
- عينان منكسرتان
- عشر ليالٍ وراوٍ

لوحة الغلاف للفنانة الإيرانية Maryam Savoji

الطاهر بن جلّون

أرق

ترجمة

أنطوان سركيس

دار الساقي

الطبعة الأولى 2021

ISBN 978-614-03-2179-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

Cet ouvrage a bénéficié des Programmes d'aide à la publication
de l'Institut français

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

I

الفصل الأول

قتلتُ أمي. كتمت أنفاسها بوسادة على وجهها. ضغطت قليلاً، فانقطع نفسها من دون اختلاجة. هكذا انتهى كلّ شيء. بعدها استغرقت في نوم متواصل وعميق.

لا بد أنني نمت ساعات لأنني شاهدت أحلاماً رائعة ومشرقة وملونة وعطرة.

إنها المرة الأولى التي أمضي الليلة بكاملها في رقاد عميق لطيف مرمِّم. حتى أنني لم أنهض للتبول. وهو أمرٌ مستغرب، لأنني في العادة أنهض لهذه الغاية مرّة كلّ ساعتين. مثانتي الصغيرة باتت لا تحتمل مع العمر. لكنها الآن فارغة.

في الصباح، شعرت بأنني في حال أفضل. منتعشٌ وجاهز، كما يقال. لم يخالجني ندمٌ، ولا أدنى شعور بخجل أو حياء. فأنا كثيراً ما أكتب قصص جرائم متينة الحبكة، لأنني، في النهاية، كاتب سيناريو. وكانت تلك القصص مصدر سلوى لي، والمنتجون يطلبونني كثيراً. أما الآن، فاستيقظت مجرماً. لم أعد أختلق قصصاً، بل بدأت أعيش قصصي وأنتفع بها. كأنني انتقلت، بسحر ساحر، من الكتابة إلى الحياة.

للمرة الأولى، بتّ أنتظر الليل بصبر فارغ في الأيام التي تلت. أضحى الليل صديقاً. فارقني الأرق. صرت إنساناً طبيعياً. لم أعد بحاجة إلى الحبوب المنوّمة أو المهدّئة.

لم يخامر أحداً أيُّ شكّ حيالي. كان الناس يقولون: "هذا من حسن حظها! فالموت أثناء الرقاد موتٌ جميل". وكنت أهزّ رأسي وأردّد وراءهم: "نعم، لقد حظيت بميتة هانئة، ولم تتوجع".

لكن بعد انقضاء اثني عشر شهراً، عادت لياليّ جهنمية من جديد...

الستائر في غرفتي سميكة ومسدلة. ستائر بين العالم وبيني، فقد كنت حريصاً على العزلة، وعلى تجنب أدنى ضجيج. جهزت نفسي كي لا يقلق شيءٌ رقادي. زجاجٌ من ثلاث طبقات. سريرٌ من أفضل النوعيات. ملاءاتٌ من القطن الممتاز. وساداتٌ تمّ اختيارها بعناية لتلائم تماماً وضعية الرأس. زجاجة ماء على طاولة السرير. راديو ترانزستور صغير. "آيبود" لسماع الموسيقا. باختصار: لا شيء يمنع الرقاد من أن يجذبني إليه. لكنني كنت محروماً هذه النعمة. كان النوم يجافيني.

الفصل الثاني

كل شيء يوحي أن ما كسبته من منفعة جانبية لجريمتي تبدّد شيئاً فشيئاً. فهل بات عليّ ممارسة القتل للانتصار على الأرق؟

في الليل، كنت أستعرض الناس في الجوار وأتساءل أيّهم أختار. الشقيقة البكر لوالدتي؟ لم تكن تبدو في صحة جيدة. كنت أحبها كثيراً. امرأةٌ مرحةٌ وذكية لكنها شديدة العنصرية. السود، في نظرها، أدنى من البشر مرتبة، هم عبيد. العالم في نظرها هو هكذا. كانت تعترف بأن ذلك ليس عدلاً، لكن ما دام الله أراد ذلك، لا يمكنها في أيّ حال أن تعارض إرادة الله. فكرتُ في وضع حدّ لحياتها، لكنها كانت في مستشفى خاص، والوصول إليها صعب، وخصوصاً البقاء وحيداً معها، إذ كان أولادها يتناوبون السهر عليها مداورة.

زوجتي يمكن أن تفي بالغرض. لو أنني أقلّ جبناً بقليل، لاستدعيت الملاك عزرائيل ليخلصني منها. فهي تشكو من توقف النفَس أثناء النوم. يكفي أن يستمرّ هذا التوقف دقيقة أو دقيقتين حتى يخطفها الموت.

تتساءلون لماذا أريد هذه النهاية لزوجتي؟ فأنا ما زلت أناديها زوجتي، رغم أننا، في الواقع، انفصلنا منذ ما يقارب سنتين. ومع ذلك، هي لا تتوقف عن ملاحقتي ومحاولة إلحاق الأذى بي. لكن، لسوء الحظ، ليست لي قدرة استدعاء الملائكة، ولا أجدني قادراً على الانتقال من الرغبة في التخلص منها إلى الفعل. فأنا، ككل الناس، أفضل أن أسلّم الأمر للقدر، للمصادفة، لهذا السحر الافتراضي الذي يتصرف ذات يوم نيابة عنا.

فكرت في لالا زينب، أختي غير الشقيقة التي تكبرني باثني عشر عاماً. إنها تعاني من مجموعة أمراض: السكري، ارتفاع ضغط الدم، ضيق التنفس، ارتفاع نسبة الدهون في الدم. لا تنهض من مقعدها، ولا تمشي، وتصلي جالسة بانتظار أن يتسلّم الله روحها. تنتظره كأنه سيطرق بابها بين لحظة وأخرى، ويطلب منها بكل لطف أن تجهّز نفسها للرحلة الأخيرة. ترفع بانتظام ستارة نافذتها لترى هل ثمة أحدٌ أرسله الله أمام الباب. وفي كلّ مرة، كان يخيب توقعها. لم تعد الحياة تروق لها. تقول إن الله منحها الوقت لتزويج أولادها وأحفادها، وأنّ مهمتها أنجزت. لم تعد راغبة في شيء منذ توفّي زوجها في حادث سيارة. هي، إذاً، مرشحةٌ مثاليةٌ لتحريري. لكن، من أجل هذه الغاية، لا بدّ من الانتقال إلى وزان[1]، وهي منطقة ليس من السهل بلوغها. كما عليّ التسلح بذريعة، كأن أحمل لها دواءً لا وجود له في المغرب، أو هدية من مكة. إنها مولعةٌ بكلّ ما يأتي من هناك. حجّت خمس مرات، وتعتقد أن الموت في الأماكن الإسلامية المقدسة أمنيةٌ بعيدة

---

١ مدينة شمالي المغرب. (الهوامش كافة من المترجم)

المنال. كان في إمكاني أن أعرض عليها السفر لكي تدوسها الأقدام فتقضي نحبها في ذلك المكان. لكن لم يكن لديّ من الإيمان ما يدفعني إلى إنجاز هذه المهمة.

انتقلت إلى وزان، واستأجرت سيارة مع سائق. لم أكن مؤهلاً للقيادة في المغرب حيث لا حرمة لقوانين السّير لدى السائقين. كان سائقي يعرف تماماً كيف يستبق ردود فعل السائقين فيتجنب الحوادث. هو شخص ذكيّ لكنه عنصريّ يجاهر بكرهه اليهود وذوي البشرة السوداء، رغم أنّ بشرته سمراء داكنة، ويجد من الطبيعي أن يمنع بناتِه من متابعة دراستهنّ في الخارج، وزوجته من الخروج من دون قيود. إنه بطل نظرية المؤامرة. كلّ شيء سببه مخططات أعداء الإسلام والمسلمين. حاولت جرّه إلى التفكير المنطقي لكن دون طائل. كان راسخ الإيمان بقناعاته فتخلّيت عن المحاولة. لكنني نجحت في منعه عن كيل الشتائم لليهود والسود في حضوري. امتنع بالفعل، لكن على مضض.

وصلت منتصف النهار. كان القيظ شديداً والحرارة حارقة، فقلت في نفسي إنّ هذا الطقس سيسهل مهمتي في وضع حدّ لحياتها. حين وصلت أمام منزلها، شاهدت سيارة إسعاف. كانت المسكينة تختنق. أسرعت إليها متظاهراً بتقبيلها، وألقيت بثقلي كله عليها لأحجب عنها الهواء. ماتت قبل أن تصل إلى المستشفى. ورحت أتساءل عن نسبة مساهمتي في موتها. ثلاثون في المئة؟ خمسون؟ قدّرت أن النسبة تتجاوز الخمسين، ما يضمن لي بضع ليالٍ من النوم العميق

والمديد، وخصوصاً أنني استحققته عن جدارة.

مع ذلك، بكيتها بدموع حقيقية، فأنا لست في النهاية وحشاً. لقد تذكرت الأطباق التي كانت تعدّها لنا لدى عودتنا من المدرسة ونحن نتضوّر جوعاً. كانت لطيفة وعاجزة عن إلحاق أدنى أذى بمخلوق. أبناؤها الغارقون في دموعهم كانوا يضمونني إلى صدورهم بشدّة، وكنت أحاول مواساتهم بترداد آيات من **القرآن**، لعلمي بمدى ولعهم بالكتاب الشريف. وكنت أمسح دموعي بمناديل يقدمونها إليّ. "أخيراً جاءها الخلاص، كنت أقول لهم، ستكون سعيدة في الجنة، فوالدتكم وليّةٌ، وحياتها خير شاهد على ذلك". بعض المداهنة ليس من دون منفعة، بدليل مشاركتي الملحوظة في عزاء موتها المفاجئ. ومع ذلك، أكرّر القول إنني كنت أحبها كثيراً وبصدق.

في مساء اليوم نفسه، ورغم الحرارة اللاهبة وأصوات المرنمين الخنّاء، نمت كالقتيل من دون أن ينغّص نومي شيء. وسأحسم، على الأرجح، شهوراً عدّة من رصيدي في الرقاد. لذا، بات عليّ من الآن فصاعداً أن أجد حلّاً جذريّاً لليالي أرقي. فلا يمكنني، على أيّ حال، التحوّل إلى قاتل متسلسل للتخلص من مشكلتي. يجب الاعتراف بأنني جربت كلّ شيء وتعرّضت لأخطار كادت تودي بي، فهل يمكن القول إنني مجرم؟ والمستغرب أنّ ذلك لم يكن يمنعني من النوم وتوصلت بيسر إلى تسويات مع ضميري. بعد كل شيء، إن والدتي، كما أختي غير الشقيقة، كانتا في نهاية حياتهما، وأنا مقتنع بأنني أديت لهما خدمة، وخففت من معاناتهما، ووفرت

عليهما تلك العلاجات بالمسكنات التي لا تنفع في شيء. بالطبع، استعجلت النهاية ومنحت منجل حصّاد الأرواح دفعاً، لكنني لم أستهدف أشخاصاً في شباب عمرهم، وفي كامل نشاطهم، ولا حتى غرباء. وتمّ كلّ شيء بهدوء. لم أعمد حتى الآن إلى افتعال الحوادث ولا زيادة العدد، ولم يكن عليّ بذل جهد في الإخراج لتمويه فعلتي. إنّ عملي - إن كان هذا يسمّى حقّاً عملاً - لم يخلّف أثراً. كنت هنا لتفعيل اللحظة الأخيرة.

الفصل الثالث

صديقٌ مصري، وهو منتدَب طبي، حدثني عن اختبار يمكن الخضوع له يهدف إلى مساعدة المرضى الذين يعانون سكرات الموت، ومساندتهم، ومساعدتهم معنويّاً على تسليم أرواحهم بسلام. وجدت الأمر جديراً بالاهتمام، وتساءلت هل أملك حقّاً قدراً من السكينة والهدوء يؤهلني لمواكبة أشخاص مجهولين في اللحظات الأخيرة لحياتهم.

حسم الاختبار النتيجة لمصلحتي، وتمّ إرسالي إلى مستشفى محمد الخامس، حيث يعاني عاثرو الحظ سكرات الموت البطيء. وصلت الجمعة بعدما أنهيت تبضعي. طلبت رقم غرفة المشرف أو المشرفة على الموت. تصفحت الممرضة سجلاً، وتبادلت كلاماً مع زميلتها: "هل تعتقدين أن ساعة المركيز أزفت؟ أم هي ساعة السيدة لابيش؟" تساءلت لماذا يسندون إليّ الغرباء. وحين طرحت السؤال، أجابتني الممرضة: "نحن المسلمين لا نتخلى عن مرضانا. هؤلاء الغرباء المساكين ليس لديهم من يزورهم، ولهذا السبب نرسلك

إليهم". معظم هؤلاء الأوروبيين اختاروا المغرب لتمضية تقاعدهم تحت أشعة الشمس. في البداية، كان أولادهم يزورونهم، وشيئاً فشيئاً أخذت الزيارات تتباعد، وتلاشت الروابط ليحلّ محلها النسيان التام.

المرة الأولى التي دخلت فيها غرفة ذاك الذي يدعى المركيز – رجل بشاربين رقيقين أثيرين يذكّران بفرنسا المغرقة في القِدم – كان غائباً عن الوعي ولم يزره أحدٌ منذ زمن طويل. همست الممرضة في أذني: "لا تتصل عائلته إلا لتسأل هل لا يزال على قيد الحياة، إنها تنتظر الميراث...".

أمسكت بيده. يدٌ ضخمة وناعمة تكسوها بقعٌ سوداء. أظفاره لم تقلّم منذ زمن طويل. ضغطت بيدي على يده، فاختلجت أجفانه، فرحتُ أخاطبه. كانت يده شديدة البرودة. ركزت نظري على صدره. لم يكن يتنفس. استدعيت الممرضة، فتفقدت ضغطه ثم قالت لي: "أنت مخطئ، هو لم يمت، تستمرّ حياته بالإيقاع البطيء. استمرّ في التحدث إليه".

اغتنمت فرصة زيارة الطبيب لأنسحب. نصف الدجاجة الذي اشتريته صباحاً لا بدّ أن يكون قد برد. سأتناوله مع الخردل وبضع حبات زيتون، ومن ثمّ، إن كنت أشعر برغبة، سأتمدّد على سريري، فلربما تمكنت من النوم لمجرّد أنني كنت قريباً من الموت إلى هذا الحد. فكرة تناول نصف الدجاجة استولت عليّ. لاحظت لدى البائع وقوف امرأة جميلة ورائي في نحو الخمسين، حسنة الهندام، ومتبرجة بعناية. اشترت النصف الآخر. لو عثرت عليها، لدعوتها

إلى مشاركتي الطعام. سنضع النصفين واحداً بجانب الآخر، ونتناول طعامنا بشهية. يشعرني بالاكتئاب جلوسي وحيداً في مطبخي أحاول مضغ هذا الطائر البارد الذي لم يطيَّب بالتوابل كما يجب. سيكون الوضع نفسه بالنسبة إليها. لكنني لم أصادف المرأة الحسناء في طريقي.

لدى عودتي إلى المستشفى، دخلت غرفة المركيز وتناولت يده. كنت أسمع صوت تنفسه يتردد أقصر فأقصر. هل اقتربت نهايته؟ في بداية السهرة، اعترته التشنجات. استدعيت الأطباء من جديد. في انتظار وصولهم، أمسكت بيده بقوة، وضغطت برأسي على صدره فخمدت أنفاسه. لحظة دخول الطبيب المناوب إلى الغرفة، أصدر المركيز حشرجته الأخيرة ومن بعدها الصمت. أعلن الطبيب موته وأمر بنقله إلى براد الموتى.

خرجت من المستشفى متعباً وأشعر بالغثيان. لكنني نمت نوماً عميقاً.

الأحد التالي أسندوا إليّ مواكبة السيدة لابيش. لم تكن تتوقف عن التأوّه، وكانت تدمدم بكلام لم أفهم منه شيئاً. حين أمسكت بيدها، سحبَتها مباشرة. فأدركت أنني في حضرة سيدة صعبة المراس. وفي غضون ساعة، فهمت منها أخيراً أنّ لا رغبة لديها في مفارقة هذه الدنيا. ذكّرتني ببعض ليالي أرقي. كانت متوترة وتعِسة ومزعجة لا تسكن لها حركة. وكانت متمسكة بقوة بالحياة، فيما يخذلها جسدها شيئاً فشيئاً. أخبروني أنها كانت تطالب بأن ينادوها السيدة

السفيرة. لم يكن أحد يعرف السبب، ويعتقدون أنها تبالغ، حتى أكد طبيبٌ ذات يوم أنها بالفعل أرملة سفير بلجيكي في أستراليا، وأنها لا تزال في كامل قدراتها الذهنية.

بالطبع، لم أنم تلك الليلة. صورة تلك المرأة المتمردة على الاستسلام استولت عليّ. بسببها، قررت وضع حدّ لزياراتي وشكرت صديقي المصري وقلت له إنني أضعف من أن أواجه مثل هذه الحالة.

بعد بضعة أيام صادفت، وجهاً لوجه، المرأة الحسناء التي اشترت نصف الدجاجة. وكأنها قرأت أفكاري، فقد اقتربت مني وبادرتني: "أنا نباتية. ونصف الدجاجة الذي اشتريته الأحد لم يكن لي بل لأخي الكفيف هشام الذي يعيش معي".

دعوتها لتناول كوب من الشاي بالنعناع من دون سكر. كانت رائحته لذيذة. وفجأة سألتني هل أنام جيداً. أمرٌ مثير للدهشة! هل تراها اكتشفت جانب الأرق لديّ؟ عرضت لها وضعي من دون الإفصاح عن خططي بالطبع. صارحتني بأنها لم تعد قادرة على النوم مذ فقدت زوجها إثر أزمة قلبية. كانا قد تزوجا حديثاً وكانت لهما خططهما الكثيرة معاً.

"في الوقت الحالي، أعتني بشقيقي. هو ذكيّ لكنه يفقد أحياناً صبره ويتملّكه الغضب". جوابها أثار اضطرابي. نسيت أن أطلب منها رقم هاتفها واختصرت لقاءنا.

الفصل الرابع

منذ موت المركيز وأنا أنام جيداً، لكنني كنت أشعر أنها مرحلة عابرة سرعان ما تنقضي. إلى أن تلقيت، ذات نهاية أسبوع، اتصالاً غير متوقع من أحد معارفي القدماء، ويدعى طوني، ويعمل حارساً في مستشفى الجبيلات. اسمه الحقيقي أحمد، لكنه سمّى نفسه طوني تيمناً برجل المافيا طوني مونتانا في فيلم Scarface الذي أدى بطولته آل پاتشينو Al Pacino.

"اِحضر سريعاً! المغتصب، ذاك الوغد الذي قتل شقيقتي الصغرى، أُدخل الطوارئ ملطخاً بالدماء، نتيجة حادث أو شجار، لست أدري، لكنه في حالة حرجة جداً. خبرٌ جيد، أليس كذلك؟ احضر سريعاً. إنها لحظة تحقيق حلمنا.. سنضع حدّاً لحياته...".

في الواقع، كان في طنجة مدرّسٌ في الأربعين روحه الشريرة تنعكس على جبينه. كان يطلق عليه لقب "المغتصب"، "العجوز"، "الأعور"، وحتى "الشاعر" لكن من باب التحقير. نحيل الجسم، جافّ العود، غضون وجهه عمودية، نظرته قلقة، فمه من دون شفتين

وأسنانه نخرها السوس. كان يضع نظارات سميكة مزدوجة البؤرة ويدّعي حبَّ الشعر، وخصوصاً الشعر الذي تنظمه فتيات ساذجات مستعدات لكلّ شيء مقابل نشر أشعارهن. أسّس مجلة أطلق عليها بكل بساطة اسم "شعر". وكان يكتب بنفسه نصوصاً معقدة وغامضة ليسهل عليه التستر على تفاهتها.

كان يترصّد الفتيان والفتيات أمام المدارس الثانوية، ويستدرجهم بإغرائهم بمساعدتهم على تدبيج المقالات، ويشجعهم على كتابة أشعار يختار الأفضل بينها لنشره في مجلته. وكان يلاحظ سريعاً أولئك الذين، أو اللواتي، يبدون حذراً منه فيتجنبهم. أما الآخرون، فكانوا يقعون في فخه كالثمار الناضجة. كان حريصاً على تهيئة الأجواء في الاستوديو الصغير الذي كان يستقبل فيه ضحاياه الجديدة. موسيقا، أضواء خافتة، شاي بالنعناع، ومن وقت إلى آخر بضع سجائر مخدّرة يدخنونها مستلقين والأيدي متشابكة.

مليكة، شقيقة طوني الصغرى، كانت بين أولى ضحاياه.

حدث ذلك حين كان الناس لا يتحدثون عن مغتصبي الأطفال ولا عن أيّ من أنواع الشذوذ الأخرى. وكان الرياء الاجتماعي يتستر على تلك المآسي. إثر لقائه، وقعت مليكة الصغيرة فريسة حالة اكتئاب فجائية، ولم تلبث أن اختفت ذات صيف بعد نزولها للسباحة في بحر هائج. كان موتها انتحاراً.

بعد موتها، قصدني طوني محبطاً ومفلساً من أجل أن أجد له عملاً. فاتصلت بأحد أصدقائي الأطباء الذي وظفه حارساً في عيادته، ومكلّفاً تنفيذ كلّ المهمات.

ذاك الذي يطلق عليه اسم "المغتصب" كان بالتأكيد أكره الناس في المملكة وأكثرهم حقارة وخساسة ونجاسة وفظاظة وخطراً. الدعوات لموته كانت تطلق يوميّاً في ما لا يقل عن خمسين مسجداً في أنحاء البلاد من عائلات تعسة وقع أولادها ضحايا اعتداءاته الجنسية. عنجهيته ووحشيته لم يكن يعادلهما سوى تعطشه للشرّ. كان يمارس عمله والابتسامة لا تفارقه لاعتداده بقدرته على الإفلات التام من العقاب. ضحكته كانت عريضة وأنفاسه مريعة. ولم ترفع بحقه أي شكوى. خجل العائلات وشقاؤها التحفا بالصمت.

حام المغتصب وقتاً أيضاً حول ابنة أخي، وهي فتاة حالمة تكتب أشعاراً ساذجة لكن صادقة. طلب منها الفاسق أن ترسل إليه نصوصها فوقعت في شباكه. شقيقي الأكبر تملكه الهلع فدعاني إلى مساعدته. لم يكن بالإمكان الإمساك بالمغتصب ما دام لا يُرغم أحداً على زيارته. كان هذا الشخص النحيل والمبالغ في تأدبه يتصرف بتأنٍّ بالغ فلا يترك ممسكاً يورّطه. وحده أخي تجرأ على ملاحقة هذا المنحرف أمام العدالة، لنكتشف لاحقاً أن الشرطة كانت تحميه لأنه كان يشي لها بأسماء بعض المعارضين السياسيين لنظام الحسن الثاني. انتهى أمر الشكوى التي تقدم بها أخي رغم جهود المحامي الرصين الذي لم يجد بدّاً من الانسحاب لعجزه عن مقاضاة رجل يحميه النظام.

كان المغتصب معروفاً في طنجة بسعة حيلته وميوله الشريرة. وكان يتصرف بكل لطف. بعض أولياء الأمر حاولوا تهديده، حتى أن بعضهم كلّف حمّالاً في الميناء تحطيم وجهه. وحين علم بالأمر

توارى عن الأنظار وانتقل إلى تطوان حيث حظي بضحايا جديدة أكثر شباباً وأشدّ خضوعاً، ليحتفظ بهم تحت إمرته. لم يعد أحدٌ يأتي على سيرته في طنجة. نسيه الناس إلى اليوم الذي تلقيت فيه اتصال طوني وهو شديد الانفعال. أخيراً حان الوقت لاستعجال موت هذا المخادع الذي رفعت عنه الشرطة حمايتها. حقبة سنوات الرصاص[1] انقضت إلى غير رجعة.

لم أتوسل إلى الله في مسجد أو كنيسة كي يضع حدّاً لحياته. لم ألجأ إلى العدالة الفاسدة على كل مستوياتها. لم أشكه إلى عائلته ولا المقرّبين منها. ولم أسعَ إلى الإيقاع به. تعلمت الانتظار فقط، وكان لديّ متسع من الصبر حتى وجدت نفسي اليوم أمامه وجهاً لوجه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. في جناح المستشفى، كان المغتصب راقداً في شبه غيبوبة. يتألم ويتأوّه ولا يستطيع فتح عينيه ولا التلفّظ بكلمة. جسده مغطى بكامله بالدماء. كان تائهاً وكنت أعتمد على الحالة المزرية للبنى التحتية لهذه العيادة، وعلى قلة الكفاءة لدى الأطباء المناوبين، من أجل تأخير العلاج وإبطال مفعوله. يجب أن تسوء حاله إلى أقصى درجة ليتعذر نقله. فهو، ككلّ الفاسقين الكبار، لا بدّ أنه يملك تأميناً صحيّاً أوروبيّاً يتيح نقله في طائرة مجهزة لإنقاذ حياته في مستشفى باريسي. لكن، نظراً إلى كسوره الكثيرة، وفقدان الدم المطلوب لإمداده به، هو معرض للبقاء مزيداً من الوقت في هذه

١ تسمية أُطلقت على مرحلة من التاريخ المعاصر اتسمت بالعنف السياسي، خصوصاً السبعينيات، وبمواجهاتها الراديكالية بين اليسار المتطرف واليمين المتطرف، وبالعمليات الإرهابية.

العيادة. سيتألم الليل بطوله، وآمل أن يكون أثناء احتضاره نهباً لذكرى جميع أولئك الفتيات اللواتي استغلهنّ واغتصبهنّ، واحتفظ بهنّ في ابتزاز مقيت. وجوه الأهل الملتاعة، بعضهم في أيديهم سكاكين مطبخ، وآخرون مشاعل ملتهبة، ستهدّد لحظاته الأخيرة. سيمرون ببطء وينحنون فوقه باصقين على وجهه الذي غابت ملامحه. سيجد، للمرة الأولى، صعوبة في النوم، هو الذي كان يستغرق عادة في النوم ما إن يضع رأسه على الوسادة، دون مشكلة أو قلق أو تردد.

أفراد عائلته وأصدقاؤه القليلون، الوافدون من بعيد، مُنعوا من زيارته طوال ما بعد الظهر، بسبب حالته السيئة. كان وحيداً في جناح المستشفى. انتصف الليل ولم يكن الطبيب الجراح قد حضر بعد من عشاء في حفل زواج فخم دُعي إليه. غاب المغتصب عن الوعي، وبدأ مفارقة الحياة. حاولت الممرضة الاتصال بالطبيب لكنه كان عالقاً في زحمة سير. موكب العريسين اعترضه موكبٌ آخر، فارتفعت أبواق السيارات من دون انقطاع، ولم تعد الممرضة تسمع شيئاً.

في الحادية فجراً، جاءني طوني برداء الطبيب الأبيض، فارتديته وتسللت خفية إلى الجناح في المستشفى، وقناع أزرق يستر وجهي. في الممرات، توهم الجميع أنني الطبيب الجراح الذي ينتظرونه. تذكرت آنذاك ما كان يردده ألفرد هيتشكوك عن الجرائم: قتل إنسان بيديك العاريتين أصعب ممّا تتصور. ستخوض معركة وصراعاً غير أكيد غالباً ما ينتهي دون نتيجة. في السينما فقط، يموت الناس من دون صعوبة. من المستحيل أن تأمل في الحياة الحقيقية أن تصرع رجلاً حتى إن كان قليل العافية.

دنوت من وجهه، وهمست في أذنه أن ساعته أزفت وأنني شديد السعادة أن أُكلف المهمةَ. لم أكن بحاجة إلى خوض صراع، فقد كان ساكن الحركة، لكن كان من الواضح أنه يسمعني. ذكرت له اسمي واسمَي اثنتين من ضحاياه. ومن ثم ضغطت على أكثر جروحه خطورة، فأطلق صيحة كتمتها سريعاً بقطعة قماش أقحمتها في فمه. وفيما أنا مستمرٌّ في الضغط عليه، انتزعت الأنابيب خلسة، فانقطع عنه الهواء وبدأ الاختناق، وأضحى تنفسه شاقّاً، ثم أخذ يتباطأ بحيث لن يلبث أن ينقطع تماماً في غضون دقائق معدودة، وهو وقت كافٍ أعيد خلاله وصل هذه الأنابيب كأنّ شيئاً لم يكن، ثم أغادر المكان وأبلغ الشارع عبر براد الجثث، حيث لا أحد هناك.

لدى مغادرة العيادة، لمحت الجراح قادماً ببذلة "السموكنغ" وربطة العنق الفراشة وهو يتظاهر بالإسراع لإنقاذ المريض. من بعيد، وأنا جالس في سيارتي، رحت أراقب مجرى الأحداث. في غضون ربع ساعة، لمحت العائلة تغادر وقد تملكها الحزن، تبكي وتنوح، والبوّاب يحاول تطييب خاطرها. أحد إخوته كان يصيح مهدداً برفع شكوى ضدّ هذه العيادة التي تفتقر إلى الجدارة، والعاجزة عن تقديم الإسعافات الأولية لشخص تعرض لحادث، ويهاجم المغرب ونظامه الصحي، ويطالب بتأمين طائرة مباشرة لنقل أخيه إلى ملقة، على بعد عشرين دقيقة، حيث يتوافر أطباء ماهرون غير قليلي الكفاءة، وبائسون وقتلة... كان يقسم، وهو يسدّد الركلات إلى عجلات سيارته، ويضغط على رأسه بيديه ويبكي ربما من شدة الغضب والإحباط. لكنّ الأوان فات.

كان المشهد رائعاً. مشهد مسرحي على طريقة جارّي[1]. لقد استغرق القدر زمناً كي يستيقظ، لكنه انتصر أخيراً على المغتصب. هلّلت، فركت يديّ وعينيّ. أخرجت من علبة السيارة زجاجة وسكي صغيرة وتناولت منها جرعات عدة. كنت على ثقة بأن هذه الحشرة ستتعفن طويلاً قبل أن تتولى قوارض القبور الإجهاز على بقاياها.

نمت من دون تناول عشائي، ولا خلع ثيابي، وقتاً طويلاً متواصلاً، توهّمت خلاله أنني تبولت في فراشي. كان الأمر يستحق ذلك العناء.

---

١ Jarry ممثل فكاهي ومخرج مسرحي ومقدم برامج فرنسي من مواليد ١٩٧٧.

الفصل الخامس

بعد تلك الحادثة بدأ طوني يعاني من النوم المتقطع. جاء يشكو لي أمره وأنا أستعدّ لقيلولتي تحت الشجرة المعمرة في بستاني. كان ضميره يتعبه، ويعاني الندم، والأسف، ويتحدث عن الله ورسوله، وعن الجحيم والخوف من أن يكون مصيره هناك.

سألني هل أنام جيداً. نظرت إليه وقلت مبتسماً: "نعم، وجيداً جداً هذه المدة". لم تكن لديّ رغبة في أن أحدثه عن الفائدة الكبيرة التي أجنيها من اختفاء بعض الأشخاص، وطمأنته طويلاً.

"لا تأسف على مصير المغتصب. لقد حلّت ساعته على أيّ حال، وكان يجب أن يرحل. وجودنا هناك لم يقدّم أو يؤخّر؛ هذا ما شاءه القدر. على العكس، موته يجب أن يفرحنا. تذكر ما فعله بشقيقتك الصغرى، وكيف تملّص سنيناً من العدالة... أخي الأكبر أيضاً شعر بالارتياح. تكتّم على هذه الحادثة منذ زواج ابنته لكنها لا تزال تلقي بثقلها عليه. لقد تابعت حياتها رغم عذابات الاغتصاب. من الصعب دوماً التحدث إلى الضحايا. الخجل والشعور بالذنب يتلازمان ويدفعانك إلى السكوت، والحادثة، مع الوقت، تختفي في

ركن من الذاكرة من دون أن تمحى".

بدا لي أن كلامي أقنع طوني الذي يظهر أن حاله تحسنت. ولحظة مغادرته فاجأني بقوله لي إنه بات علينا الآن الاهتمام بأخيه الذي تلاحقه الشرطة بتهمة تهريب المخدرات.

استغربت هذا التغير المفاجئ، فأوحيت له، بحركة من يدي، أنني انتقلت إلى أمر آخر. لكن عينيه التمعتا، كأنما بات يلتذّ بطعم الجريمة. بدت كلماتي كأنها حرّرته، وبات على استعداد لتصفية حسابات انتقامات أخرى.

بعدها بأسبوع، عاد لرؤيتي والقلق بادٍ عليه، كأنه كان فريسة نوبة من الرعب. وقد كان يلهث بشدّة، إذ يبدو أنه جاءني راكضاً.

"المغتصب يزورني كل ليلة ويهددني بالانتقام. بدأ خوفي يشتد أكثر فأكثر. إضافة إلى أن الجرّاح يشتبه في أنني تأخرت في استدعائه عن طريق الممرضة ويلقي خطأ تأخره عليّ. لست أدري من الذي زرع هذه الفكرة في رأسه، لكنه وجّه إليّ خطاباً مستغرباً".

كنت كلما حاولت تسكين روعه، أكتشف أكثر فأكثر مدى هشاشته، وأنه بات يشكل خطراً عليّ. لم يكن يتمالك نفسه وكنت أتخيله جاهزاً تماماً لرواية حكايتنا للشرطة، فقررت أن أكذب عليه.

"حين دخلت الغرفة كان هذا الوغد قد مات. بعد أن تيقنت من ذلك، وأعترف بأنني كنت في اضطراب شديد، خرجت من الباب الخلفي، من مخرج براد الموتى. كنت فرحاً ومحبطاً. لكن الله شاء تسريع الأمور. فتوقف، إذن، عن الاعتقاد بأننا من قتلناه".

كان متعباً قليلاً ولا يتوقف عن السير. أشعل سيجارة وراح يمجّ دخانها بتوتر. لفتُّ نظره إلى أنه كان قد اتخذ قراراً بالتوقف عن التدخين. رفع كتفيه، كما ليقول إنّ ذلك أقوى منه.

الفصل السادس

لم يكن لدى زوجتي السابقة مشكلة مع الأرق. فلطالما كان نومها عميقاً ومتواصلاً. فكم من مرة راقبتها تتنفس وحتى تبتسم بعيداً من عذاباتي!

كانت تؤمن بالطبيعة. ولديها نظريات عن كل شيء، ونقيع أعشاب لكل حالة. لا تتناول العقاقير إطلاقاً. ولا تستشير طبيباً. تعالج نفسها بنفسها. تتناول الأطعمة البيولوجية. وبالطبع هي نباتية. نحيلة، وبشرتها شديدة البياض والنقاء. عيناها الزرقاوان تضفيان سحراً على ابتسامتها. في الليل، تنام بكلّ طمأنينة. وفي اليوم التالي، تلقي عليّ الدرس. لطالما أعدتُ على مسامعها أن تاريخي وماضيّ مختلفان عن تاريخها وماضيها، لكنها كانت تأبى أن تصدقني.

لقد كانت تتجرأ على القول لي: "يكفي أن تريد النوم حتى تنام".

عبارة رددتها دائماً على مسامعي حتى كرهت سماعها. الإرادة! كأنني لا أدخل غرفتي إلا رغبة في مغازلة الأرق.

الأرق دمّر علاقتي الزوجية. بسببه أقمنا غرفة جانبية وسرعان ما توقفنا عن ممارسة الجنس. ربما لم يكن ذلك بسبب الأرق وحده.

كان يجب البحث عن السبب في مكان آخر. باكراً جداً تركنا حبنا يتسلل خارجاً، ولم يحاول أيٌّ منا اعتراضه، أو منحه فرصة ثانية. ليالي بطولها طرحت على نفسي فيها السؤال. لماذا طار منا حبّنا؟ ألعلّنا قدّرناه فوق ما يستحق وكان في الواقع دون ما توهمنا بكثير. بعدها لم نقم بشيء من أجل تدعيمه، وتعزيزه وإعادة صوغه للتكيف مع الشكل الجديد.

في بداية حياتنا المشتركة، كنا ننام عاشقين متعانقين. وفي الصباح يتفاوت الإيقاع بيننا. كنت أنهض باكراً، استمع إلى الراديو في المطبخ، وأمارس تماريني الصباحية، وأحضّر لها الشاي وقطعتَي خبز كاملتين محمّصتين. كانت ليالينا جميلة، عادية، تثير الحسد، ومثلها نهاراتنا.

أولى ليالي أرقي الطويل يعود تاريخها إلى العاشر من ديسمبر ١٩٨٧. كانت زوجتي قد خرجت من دون أن تبلغني أو تترك خبراً. لم يكن أحد يعلم أين هي. كان يستحيل عليّ النوم وأنا بالغ القلق: هل اختفت، وكما في الأفلام الأميركية، تستدعيني الشرطة للتعرف إلى جثتها؟ هل رغبت في تمضية وقت في التسلية من دون أن تحدثني عن الموضوع؟ هل اتخذت لنفسها عشيقاً...

كيف السبيل إلى النوم وسط كل هذه الأسئلة التي لا أجد عنها جواباً؟ تمدّدت على السرير أملاً على الأقل في بعض الهدوء، لكن لا ألبث أن أصبح عرضة لأسوأ الأفكار. كنت أراها تارة بين ذراعي رجل آخر، وتارة أخرى في سيارة إسعاف. الليل يضخم كلّ شيء.

صوت محرك سيارة يتحول عندي إلى صوت محرك "إيرباص" لحظة الإقلاع. نباح كلب يصبح في أذنيّ عواءً مسعوراً. كان لا بدّ من أن أجد طريقة أروّح بها عن نفسي. نهضت من سريري. كنت أعلم أن هوسي بالتنظيم والترتيب سيصرفني عن التفكير. لكن ها أنا أقع على مقالة في صحيفة *Le Monde* يتحدث فيها كاتبها عن الأشخاص الذين يختفون كلّ عام دون أن يتركوا أثراً. حتى أنّ إحدى الشركات تعرض خدماتها من أجل تنظيم هذا النوع الخاص جدّاً من انقطاع العلاقات. France Musique تبثّ موسيقا كئيبة. بدّلت المحطة. كان نينو فيرّيه يغني حكاية حبيبته التي ركبت طائرة لن تصل أبداً. مؤامرة! كلّ شيء كان ضدي ويحكم عليّ بتمضية ليلة شديدة السوء. نحو السابعة نمت. عند الثامنة سمعت طرقاً على الباب؛ لا شكّ أنها الشرطة جاءت تبلّغني بحدوث مكروه.

فتحت الباب. كانت زوجتي بوجه مشرق وكيس كرواسان في يدها.

– أين كنت؟

– في ملهى ليليّ!

منذ ذلك الحين حلّ الأرق ضيفاً معززاً لديّ. في الليلة التالية، شربت كوباً من الماء، وفتحت كتاباً لكن أفكاري كانت في مكان آخر. من الصعب أن تعرف النوم قرب شخص يداعبه الليل. وتتالت الليالي الشبيهة بليلة ١٠ ديسمبر، وفي كلّ مرة بذريعة مختلفة. عطل في السيارة على الطريق السريع. إحدى بنات أختها الصغيرات أدخلت المستشفى في حالة طارئة. والداها عادا من الحج في مكة.

صديقة هجرها زوجها. ومن دون أيِّ اتصال هاتفي في كلّ مرة.

هل هو الإهمال، أو النسيان، أو التشتت، أو الاحتقار لذاك الذي تتهمه بتضخيم وساوسه؟

اليوم أعيش وحدي. أنام وحدي، أو على نحو أدق، أدخل السرير وحدي. لا أحمّل أحداً سواي مشاغباتي ومضايقاتي. ألّا تنام يعني ألّا تحلم، في حين أنني بحاجة إلى الأحلام من أجل أن أغذي مخيلتي. الأحلام طريفة وذات فائدة تعليمية أحياناً، وخصوصاً متى ما أخضعت لغربال شبكة من التحليل الدقيق. لا وعيي لا يقلّ حيوية ونشاطاً عن وعيي. فمن حقه أن يحظى بمساحة يعبّر فيها عن نفسه. الليل والنوم هما ميدانه. الأرق يحرمه حياته الخاصة. يسلبها منه، يسيء معاملته، يصارع ضد الحقائق التي يمكنه أن يفصح لنا عنها. عمل اللاوعي يشكل جزءاً من توازننا ومن انسجامنا، ويمهّد السبل لتفتّحنا. أنا ليس لي الحقّ بكلّ ذلك.

لياليّ بيضاء، جافة، من دون أحلام ولا كوابيس ولا مغامرات. ليالٍ كئيبة تشعرني بالضيق، وتتحوّل إلى شيء من ألم. ليالٍ من دون منفعة ولا فائدة ولا طعم. ليالٍ للنسيان وللرمي في القمامة. ليالٍ خائنة. ليالٍ من دون خجل. ليالي لصوص، رجال عصابات، أوغاد. ليالٍ قذرة منحرفة قاسية قبيحة. ليالٍ غير جديرة بالنهار وبالشمس وبالضوء وبجمال الوجود.

الفصل السابع

كانت زوجتي تختفي ثم تظهر من جديد. في الواقع، كان قد مضى زمن طويل لم يعد لي فيه شأنٌ معها. في تلك المدة، لم أكن أتصور أنه سيأتي يوم وأقتلها. كانت ستقاوم كضبع. لديها طاقة فائقة وقوة رهيبة وازدراء فظيع للحق والقانون. أنا كنت الآن تحت التراب لو أنني هاجمتها. على أيّ حال، كانت قد حذرتني: "سأحطّمك يوماً". اختفت من محيطي لكنّ طيفها يطاردني باستمرار، وخصوصاً في الليل. قدرتها على إلحاق الأذى لم ينل منها شيء. حين كنت أحاول أن أعرض أمرها على القريبين مني، كان ذوو العقول البلهاء يقولون لي: "هذا لأنها لا تزال تحبك!" كيف يمكنهم الخلط بين الحب والتصميم على الأذى؟ كيف يمكن التفكير في أن الحب يعادل التعذيب وملاحقة شخص كان قريباً منها بمثل هذه الشراسة؟

لكن في العمق، كان تصميمي على التخلص منها قد اتخذ منذ زمن بعيد، ولم أكن أعرف كيف أضعه موضع التنفيذ، وخاصة كيف يمكن أن أتجنب الوقوع في قبضة الشرطة. عامان انقضيا على انفصالنا، ألم تحن بعد ساعة الانتقال إلى التنفيذ؟ يجب أن أخطط لـ"الجريمة

المثالية". أعدت مشاهدة فيلم هيتشكوك، لكنّ حكاية هذا الزوج الوصولي لم تكن قابلة للتقليد. يجب أن أتولى الأمر بنفسي لكي أنتصر على أرقي. لا يمكنني تفويضه كما في فيلم هيتشكوك. كان ذلك شرطاً أساسيّاً لاستعادة قدرتي على النوم.

الشعوذة التي كانت زوجتي من أتباعها ستساعدني على وضع مخطط فعّال. لذا يتوجب عليّ ولوج هذا العالم البائد، واستشارة أحد الدجالين، مدعياً أنني مؤمن بخزعبلاته، ودفعه إلى العمل ضدها.

لم أكن فخوراً بنفسي حين قبلت اقتراح الدكتور ف. أحد أصدقاء طفولتي بأن يصطحبني إلى مشعوذ كان يعالج أفراد عائلته.

مكتب صغير، شخص صغير، جلابية صغيرة، عينان صغيرتان وضحكة كبيرة. أحرق بخوراً مستورداً، على ما يبدو، من الصين، وتصفح كتاباً ضخماً بالعربية، ليس القرآن لكن شيئاً ما مستوحى منه. طلب إليّ تهجئة اسمي. وبدلاً من كتابته بالأحرف، دوّن على الورقة أرقاماً. كان اسمي ٦ ٢ ٨ ٤ ٢ ٥. رقم هاتف أو رقم ملف للمعلومات الشخصية. التفت إلى صديقي الطبيب وقال له: "أعطني اسم العدو". تطلع واحدنا في الآخر وتهجّينا اسم زوجتي. ارتسم رقم أصغر: ٢ ٢ ٣٦. نظر المشعوذ إلينا وقال متنهداً: "أرى امرأة تنصحها وتسيطر عليها. هي قوية، قوية جدّاً. يجب الانتقال إلى مرحلة أخرى. إنها تحفر قبرك منذ زمن بعيد، يساعدها ثلاثة سحرة، أحدهم في أغادير، والثاني في تافراوت والثالث يتنقل بين مراكش وطنجة. يعملون باستمرار تحت إمرتها. الكثير من المال، والهدايا، والولائم

الفخمة... إنها لا تهزم. أنا أعتذر، كان في ودّي مساعدتكما، لكن في هذه الحال علينا التعامل مع أمر هائل، هائل جداً. النصيحة الوحيدة التي يمكنني إسداؤها لكما، أن يبتعد ٢٦ ٤٨ ٥٢ في أقرب وقت ممكن، ويصبح خارج متناولها، لأنها ستلاحقه حتى تنال منه مبتغاها. من النادر أن أصادف مثل هذه الحال، ٢٢ ٣٦! إنها قنبلة شرسة متوحشة. توخَّ الحذر، بدّل منزلك وحتى مدينتك ولا تخبر أحداً بمكانك. ستضرب من دون رحمة. هي مصممة على تدميرك بكل الوسائل، ولا تتخلى مطلقاً عن فريستها. هي عنيدة، بلا مبادئ، بلا شفقة".

أضاف بعد لحظة صمت: "هي ليست بشرية، لقد عاشت مع حيوانات متوحشة فورثت عنها الجشع والبهيمية".

لدى خروجنا من هذا اللقاء، شعر صديقي بالخوف أكثر مما شعرت. أخذ كثيراً على محمل الجد ما قاله هذا المشعوذ. أما بالنسبة إليّ، فإنّ كل ما فعله المشعوذ لم يكن سوى تأكيد لقناعاتي. فمشكلتي لا تزال من دون حلّ، وقد اتضح لي أنه لم يكن أهلاً ليرشدني إلى سبيل للتخلص منها ولا للنجاة بنفسي منها. اقترح عليّ الرحيل، الهرب، تبديل حياتي... كان ذلك صعباً ويلفّه الإبهام.

في الليلة نفسها، حاولت نصب مكيدة تنهي أمري معها. حلّت الثالثة فجراً ولم أكن قد وقعت بعد على شيء، غير أنّ قسماً كبيراً من ليلتي كان قد انقضى. بتّ فريسة مسلوبة الإرادة، فكان لا بدّ من التوقف مباشرة عن التفكير في الأمر، أو استخدام قاتل محترف يتولّى المهمة عني. لكن قتلها بهذه الطريقة لا يساعدني في صراعي

مع الأرق. ومرة جديدة وقعت في الدوامة نفسها. قتلها بنفسي فيه الكثير من المجازفة. فلا يعود عليّ سوى الابتعاد عنها، كما نصحني المشعوذ، والحرص على تجنّب إثارتها، واعتماد مبدأ "تقويس الظهر"[1] حيالها. لعلّ هذا الوضع يسهّل عليّ النوم، في النهاية. هذا ما حاولته هذه الليلة. لكن كيف يكون تقويس الظهر؟ استعنت بالمعجم. ما من صورة، ما من رسم. دخلت السرير، طويت ركبتيّ إلى الداخل لجعل ظهري يتقوّس. خشيت أن يؤدي ذلك إلى تشنج عضليّ. كنت أشعر، بين فينة وفينة، كأن خطوات أشخاص يسيرون فوقي. صمدت ولم أتحرك. يجب أن يعلموا أنّ ما من شيء يمكنه بلوغي. رقادي، في البداية، كان شاذّاً نوعاً ما، حتى تقبّل جسمي هذه الوضعية، ونمت جيداً أخيراً، مفكراً في ظهري أكثر من تفكيري في زوجتي. في الصباح، استيقظت نشطاً، حتى ليُظنّ أنّ الرغبة في الثأر قد تراجعت. لم أعد أفكر فيها. الظهر المقوّس! وضعية جيدة لإحالة كل شيء إلى التقوّس.

---

١ تعبير فرنسي يعني الاكتفاء بوضعية التحفّز أمام خطر محدق في انتظار زواله.

الفصل الثامن

خلال هذه الليلة الفريدة اختمرت في ذهني فكرة ارتكاب جريمة مزدوجة. شقيقان، تجاوزا الثمانين ومصابان بالمرض نفسه، الزهايمر. كنت أعرفهما معرفة وثيقة ومنذ زمن بعيد لأن ابن أحدهما كان قد تزوج إحدى قريباتي. كيف فاتني التفكير فيهما قبل الآن؟

لم يكن هذان الأخوان قد التقيا منذ ثلاث سنوات، حين نظمت عائلتهما لقاءً دعت إليه الأخ البكر وأخاه الأصغر، لمناسبة اقتراب رمضان. وصل الأخ الأكبر، الذي كان يقيم في ملقة، عند أخيه. كان شارداً ويتنقل بصعوبة، وجلس قبالة أخيه. وكان بين فينة وفينة يلقي نظرة عليه لكنهما لم يتبادلا الحديث، لأنهما لم يعرفا بعضهما بعضاً. كان كلٌّ منهما يتساءل من يكون هذا العجوز الجالس قبالته. أحد الأخوين كان يعاني من ارتجاف في يده، وكان وجهه خالياً من أيّ تعبير. كانا قد نسيا أنهما كانا شريكين في التواطؤ، وأنهما دخلا في نزاعات وشجارات، وتشاركا اللعب والمغامرات والكثير من العاطفة الأخوية. كلّ ذلك اختفى في غفلة عنهما. لم يكونا على بيّنة

من مأساتهما التي كانت تدور في تلك اللحظة. أفراد العائلة كانوا شهوداً على المسرحية ولا يعرفون كيف يتعاملون معها. لم يكن من المناسب إبداء الأسى. بعضهم كانوا حزينين غير أنّ الجميع شعروا بالضيق. ما العمل؟ ما القول؟ أنا، المدعو الحقير من قريتي، كنت أشاهد هذه المسرحية مفكراً في أن ساعة موتهما لا تلبث أن تحين. ما يقتلهما ليس الزهايمر، قلت في نفسي، بل الباقي. الجسد يتراجع ببطء في غفلة عن صاحبه. الغلاف يبقى، غير أنّ العقل يفرّ.

وحدتان قاسيتان تواجه إحداهما الأخرى من دون أن تنتزع منها شيئاً. البكر لم يجنِ في حياته شيئاً. شقيقه الصغير، على العكس، كان ثريّاً. شبه أمّي لكن ثري. مرات عدة كان عليه تقديم يد العون إلى شقيقه البكر. واليوم لا يكفّ عن التساؤل من تراه هذا الرجل الذي ينظر إليه والذي يجهل عنه كلّ شيء. كان يسوي وضع نظارتيه، يسعل، يشرب جرعة ماء ثم يغيب من جديد في عالمه. لم يكن يتألم على ما يبدو.

استمرت المسرحية دقائق طوالاً. قدّم خلالها الشاي والحلويات. شربا وأكلا بنهم. وتوقفا عن تبادل النظرات، فكلاهما منشغل بالتهام حلوى التشاراك[١].

فجأة، سأل أحد الأولاد أباه: "ألا تعرفه؟"

– لا!

– هذا أخوك، عمي عبد الحميد.

– آه، نعم، لديّ أخ ولم يخبرني أحد!

---

١ حلوى شعبية مغربية يسميها الفرنسيون "قرون الغزال".

– هذا هو الأخ الذي كثيراً ما كنت تمدّه بالمال.

– المال؟ متى كان ذلك؟

– ألا تذكر؟ لقد تزوج شقيقة زوجتك. كان عرساً ضخماً. شقيقان يتزوجان شقيقتين!

– تزوجت شقيقتي؟ أنت الشيطان بذاته!

كان من شأن هذا الوضع أن يستمرّ طويلاً على هذا المنوال، وينحو نحو العبثية والمبالغة، لو لم تتدخل إحدى النساء، ولعلها البنت البكر للأخ الأصغر.

– جمع والدي أطناناً من المال. وكرّس حياته بكاملها للأعمال. حين كان لا يزال بصحة جيدة، لم يكن بإمكانه تقدير ثروته. لديه في كلّ مكان بيوت ومصانع وأراضٍ ومخازن وأسهم في المصارف. لكنه كان بخيلاً. إلى درجة أنّه كان لا يتخلى عن فلس. وكان لا بدّ من اللجوء إلى الحيلة لانتزاع بعض المال منه. الآن كلّ هذه الأموال لا تنفعه في شيء. إنه ذاهلٌ عن الدنيا ومثيرٌ للشفقة!

شقيقه الذي كان دونه ثراءً كان في الوضع نفسه. تجرأ أحدهم فقال بلهجة ساخرة: "مع الزهايمر، على الأقل، ينسى الديون التي راكمها. هو مطمئن في هذا الوضع، يأكل ويشرب ويتجشأ وينام من دون حاجة إلى منوّمات!"

ولصرف الكلام في اتجاه آخر، انقضّ أصغر الأولاد على الطب والأدوية الطبية، متهماً خصوصاً الأدوية المهدئة والمنوّمات. والدته العجوز، التي كانت لا تزال في كامل وعيها، اختصرت الوضع: "في الماضي، كانت ذاكرتنا تحوك لنا المقالب من وقت إلى آخر. لكنها

اليوم، بفضل هذه الأدوية، اختفت بالكامل. لهذا السبب، لم أتناول يوماً أيّاً من هذه الأدوية. حين أرغب في النوم، أصلي إلى الله فيجري الأمر على ما يرام".

حفيد أحد الشقيقين سأل بشيء من السذاجة عن السبيل إلى الوقاية من مرض فقدان الذاكرة.

أجابته جدته: "بالصلاة إلى الله".

والده أجاب: "بحلّ الكلمات المتقاطعة".

شقيقه الأكبر أجاب: "بممارسة الرياضات الذهنية".

واستغرق الجميع في المناقشة، غافلين عن وجود الشقيقين المريضين، وجهاً لوجه، من دون أن يدركا أين هما ولا مع من. فجأة أطلق أحد الأولاد صيحة. فقد تبوّل الشقيقان في ثيابهما من دون أن يدركا. سائل أصفر سال في الصالة. حان الوقت لحملهما وتنظيفهما في الحمام. حملهما رجلان ومضيا بهما، ولم يعد أحد يأتي على ذكرهما. انتهت المسرحية. ساد البيت جوّ من الخجل والانزعاج. من دون الإفصاح عن ذلك، كان الكل يتمنى لو يأتي الموت ويحمل الشقيقين العجوزين إلى مملكته بعيداً من ضجيج البشر وغضبهم. لكن الموت لا يحب أن يلحّ عليه أحد، فهو يعرف كيف يستنفد كامل وقته.

بعد هذا العيد بأسبوعين، سألني زوج نسيبتي هل أستطيع الحلول محله في السهر على والده. فقد كان عليه السفر إلى إسبانيا بضعة أيام لبعض الأعمال. الأمر سهل، قال لي، عليّ الحضور بين السادسة والثامنة مساءً، في الوقت الذي يدخل فيه إلى السرير وتطفَأ الأضواء.

في اليوم الأول، كنت في غاية الاضطراب. كان عليّ اكتشاف طريقة ملائمة تضع حدّاً لحياته من دون أن أثير من حولي الشكوك. نحو السابعة والنصف مساءً، أحضرت إليه الممرضة حساءه فاقترحت عليها أن أناوله إياه بنفسي. في اليوم التالي، تولّيت أيضاً مناولته طعامه. ولكن، كأنّ الأمر تمّ في غفلة، دفعت الملعقة ببطء عميقاً داخل حلقه، فشرق بالطعام وبدأ يسعل بقوة، من دون أن يتمكن من إخراج السائل الذي سلك في حلقه السبيل الخطأ. خرجت طالباً النجدة، كل العائلة الحاضرة أسرعت، لكنه أسلم الروح. وبدأت أبرّئ نفسي مما جرى، زاعماً أنه طلب مني المزيد من الحساء بينما هو يترنح على السرير، ما تسبب في الحادثة. وكما هو متوقع، لم يفكر أحدٌ في اتهامي. بل على العكس، رأت العائلة في ذلك خلاصاً له. أما بالنسبة إليّ، فإن هذا التصرف المميت ملأني غبطة، إذ إنّ النوم سيعرف سبيله إلى عينيّ من جديد.

لم يكن في إمكاني تكرار الأمر نفسه مع الشقيق الأكثر ثراءً، فخطرت لي فكرة. بعد شهر على الحادثة، اقترحت على أبنائه الذين كانت تجمعني بهم معرفة سطحية أن أصطحبه بجولة في سيارته "البانتلي" الفخمة التي تتعفن في المرآب. كان العجوز فرحاً بمغادرة المنزل خصوصاً بصحبة أحدهم. سألني عن عائلتي، وعن أصولي، وألحّ خصوصاً إن كنت يهودياً. أجبته بالنفي فأثار ذلك استياءه. كان يريدني أن أكون يهودياً. وبعد عشر مرات، وقد بلغ بي الانزعاج مداه، أجبته بأنني يهودي. فصاح بي غاضباً: "لكن أين قلنسوتك؟

لماذا لا تضعها على رأسك؟ أنت يهودي سيئ، أيها المسلم اللعين!"

"أيها المسلم اللعين" كانت شتيمة يطلقها. قال لي: "لولا اليهود، ما نجحت في أعمالي. هم بارعون لكن مخادعون، ولا بدّ أنّ دماً يهودياً يجري في عروقي لأنني أكثر مخادعة منهم. لهذا السبب، كنا على توافق تام. منذ رحيلهم، شعرت بأنني أفضل حالاً من دونهم. ما الذي جرى لهم ليهجرونا هكذا؟" كنت أقود ببطء وأدلّه على المناظر الطبيعية في الجبل القديم حيث يملك هكتارات عدة صالحة للبناء. لم يكن يتذكر شيئاً. وفجأة غفا فوق مقعده. أوقفت السيارة، وحاولت إيقاظه برفق. كان يغطّ في نوم عميق. لذا قررت إعادته إلى المنزل وإرجاء تنفيذ مخططي إلى وقت لاحق. على أيّ حال، ضمن لي موتُ شقيقه عدداً لا بأس به من ليالٍ خالية من الأرق. بات لديّ رصيد وفي إمكاني إرجاء تنفيذ العمل.

كان أولاده مسرورين لاهتمامي بوالدهم. قال لي البكر: "على أيّ حال هو لا ينتبه سواء أكنت هنا أم لا، ويحسبني دوماً أحد زبائنه الذي كان غاضباً عليه. شكراً على الوقت الذي كرسته له!"

بالطبع، لم يكن في استطاعتي أن أصرّح لهم بالدافع الحقيقي لحضوري. اختلقت لهم رواية لتبرير زياراتي المتكررة، مدعياً أنني، حين كنت لا أزال طالباً، ساعدني بأن دفع سرّاً تكاليف تسجيلي. استغرب أولاده جدّاً، فبخل والدهم كان يضرب به المثل.

أخيراً وقع المسكين عن سريره ذات ليلة، وكسر عظم وركه. فاتصل بي أولاده في الصباح الباكر لمساعدتهم في نقله إلى مستشفى جيد. فكّرت في المستشفى الذي مات فيه مغتصب الأطفال، لكن،

من أجل مزيد من الحذر، كان لا بدّ من تغيير المكان. اتصلت بصديقي الدكتور ف. الذي قال لي من دون أن يعاينه إنّ رجلاً في مثل هذا العمر لن يصمد أكثر من أسبوع قبل أن يفارق الحياة.

مع حلول اليوم السابع، تراجعت حاله تراجعاً شديداً، وبات الجميع في انتظار موته الوشيك. إذن، كان لا بدّ من التدخل وإلا فوّتُ على نفسي المنفعة التي يمكن أن أجنيها من مثل هذا الوضع. حضرت مساءً إلى المستشفى الذي كان قد نقل إليه مطلع الأسبوع. الدكتور ف. الذي كان يعمل في هذا المستشفى جاء يسلم عليّ. وأخبرني عن حال المريض. رجوته أن يسمح لي بزيارته لوداعه الوداع الأخير.

"هو ليس والدك، ولا حتى جدّك!" قال لي، بشيء من سخرية، مستغرباً نوعاً ما إلحاحي.

– لا تقلق، دعني ببساطة أمسك يده وأتحدث إليه، فهذا يساعده على الرحيل بسلام وهدوء.

بعد وقت، دخلت إلى غرفته، واقتربت من سريره، ووضعت يدي على وجهه، ومن دون أي جهد حبست أنفاسه حتى انقطعت. بعد عشر دقائق استدعيت الدكتور ف. الذي أعلن وفاته، واتصل بعائلته، وشكرني بحرارة على حضوري الذي، كما قال، كان ذا فائدة لهذا الرجل، مضيفاً بشيء من الخبث أن أولاده هم الذين سيكونون سعيدين اليوم.

نقاط النوم في رصيدي – هكذا بتّ أسميها الآن – تفوق بعشرة أضعاف تلك التي جنيتها من موت أخيه الذي بسبب فقره لم يكن ذا

وزن يذكر في ميزان بورصتي المتخيلة. حتى أنني أستطيع أن أسمع صوت سقوطها اللطيف في مخزني الصغير. ومن أجل الترويح عن نفسي والاستفادة مما أنجزت، قررت عزل نفسي بضعة أيام في بيت جبليّ والاستماع بخشوع لموسيقا جون كولتراين[1].

---

١ John Coltrane موسيقيّ وعازف جاز أميركي من أصول أفريقية (١٩٢٦–١٩٦٧).

الفصل التاسع

قبل الانطلاق، زرت قبر والدتي. كان القبر في حالة مزرية من الإهمال والقذارة. بقايا برازٍ جاف. مخلّفات أطعمةٍ متعفنة. قيء. قطط وكلاب شاردة تتنازع بينها على هذه الفضلات. عدد لا بأس به من العبوات البلاستيكية. لا شيء يشجع على العودة ثانيةً.

نقدت قرّاء القرآن بعض المال، وطلبت منهم أن ينتقلوا لقراءة الآيات على القبر المواجه لقبر والديّ. كنت في الواقع أريد إبعادهم ليخلو لي الجوّ مع أمي. لم أطلب منها المغفرة على ما اقترفت يداي. ذكرت لها أن تصرّفي ذاك أتاح لها الموت بكرامة، وأنه بفضلها، عرفت كيف أتخلص من الأرق، هذا الداء الذي كان ينخرني منذ زمنٍ طويل. جنّبتها محنة المستشفيات العامة في المغرب حيث كان عليها الانتظار ساعاتٍ في الممر ليحضر طبيب ويعاينها، قبل أن يرفع عينيه إلى السماء وينصحني بإعادتها إلى المنزل لتموت فيه بسلام.

بالعودة إلى بيتي لأخذ حقائبي، غفلت عيناي لحظةً، وهذا نادراً ما يحدث معي. حلمت أنني أدخل حديقة "جنان السبيل" العامة في فاس، حديقة طفولتي. لم يتبدل فيها شيء. البركة، الأشجار، بساط

العشب، الحمائم، الهررة والكلاب الشاردة. كل شيء كان هناك وفي مكانه لم يبرحه. كان الهواء جافّاً وشعرت بالعطش. اقتربت من نبع ماء. كان جافّاً. ما من قطرة. استدرت ناحية البركة. ماؤها متجمّد وصفحتها الجليدية تعكس سماءً رمادية عابقة، حتى لتكاد تبدو سوداء، مع أننا كنّا في عزّ الصيف. كنت وحيداً في هذا المكان العائلي. مكان بات غريباً، ومثيراً للاستغراب. جلست على مقعد وانتظرت. كنت أعلم أنّ أحداً ما سيحضر ليغسل لي وجهي بماءٍ من مكة. لم أكن أؤمن بفضائله لكنني لا أرفض هذه التقاليد. كان من يتقدم نحوي ميتاً. بشكل شبح كما في الأفلام. كان ملتفّاً بكفنه الأبيض الذي تلطخه بعض بقع التراب البنيّ، ويمشي بحركة آليّة. أدركت آنذاك أنه من سيمرّر على وجهي مرات عدة يديه المغمّستين بماء زمزم. قلت في نفسي إنني مستعدٌّ لكلّ شيء كي أنتصر على أرقي. الميت مرّ أمامي من دون أن يتوقف. عرفت فيه المركيز. كانت تتبعه لالا زينب، أختي غير الشقيقة، بوجه مكشوف. في الواقع أحد ما أرسلني إلى هذه الحديقة لأشهد استعراض الأشخاص الذين عجّلت في موتهم. كنت مسمّراً إلى المقعد، ويستحيل عليّ التحرك، لكأنّ يداً معدنيّة تلقي بثقلها كله على كتفيّ. حتى لو أنني ما ارتكبت أيّ خطأ واختزلت آلاماً فحسب، فإنّ الله لا يرضى عن هذه التصرّفات. هو الوحيد الذي يقرّر في شأن كل إنسان. ولهذا، تُدين الأديان جميعها الانتحار. في الإسلام ذاك الذي يجرؤ على تحدّي الله ويحاول الانتحار محكوم عليه بتكرار فعلته إلى ما لا نهاية. لذا من مصلحتنا أن نحسن اختيار طريقة انتحارنا. تخيّل ذاك الذي يضحي

بنفسه حرقاً بالنار، أو يلقي بنفسه من الطبقة العشرين، أو يخنق نفسه في كيس من البلاستيك! أفضل أشكال الانتحار هو بتناول الحبوب المنوّمة. على الأقل، تكرار هذا الانتحار لن يتسبب في ألمٍ كثير. آه، الموت بالنوم العميق، الأبديّ! على أيّ حال، إن وضع حَدٍّ لحياتي أمر غير مطروح بالنسبة إليّ. كنت أتسبب في موت الآخرين وأمنعه عن نفسي. يا له من تصرّفٍ يفتقر إلى اللياقة!

اعتراني شعور بالاضطراب اختلط فيه الهلع بالألم. كنت أرى الأشياء تختفي ما إن يقع نظري عليها. رؤيتها تعني تدميرها. ما عدا الأموات. هؤلاء يتابعون نزهتهم أمامي من دون تذمّر أو اعتراض.

الحديقة كانت غارقةً في إضاءةٍ اصطناعية، كأنّها مصفاة، أو حجابٌ فاصلٌ بين حالة اليقظة وبينيٍ، أنا الذي كنت أحاول التحرّر من كابوسي.

من ثم انطفأ الضوء ببطءٍ، فوجدت نفسي في مساحةٍ بيّنة الاختلاف. رصيدي من النوم يبدو أنه نفد أو لم يعد يعمل. هذا ما جاء الأموات يبلغونني إياه في الحديقة. أصبحت الآن محاطاً بخرائب دائرية، وكلّ محاولةٍ للتخلص منها محكومة بالفشل. نظرت إلى الناس من حولي، واقعٌ أقامه بطريقة خرقاءَ قدرٌ أعور. لم أعد أعرف شيئاً وتكوّن لديّ اقتناعٌ بأنني لم أَقتل إنساناً. ومع ذلك، ارتسمت في ذهني، بالتتالي، لائحة جديدة من المرشحين للموت المسرّع.

الفصل العاشر

وأنا أقفل باب المنزل لأغادر طنجة على وجه السرعة، اتصل بي طوني بلهجةٍ جادّة؛ يريد أن يراني على وجه السرعة.

وصل بعد نصف ساعة حاملاً ملفّاً رماديّاً يشدّه إلى صدره.

"أنشأ الملك هيئة 'الإنصاف والمصالحة' لتأمين العدالة لضحايا الانتهاكات المرتكبة في عهد الملك الحسن الثاني، وإصلاح الخطأ الذي ارتكبته البلاد في حق آلاف المغاربة، معارضين أو مجرّد مناضلين من أجل حقوق الإنسان إبّان حقبة سنوات الرصاص. لكن هذه الهيئة تراجعت عن ملاحقة المسؤولين عن اختفاء الناس وتعذيبهم أمام العدالة. هذا أمرٌ غير مقبولٍ وغير عادل، وسيتم التعويض بالمال عن الضرر الذي لحق بالرجال والنساء الذين عانوا أقسى أنواع العذاب من دون أن ينال معذبيهم شيءٌ".

نظرت إليه وأنا أفكر في الأصدقاء الذين عُذّبوا وأولئك الذين اختفوا. كنت منفيّاً إلى فرنسا في تلك الحقبة، فنجحت في التخلص من تلك الشرطة الرديفة والمرهوبة الجانب خصوصاً. وتابع طوني عرضه.

- صودف أن عمي سرق ملفّاً مرعباً عن سفّاح خطير كان الذراع اليمنى واليد اليسرى للبصريّ، وزير الداخلية الشهير. كان الحسن الثاني يمحضه ثقةً مطلقة، إذ يؤدي له تقريباً دور رئيس الوزراء. كان القوة الكامنة، ورجل النظام القوي. ويملك على ما يبدو مدينة سطات بكاملها. لا أعرف الاسم الأول الحقيقي لهذا الشخص. لديّ فقط عددٌ من ثلاثة أرقامٍ يسبقه حرف ي. أعتقد أنه يدعى يزيد، نعم، هذا هو الاسم، يزيد.

كنت أصغي إليه مفكراً في ما سيطلبه مني. قلت له مباشرةً إنّ الأمر خارج البحث.

- لكنه مريض، السرطان منتشر في جسده... أعتقد أن دفعة بسيطة بسبابتك لوغد من هذا النوع تمنحك الكثير من أرصدة النوم.

- لكن ما الذي تقوله؟

- ألا تذكر، ذات مساء، وكنت قد أفرطت في الشرب ذكرت لي أنّ قتل هذا النوع من الأوغاد يتيح لك النوم الجيد. إذن، حقارةٌ كهذه ماذا تطلب أفضل! شخص أذاق الناس أقسى أنواع العذاب!

"أمضيت حياتك تناضل من أجل احترام حقوق الإنسان"، قال طوني، "فمن غير المقبول أن يموت وغدٌ كهذا بكلّ طمأنينة في سريره. يجب أن يذوق قليلاً من العذاب قبل أن يموت. هذا أقلّ ما يمكن فعله من أجل مواطنين مغاربة مرّوا على يديه في أقبية قصر دار المقري. كما تعلم، على طريق زايرس في الرباط".

كان يصيح مقتنعاً بأنه على حق ولا بدّ من الانتقال إلى التنفيذ.

- لكنه يعاني سكرات الموت. وقد فات أوان التدخل.

- لا، لقد حضّرت كلّ شيء، وخطّطت له. يكفي أن تتبعني، ونكون غداً قد تخلصنا من وغدٍ أشدّ سوءاً من المغتصب. المشكلة الوحيدة أن علينا السفر، فهو في المستشفى العسكري في الرباط، أفضل مستشفيات المملكة. في الطابق الأول، الغرفة ٥٢، يحرسه شرطيان بلباس مدني على مدار الساعة. غير أنني أشعر أن المسؤولين في وزارة الداخلية سيريحهم جدّاً أن يموت سريعاً. فالسفّاح السابق يمكن أن يقرر الكلام فيثير انزعاج كثيرٍ من الناس.

- وكيف تتوقع الوصول إليه؟

- تمكنت من الحصول على بطاقة هوية ابنه البكر الذي يعالج الآن من حالة اكتئاب في بني مكادة. بينك وبينه شبهٌ غريب، انظر إلى الصورة، تبدو كأنها صورتك. تقدّم نفسك على أنك ابنه مبرزاً البطاقة، وأنني سائقك. سترى، لن يكون هناك مشكلة، فلا أحد في المستشفى يعرفه، أو يعرف أين يكون في هذا الوقت.

فكرة قتل وغد ثانٍ في غضون شهر تغريني تماماً. غير أن المحاولة محفوفة بالمخاطر نظراً إلى الحراسة المشدّدة. لكن الأمر يستحق محاولةً أخيرةً قبل الانسحاب نهائياً والتمتع بلياليّ التي أضحت أشد كثافة في المدة الأخيرة، وملأى بالأحلام والحكايات. كنت مهووساً مجدداً بملاحظة هيتشكوك عن قتل أحدٍ ما بيدين عاريتين من دون الاستعانة بسلاحٍ ناريّ، وهو احتمالٌ غيرُ واردٍ بالنسبة إليّ. لم أكن قاتلاً، بل "مسرِّع" موت.

أثناء الرحلة كان طوني يتولى القيادة وكنت أقرأ الملفّ الرمادي.

في الداخل دفترٌ كان هذا القذارة يدوّن فيه أسماء السجناء الذين يعذبهم، وأعمارهم، من دون أي تعليق. أحياناً كان يدوّن بجانب الاسم نوع التعذيب الذي يقترحه. فقد كان، على ما يبدو، اختصاصيّاً تدرّب على الأرجح في أميركا اللاتينية. لكن ما يثير الاستغراب هو وجهه الرقيق الذي ينضح إنسانيةً، والخالي من أيّ أثرٍ للشرّ والقسوة. كان من الممكن أن يكون أستاذاً جامعياً أو رجل أعمال دمثاً. في الواقع، كان يعذّب من دون أن يطرح على نفسه أسئلة. هذا عمله، ويتقاضى بدلاً جيداً مقابل ذلك ويعمل بكلّ تحفظٍ وفعالية، من دون ارتكاب أخطاءٍ نافرة، أو التسبب في موتٍ أثناء الاستجواب.

في المساء، كان يعود إلى زوجته وأولاده، ويتناول العشاء معهم، ويشاهد التلفزيون قبل أن يطبع قبلةً على خدّ كل منهم ثم يخلد إلى النوم بكلّ طمأنينة. كانت زوجته تجهل على الأرجح طبيعة مهماته في وزارة الداخلية. لم يكن ينقصها شيء، وكانت تحبّ زوجها بشغفٍ وتتلقى هداياه بانتظام. الأمر الوحيد الذي يحزّ في نفسها هو أنه لم يصطحبها إلى الحج في مكة لضيق وقته. كان يقول لها: "ندع الأمر إلى حين تقاعدي. الآن لديّ الكثير من العمل. حتى إجازاتي السنوية أنا محروم إياها". لكن حين أحيل على التقاعد، ظهرت عليه أعراض السرطان. وقد مرّ أكثر من عامين وهو يتنقل بين المستشفيات. فهل خطر له التفكير في أولئك الذين أذاقهم أصناف العذاب؟ بالتأكيد لا. فهو ينتمي إلى نظام آليٍّ مغلق عالي الدقة والتعقيد، ولا يسعى أحدٌ إلى فهمه. ذات يوم قال له أحد الضباط: "طرحك الأسئلة يعرضك للموت". كان ذلك مدوّناً على صفحة في ملفه.

كان طوني يقود بحذر، وكنت ألمح على وجهه نوعاً من ضيق الصبر للوصول إلى الرباط وتنفيذ هذه الجريمة. ما سبب هذا التعطش إلى الانتقام، يا ترى؟ طرحت عليه السؤال، فأجابني بأنه يفعل ما يفعله بدافع الصداقة التي تجمعنا. إنه يؤدي لي خدمةً بالتأكيد، لكنني كنت مقتنعاً بأنه يصفّي، بالمناسبة أيضاً، حساباً قديماً مع يزيد.

بوصولنا إلى الرباط، قررت حجز غرفتين في Balima، وهو فندق كانت له أيام عزّه. اليوم ليس سوى سيدة عجوز درداء، مرهقة، لكنها لا تزال محتفظةً بآثار من روعة شبابها. ركنّا السيارة في موقف السيارات.

أفهمت طوني ألّا يستعجل الأمور وأنّ علينا التحضير مع دقّة. فصاح بي: "مع دقّة؟ ومن تكون دقّة هذه؟ إحدى رفيقاتك؟ آه، لا! يجب ألّا نشرك النساء في مشروعنا، لأنه الطريق الأمثل للإخفاق التام".

تظاهرت بأنني أشرح له معنى الكلمة وأنا أضحك من نكتته المستهلكة نوعاً ما، التي اقتبسها من فيلم مشهور، حيث فرنانديل، الذي يؤدي دور رجل عصابات، كان له جواب مشابه تقريباً.

تقتضي دقتنا الحصول على التراكريوم المعروف أكثر باسم سمّ الكورار، وهو مخدّر يمزج مع السوفنتانيل ويحقن ببطءٍ في الوريد، فيسبب الموت المباشر من دون أن يخلف أثراً، إلا عن طريق تشريح الجثة. لكنّ الذكريات المريرة لسنوات الرصاص لا تشرّح، بل يمحى أثرها بأسرع ما يمكن، حتى في هذا المستشفى ذي الحراسة المشددة. على أيّ حال، سبق لمنظمة Human Rights Watch أن

أتت على ذكره في أحد تقاريرها، وكانت تتهيأ للحضور قريباً من أجل التحقيق في الجرائم التي ارتكبها سفاحو التعذيب في حقبة الثمانينيات.

لم يكن طوني مجرّد بوابٍ في مستشفى، فقد اكتسب مع الوقت مهاراتٍ في الإسعافات الأولية والتمريض، وبات لديه الآن إلمام لا بأس به بالطب. اقترح أن يتولى تأمين المواد عن طريق أحد معارفه الذي رفض ذكر اسمه. أطلقت يده في الأمر، وقررت في انتظار رجوعه أخذ قيلولة في غرفتي في الفندق.

فكرة تطهير الأرض من سفاح يقدم نفسه على أنه إنسان شريف، ومسلم تقيّ، وأب حنون، وزوج مخلص، كانت تمتعني فغرقت من دون صعوبة في نعاسٍ لذيذ. كان لديّ انطباع أنني نمت بعين واحدة، متذوقاً متعة الرحيل من دون أن أرحل. نوع من دوارٍ بسيط منحني شعوراً بالخفة كما لو كنت معلقاً في الهواء وأبتسم للحياة.

في المساء، عاد طوني مزهوّاً، رافعاً قبضته كأنه ربح بطولة العالم في مسابقة النشل. باتت المواد الفتاكة في حوزتنا، وعلينا الآن المباشرة في التخطيط للعملية. للدخول إلى المستشفى لدينا بطاقة هوية ابن يزيد. للتنقل بطريقة سرية في الممرات، كان طوني قد حصل على لباس المستشفى العسكري مع شارات من دون صورة، وعليها اسم الطبيب فقط، وتتيح لنا العبور من دون صعوبة من جناح إلى آخر. سننفذ المهمة في وقت متأخر من المساء، حين يجري الأطباء جولتهم الأخيرة سريعاً.

كنت أنظر إلى علبتَي الدواء، أو بالأحرى السم، مع الحقن وأنا أفكر في الليلة الرائعة التي سأمضيها بعدها، حين توجه إليّ طوني بالقول: "هذا الوغد عذبني. أتذكر أنه كان يأتي صباحاً ويلقي علينا التحية ويسألنا هل أمضينا ليلةً جيدة. يخلع سترته، ويرفع كمّيه ويتصفح ملفّاً، ثم يصدر أوامره لسائر العناصر العاملين تحت إمرته، ويلتفت إلى واحدٍ منا ويقول بصوتٍ هادئ وحتى معسول: 'حسناً، عليّ الآن ممارسة عملي، ولا حاجة إلى المقاومة. مهمتي أن أجعلكم تتكلمون، وحتى لو اعترفتم، فسألحق بكم الأذى. هذه وظيفتي التي تعلمتها كما يتعلم الناس النجارة أو السباكة. لا تروا الشرّ في ما أفعله. كان من الممكن أن تكونوا أولادي، سوى أن أولادي أحسنت تربيتهم لا كآبائكم الذين تركوكم تخونون بلادكم وملكنا. حفظه الله وأمدّه بطول العمر...'".

أربكني حديث طوني، فحاولت أن أشرح له أنه ليس علينا الخلط بين دوافعنا. أنا، من جهتي، لا أسعى إلى الانتقام، بل إلى تقديم يد العون. أما هو، فكانت تحدوه إرادة متوحشة وشخصية للتخلص منه.

إذاً، كنا متنافسَين. موتٌ عن طريق التوكيل لن يعود عليّ بأي منفعة، وطوني يجازف بما لا يمكن توقعه. لذا، يجب منعه من الانتقال إلى التنفيذ قبلي. أقنعته بأن يقف ورائي وأنا أعطيه الحقنة المميتة، ثم أترك له اللمسة الأخيرة لإنهاء المهمة، وهذا يكون نصيبه من مقتل هذا السفاح. في حمام غرفتي، توليت بنفسي مزج المادتين. وجود طوني كان من شأنه تشتيتي ودفعي إلى ارتكاب خطأ.

صرنا الآن جاهزَين. انتظرنا مغيب الشمس للدخول إلى المستشفى

من باب المطبخ الذي كان لا يزال مشرّعاً لإخراج صناديق القمامة. فلا حاجة إلى إبراز بطاقة الهوية. طوني، من أجل أن يوحي بالوقار، كان يضع نظارات طبية تمنحه هيئة طبيب عتيق. كان يتبعني، وكنت أسمع صوت لهاثه المتقطع. لم ألتفت إليه خشية ألّا أتمالك نفسي عن الضحك؛ كان منظره مثيراً للضحك رغم مظهره الجدي.

يا من يتخيّلنا: تلميذان مشعوذان - أحدهما بدافع الانتقام والآخر لمكافحة الأرق - يتقدمان في الممرات التي يسودها الصمت في مستشفى عسكريّ مشهور من دون أن يظهر عليهما اضطراب أو تردّد، وانتهيا إلى دفع باب الغرفة ٥٢، بعدما حيّيا الحراس المتحلقين في الممر وتمنيا لهم أمسيةً طيبة. كنا مثيرين للضحك غير أنه لم يكن هناك أحد ليرى منظرنا.

كانت الغرفة فارغة، والملاءات على السرير مجعّدة. أبلغني أحد الحراس أن المريض نُقل إلى غرفة الإنعاش. هذه فرصتنا. سننعشه لنقتله. طلبت من طوني أن يتبعني لكنه تقدمني، لأنه كان قد استكشف المكان، فالجناح الآن مختلف، ويجب ألّا نتيه.

دخلنا الغرفة أخيراً بكلّ تصميم. كان يغطّ في رقادٍ عميق. لم يكن هناك أحد، ويجب التصرف بسرعة. انحنى طوني فوق السرير يبحث عن عرقٍ لأغرز فيه الحقنة. وقبل أن يتراجع سدّد إليه لكمةً في بطنه بطريقة تثير الضحك. "تنحَّ جانباً، وإلا غرزت الحقنة فيك أنت". فابتعد متذمراً ووقف عند الباب يترصّد القادمين. لم تستغرق العملية بكاملها سوى ثلاث دقائق أو أربع. وفيما كنا نستعد لمغادرة الغرفة، لاحظت أنه لا يزال يتنفس. عدت إليه، وضغطت بكامل قوتي على

صدره، فتسارعت أنفاسه، ثم أخذت تتقطّع، قبل أن تصير بطيئةً جداً وتخمد. لقد أسلم الروح، إذ لا بدّ أن يكون له أيضاً روح، عند الثامنة وأربع دقائق بالتحديد. اندفع طوني ناحيته ليسدد إليه لكمةً أخرى في معدته. ضرب ميت! تصرفٌ غبيٌّ لا جدوى منه. كان الأمر فوق طاقته، كما قال لي. شعر أخيراً بأنه في حال أفضل. خرجنا من دون أن نسرع في سيرنا، وسيارة تحمل لوحة الجيش الخضراء يفترض أن تكون في انتظارنا.

في الممرات، كان يلهو ويتظاهر بالتقاط شيءٍ ما في الهواء، ذبابة ربما أو فراشة.

– ما الذي تفعله؟

– أحاول التقاط روحه وسحقها.

– لنفترض أنّ لديه روحاً، لكنها غير ملموسة، ولا يمكن الإمساك بها. إن كنت تؤمن بالله، فالروح مضت عند خالقها.

– قصدك أنها ذهبت إلى الجحيم؟

– لست أدري. فالجحيم والجنة من المفاهيم التي تستعصي على إدراكي. أعلم أن الجحيم هنا على الأرض. أما الجنة، فهي فيلم بالألوان من بطولة آفا غاردنر Ava Gardner وإلى جانبها ريتشارد بورتن Richard Burton أو هامفري بوغارت Humphrey Bogart.

كانت السيارة بالفعل في موقف المستشفى. اجتزنا حاجز التفتيش الأخير من دون مشكلة. لا وقت نضيّعه. يجب سلوك طريق طنجة في أسرع وقت ممكن. جريمتنا تمّ تنفيذها بدقةٍ واحتراف. كان طوني راضياً عن نفسه، أما أنا، فأتساءل هل هذا الموت غير

المخطط له في برنامجي سيمنحني الكثير من النقاط الإضافية في رصيد نومي. قبل الخلود إلى النوم، سيعتريني بالتأكيد شعور بالرضى، هو شعور من أنجز عملاً بطريقةٍ متقنة وحاذقة، وخلّص البلاد من وغدٍ إضافيّ. لكن لا بدّ أن يكون هناك الآلاف غيره بالتأكيد جالسين وراء مكاتبهم، وكذلك الآلاف من الناس في تلك الأقبية التي يخضعون فيها للتعذيب. لم نكن قد قضينا على نظام التعذيب. سرّعنا موت جزار فقط من آلاف الجزارين.

بوصولنا إلى طنجة، طلب مني طوني وهو يستيقظ من رقاده أن أعيره فيلم La Comtesse aux pieds nus [الكونتيسة الحافية القدمين] لمشاهدة جانبٍ من الجنة التي تحدثنا عنها ونحن نغادر المستشفى. كان يستغرق في الأحلام بصوتٍ عالٍ: "بوغارت بمعطفه تحت المطر، عند المقبرة التي دفنت فيها الكونتيسة، يسرد حكايتها...".

– نعم، نعم، لكنني أعتقد أن الفيلم لم يعد بحوزتي. سنمرّ على كريم الذي سيعثر لنا عليه بالتأكيد.

حالماً بدوري بُحت له: "كم أحب النوم بين ذراعي أجمل امرأةٍ في العالم، النوم فحسب. ومع ذلك تزوجتْ فرانك سيناترا Frank Sinatra، ذاك القزم!"

– دعك من المبالغة، فهو يملك بدوره أجمل صوتٍ بين المغنين الأميركيين في حقبة الخمسينيات والستينيات. من ثم، إن هذا القزم كما تسميه لديه صلاتٌ وثيقة مع المافيا. وبعكسك هو لا يعاني أيّ مشكلة مع النوم...

– ألأنّ المافيا تضمن لصاحبها النوم العميق؟

– هي قادرة على كلّ شيء. ويمكنها مساعدتنا في جرائمنا الصغيرة من دون مجازفات...

طلب إليّ أن أحكّ له ظهره.

"لأتأكد إن كنت تحبني حقاً"، قال لي.

الفصل الحادي عشر

بدأت فكرة التخلص من طوني تراودني منذ اليوم الذي فاجأته فيه وهو يتباهى أمام أصدقاء عابرين بأنه حقق إنجازات سرية هائلة. فازددت اقتناعاً بأنه، عاجلاً أم آجلاً، سيتكلم. لكن بعد كل المساعدة التي قدمها لا يمكنني قتله. كان لا يزال شابّاً واختفاؤه قد يسترعي انتباه الشرطة.

يجب أن أدفعه إلى قطع كل علاقة له بي وبمحيطي، وأن أفهمه أن صمته حيويٌّ لكلينا. فكرت عند ذلك في أستراليا. فكلّ مرةٍ أجد فيها نفسي في موقف مستعصٍ، أفكر في تلك البلاد التي لا أعرفها، لكنها تمثل بالنسبة إليّ طرفَ العالم. ألا يستغرق السفر إليها نحو أربع وعشرين ساعة؟

طوني يعيش وحيداً. كانت له ابنة لكنها تركته وهي في التاسعة عشرة لترحل مع رجل أعمالٍ مسنّ لكنه ثريّ جدّاً. منذ رحيلها وطوني يحلم بالهجرة إلى بلادٍ بعيدة ومختلفةٍ كل الاختلاف عن المغرب، حيث لا وجود للمغاربة، ولا للغجر. إذاً، أستراليا تفي بالغرض. كذلك يجب تأمين عملٍ له وتأشيرة دخول.

جونسون بائع التحف العجوز المقيم في طنجة حبّاً بشابٍّ وسيم أوهمه بأنه يبادله الحب، وبأنه مستعدّ للإقامة معه (مع أنه كان متزوجاً وأباً لولدين)، كان من سيدني. ساعدني للحصول على تأشيرة دخول لطوني. أما العمل، فأوصى به أحد أصدقائه الذي كان على استعدادٍ لفعل المستحيل إكراماً لعينَي شابّ بمثل هذه الوسامة! لقد أقسم لي بذلك. ولم أفاتح طوني بشيءٍ في هذا الصدد.

هكذا، غادر طوني ذات صباحٍ إلى سيدني عن طريق مدريد ودبي. تكاليف هذه الرحلة كادت تتسبب في إفلاسي، لكنه الثمن الذي عليّ دفعه تأميناً لراحتي الدائمة. لحظة الوداع احتضنني طوني بشدة وهمس في أذني: "إن كانت لديك فكرة جيدة، فأنا مستعدّ للعودة!"

أثناء رجوعي من المطار سمعت صوتاً يهتف لي: "لا يكفي أن يكون بعيداً لكي يلتزم الصمت... الخوف من أن يفضي بكل شيء في إحدى دوائر الشرطة يبقى احتمالاً قائماً. واعلم أنه ربما سيكون السبب في بعض ليالي أرقك في المستقبل!"

بعد بضعة أيام وجدت رسالة صوتية في مسجل هاتفي الثابت. كانت من طوني، فقد فكّر خلال الساعات الأربع والعشرين التي استغرقتها الرحلة: "تلك المشعوذة التي كانت تعمل ضدّك لحساب زوجتك، والتي شغفها الوحيد الفصل بين الأحبة، تلك العانس التي تقدم نفسها على أنها معلمة روحية والتي انتقلت وقتاً إلى الهند لدى أحد النصابين، لديّ خطة للتخلص منها بكل هدوء. لا يمكنني أن

أبوح لك أكثر، لكن حين نلتقي سأعرض عليك المشروع، إنها خطة محكمة تماماً. أنا واثق أن رحيلها سيؤمن لك مئات الليالي من النوم العميق، لأنها امرأة شريرة، وقبيحة، وحقودة، لذلك موتها لن يقلق أحداً...".

أضحى طوني مشكلة. كان واضحاً أنه يعلم كلّ شيء عن نظام أرصدتي المتعلقة بالنوم. يجب العمل على إخراسه، وقطع لسانه، وحشو فمه بالحبوب المنوّمة التي تؤدي به إلى نومٍ أبديّ.

الفصل الثاني عشر

فكرة التخلص من المشعوذة راودتني دوماً في الأسابيع والأشهر التي تلت. منذ موت يزيد الذي عاد عليّ بالنفع الكثير، كنت أتردد في ارتكاب جرائم جديدة لإمداد لياليّ بالغذاء. لكنني لم أكن أريد أن أعرف شيئاً عن خطة طوني. لا بد أن تكون ذات جلبة وضوضاء، فهو ما كان مرةً دقيقاً، ولا موضع ثقةٍ حقيقية.

من شرفتي، بدأت مراقبة تنقلات المشعوذة التي اكتشفت أنها تسكن حيّي. كنت أستخدم المنظار المكبّر لمراقبة حركتها اليومية. من مركز مراقبتي، لا يمكنها أن تراني. الصيف كان حارّاً على نحوٍ استثنائيّ، والبستانيّ الذي يعتني بحديقتي وصل ذات صباح وجسده يرتجف وهو يحمل على طرف عصا أفعى لا يقلّ طولها عن المتر. قال لي إنها من النوع الشديد الخطورة. لذلك قرّر أن يذهب لشراء القطران وسموم الفئران للقضاء على جميع الأفاعي في الحديقة. شكرته وطلبت منه أن يدلّني على وكرها. وعندما انطلق لتنفيذ ما عزم عليه، اغتنمت الفرصة وقررت التقاط بعض نماذج تلك الأفاعي. تجهزت بكيس من الخام وبقفازات سميكة وانتظرت.

بعد نصف ساعة خرجت أفعيان ضخمتان للتمدّد في الشمس. كان عليّ التقاطهما حيتين والرأس يختزن كامل سمومه. وبعد مشقة، توصلت إلى التقاط إحداهما وحبسها في الكيس. كانت تنتفض بشدّة، فصرفت النظر عن الأخرى.

كانت خطتي بسيطة، وتقضي باغتنام فرصة غياب المشعوذة لدخول بيتها عبر حديقتها ووضع الحيوان القاتل في غرفتها تحت أحد الأغطية أو الشراشف، كما رأيت في عدد من الأفلام. هكذا لن يُقبض عليّ بتهمة القتل، شرط ألّا أخلف ورائي أيّ أثر أو علامة. تشتدّ حركة الأفعى في الكيس أكثر فأكثر. لا بدّ أنها جائعة. ونِعم الأمر.

في الليلة نفسها، كانت المشعوذة مدعوة إلى حفل زواج صديقتها المقرّبة. حارسها، الذي كان في الوقت نفسه سائقها، أخبرني بذلك. في اللحظة التي غادرت فيها السيارة الفيلّا، قفزت فوق السياج الفاصل بين منزلينا، وسرعان ما وجدت نفسي في الغرفة الرئيسية. أقفلت النوافذ والأبواب وأطلقت الأفعى الجائعة في الحمّام. ليس عليّ الآن سوى الانتظار عند نافذتي، والمنظار المكبّر في يدي. للمرة الأولى، أفرح لأنني لست راغباً في النوم. كنت أرقب عودتها آملاً في تنفيذ الجريمة الكاملة.

نحو الرابعة فجراً، سمعت صراخاً لا بدّ أنه أيقظ الحيّ كله. ولشدة فرحي، أطلقت بدوري صيحةً، لكنها صيحة رضى. للأسف، بعدما تملّك المشعوذة الرعب، استعادت المبادرة وتمكنت من قتل الأفعى. أما الحارس، فشكر الله لإنقاذه سيدته، قائلاً إنه سينظم سهرة تلاوة لـ القرآن لدفع الخطر عن المنزل. وفي الأيام التالية، سمعت

من كثيرين أنها لم تكن المرة الأولى التي تدخل فيها الأفاعي إلى منزلها. نقطة جيدة لمصلحتي. مرة أخرى لن تحوم حولي الشكوك. الرعب الذي أصاب المشعوذة وصياحها المذعور منحاني بلا شكّ رصيد أسبوع إضافيّ من النوم. ولو أن الأفعى كانت أكثر سرعة، لحصلت على الأقل على ثلاثة أشهر كاملة من أرصدة النوم. من الصعب التخلص من مشعوذة على صلة بعدد من الأفّاقين والمريدين. هي بمفردها تملك قدرة جماعة. إنها تعيش على أي حال عيشة رغيدة بفضل سخاء المحسنين وبينهم نساء ارتضين تسليم رقابهنّ للنير، وزوجتي منهنّ.

أمام هذا الفشل، قرّرت رفض التخلي عن المشروع، لكن مع تبديلٍ في الأسلوب. نوع من نظام المضايقة المتدرجة، النابعة من مصادر متنوعة ومجهولة، تقضي في الدرجة الأولى بتنغيص حياتها قبل الانتقال إلى المحطة التالية في خطتي. للمرحلة الأولى، تقرّبت من زوجتي السابقة التي كانت على خلافٍ مستجدٍّ معها لأمرٍ تافه، وتضمر لها حقداً شديداً، لكنه عابر. ما فيّ ذلك شك.

لم أفصح لها بالتأكيد عن جوهر فكرتي لكنني كنت أسعى إلى جعلها تكشف لي عن أسرار المشعوذة، عن تلك الأمور الغامضة التي كانت تخفيها. هكذا، عرفت أنها دخلت السجن في العشرين من عمرها في إسبانيا لثلاثة أشهر بتهمة تهريب المخدرات، وجرت تدخلات عدة لإطلاق سراحها. لكنها تخفي هذه المحطة غير المشرقة من حياتها. سافرت للالتحاق بغجريّ غرّر بها ثم تخلى عنها في إحدى قرى الأندلس. كان يريدها أن تمارس البغاء، ولما لم

ينجح في دفعها إليه، تخلى عنها.

من جميع هذه المعلومات التي جمعتها، تمكنت من تكوين ملف سيغذي الرسائل المبهمة التي ستنطلق لاحقاً من إشبيلية حيناً، ومن غرناطة أو ملقة حيناً آخر. الهدف: إزعاجها إلى الحد الذي يتسبب لها في أزمة قلبية، إذ عرفت، بين ما عرفته أيضاً من زوجتي السابقة، أنها تعاني من مشكلات خطيرة في القلب.

في المرحلة الثانية من خطتي، استعنت بكولومبو، وهو مفتش شرطة في طنجة كان يتردد عليّ من وقت إلى آخر ليعرض عليّ قراءة الروايات التي يكتبها. كان يعتمد كثيراً عليّ لتصحيح نصوصه والعثور له يوماً على ناشر في فرنسا أو إسبانيا. لم تكن مخطوطاته سيئة لكنها لا تصلح للنشر في حالتها الراهنة. كلّ مرة كنت أقدم إليه النصائح، وحتى أعيد كتابة بعض الصفحات. كنت واثقاً أنه لا بدّ أن يكون قد سمع عن سجن المشعوذة. حين اتصل بي ليعلمني بزيارته، طلبت منه، للمرة الأولى، خدمةً، وطرحتها بطريقة تظهر أنّ لها صلة وثيقة بمصلحته الشخصية: "كي تدفع القارئ إلى التعلق برواياتك، يجب أن تقدّم فيها الكعك المحلّي، أعني أن تعرض عليه أموراً حسية تغذي فضوله".

– وكيف ذلك؟

– الأمر سهل. تتذكر بلا شكّ الشابة المغربية التي لحقت بغجريّ، والتي ألقت عليها الشرطة الإسبانية القبض...

– لا أتذكر فحسب، بل كنت المكلفَ التواصلَ مع زميلي

الإسباني. لماذا تذكر هذه الحادثة؟

– سنستوحي من ملفها لكتابة رواية.

– يا للروعة! سأسعى مع زملائي للحصول على ملفها وسنغوص فيه معاً. بالمناسبة، ما كان اسم تلك الفتاة؟

– لست أدري.

كنت أعرف اسمها كاملاً، ولم يكن من الصعب عليّ معرفة تاريخ ميلادها، لكن يقتضي الحذر تجنّب الكشف عن كل ما أعرفه كي لا أثير الشكوك من حولي لاحقاً.

جذْبُ المفتش الروائي إلى مخططي كان له تأثير جيد في لياليّ. كنت أنام وأنا أفكر في كل ما سأبتكره للقضاء على المشعوذة من دون أن يثير حضوري أو اسمي أي شكوك.

سريعاً جدّاً جاءني كولومبو بالمعلومات. الغجري مات في شجار. وفي الملف هناك شهادة لمغربيّ شاب ادعى عليها بجرم تسميم والدته. لم تُشرّح الجثة آنذاك لأن أحد عشاقها، وكان فاحش الثراء، أغدق المال على جميع الذين كان يشكّون فيها. لم يلبث هذا العشيق أن أفلس بين ليلة وضحاها بطريقة تستعصي على التفسير. كانت قد أقنعته بأن يسجّل باسمها جميع ممتلكاته. وما إن تمّ لها ذلك، حتى رمت به في الشارع من دون أيّ تردّد.

أبدى كولومبو حماسة لهذه القصة القريبة من الخيال. ومن أجل ضرورات مخطوطته، نصحته بالاتصال بذلك العشيق المفلس، وأن يطلب صداقته والحصول منه على أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات عن عشيقته السابقة. فذلك يتيح له أن يدرس في العمق طبيعة شخصياته.

كنت أعتمد على تلك المعلومات من أجل المزيد من تعزيز تلك الرسائل المغفلة التي أزمع إرسالها.

العشيق المفلس، ولنطلق عليه اسم السيد والو، كان قد تحوّل إلى مدمن كحول يتنقل بين البارات. لم يجد كولومبو صعوبة في الاهتداء إليه ونجح سريعاً في التقرب منه. لم يكن لدى ذلك المسكين أيّ شيء يخسره. فقد خلّفته تلك المشعوذة في الحضيض. وهو مستعدّ لكل شيء، وأيقظ فيه استرجاع الذكريات رغبة عميقة في الانتقام. لكن ذلك لم يكن يتماشى ومخططي. يجب أن أشارك بنفسي، بطريقة أو بأخرى، في تنفيذ الجريمة. طلبت من كولومبو أن يبقى على اتصال مع السيد والو كي لا يتقدّمني، وأن يبقيني على اطلاع. في الوقت نفسه، شجعته على كتابة كل ما يعرفه عن تلك القصة. أحضر إليّ مجموعة صفحات مع مقدمة على شيءٍ من الالتباس. لم أوجه أي انتقاد، وقلت له إننا سنعمل معاً على تنظيم الأمر ما إن ننتهي من المسألة.

كيف السبيل إلى قتل المشعوذة؟ كيف الوصول إليها، والتأكد من أنني أسلك السبيل السليم لبلوغ هدفي؟ فمنذ حادثة الأفعى في الحمام، أضحت شديدة الحذر. أرسلت إليها زهوراً ومغلف سمّ لقتل الأفاعي. شكرتني متعجبة من اهتمامي بمشكلاتها. أجبتها بأن ذلك أقلّ الواجب بين الجيران المتحضّرين.

الحظ أو المصادفة يسلكان أحياناً سبلاً لا ترِدُ في الحسبان. فلحظة كنت أستعد لإرسال أولى رسائلي المغفلة، اقتحم زوجٌ، تسببت مكائد المشعوذة في فصله عن زوجته، فيلّا تلك المرأة وسدّد لها طعنات قاتلة. سمعتُ صيحات مذعورة فأسرعت إلى منزلها. قال لي الحارس إن عليه استدعاء سيارة إسعاف على وجه السرعة وسمح لي بالدخول. كان القاتل جالساً أرضاً ذاهلاً والسكين بجانبه والمشعوذة تتأوه ولا تزال تتنفس. لم أتردّد طويلاً وقررت اغتنام الفرصة غير المتوقعة. كنت بحاجة ماسة إلى التدخل، إذ يستعصي عليّ النوم منذ أيام عدة. اقتربت من المرأة التي فقدت كثيراً من دمها، وبذريعة وقف النزف، ضغطت بكل قواي على أحد جروحها ما تسبب لها في ألم شديد. بعينين منقلبتين وجسد مفرغ من دمه، أسلمت الروح قبل وصول الإسعاف. اصطنعت التأسف وصليت لله أن يتغمّدها بواسع رحمته.

المثير للاستغراب أن قلة من الناس حضروا مأتمها. نظمنا، السيد والو والبوّاب وأنا، دفنها. في المساء، منح العشيق المفلس نفسه وليمةً عامرة. لم أكن على أيّ حال سأمنعه من الشرب في اليوم الذي حققت له العدالة.

لم أعد أعرف شيئاً عن أخباره. ربما غادر المدينة، أو حتى البلاد.

بعد ذلك بأيام، دقّ كولومبو بابي ورزمة أوراق تحت إبطه.

"ها قد اهتديت إلى عنوان: La sorcière aux pieds nus [الساحرة الحافية القدمين]". أجبته وأنا على يقين بأنه لن يتوصل إلى الرابط بين

العبارتين: "حتى إنها ليست كونتيسة!" فنظر إليّ واضعاً كفه على جبينه، ثم قال: "هل سبق ورأيت فتاة مسكينة من فتيات البلاد تبلغ مرتبة الكونتيسة؟ إنها مشعوذة من الدرجة المتواضعة!"

الفصل الثالث عشر

صبيحة الجمعة من الأسبوع الذي تلى زرت مجدداً قبر أمي. وقفت عنده صامتاً متأملاً مدة طويلة بعدما وزعت الحسنة على نحو ثلاثين شحاذاً من كل نوع: أفارقة علقوا في هذه المدينة بعدما أخفقوا في اجتياز مضيق جبل طارق لبلوغ أوروبا، سوريّون فروا من الحرب في بلادهم، بعض المغاربة الذين يدعون أنهم يحسنون تلاوة القرآن.

مرة جديدة شكرت أمي، فلولا تصرفي لتخفيف آلامها، ما اكتشفت السبيل إلى النوم. وكما في عدد من المرات، كانت هي التي تهرع إلى مساعدتي وتدلّني على أفضل السبل لطرد الأرق على نحو شبه نهائيٍّ من حياتي.

غادرت القبر خفيفاً ومسروراً. وفي الطريق، تابعت توزيع النقود على المستعطين. اتصلت بخدمات البلدية وطلبت منهم الاهتمام بالحال المزرية للقبر، فأكدوا لي أنهم بصدد مشروع للتجديد. جلست في مقهى Café de Paris، وطلبت كوباً من عصير البرتقال، ورحت أراقب الناس. أحبّ كثيراً مراقبة الرجال والنساء الذين لا أعرف عنهم شيئاً.

صديقي القديم غابريال، الذي اتصلت به لموافاتي، وصل لاهثاً وبمزاج سيئ. كان يشتم جاراً له أحيا سهرة عرسه بضجيج يصمّ الآذان. ثم أخذ يحدثني عن موته. قال لي إنه يريد أن تُحرق جثته في سبتة وينثر رمادها في مياه فندق Le Mirage.

وبينما أنا أتخيل الحياة من دون غابريال وأقدّر الحزن الكبير الذي سيتسبب لي فيه، جاء رجل إنكليزي أو أميركي وجلس إلى الطاولة المحاذية لنا. كان يقرأ صحيفة ربما يعود تاريخها إلى العام الماضي، لأنّ على غلافها صورة أوباما يستقبل رئيس دولة أجنبياً. كان يتنفّس بصعوبة. استدرت ناحيته وسألته بإنكليزية مثيرة للشفقة: "هل يمكنني مساعدتك؟"

فأجابني بفرنسية طلقة: "هل تجد من الطبيعي أن يُنتخب أوباما لولاية ثالثة؟"

ومن دون أن ينتظر جوابي، تابع: "أنا متعب، مرهق، لقد مللت. أقترب من الثمانين، جميع أصدقائي ماتوا، لم يعد لديّ عائلة، وجدت نفسي في طنجة حيث قيل لي أن فتيانها وسيمون، فقد سلبوني جميعهم أموالي ثم هجروني. أتمنى لو أن أحدهم يساعدني على الرحيل، طبيب متفهم أو حتى ممرضة لطيفة ذات صدر عارم".

تدخل غابريال فسأل الإنكليزي هل لا يزال يذكر لقاءهما في باريس، في پالاس لدى فابريس.

"فابريس؟ نعم، أعرف شخصاً بهذا الاسم، لكن أنت تذكّرني بشخص واسع الاطلاع وكثير الثرثرة...".

حرصاً على مصلحتي قطعت هذا الحوار الذي قد يتسبب لي، إذا تطور، في ضياع زبون سهل.

- إن شئت، يمكنني مساعدتك؟
- تنفّذ المهمة؟ تحضر لي ممرضة ذات صدر عارم؟
- سأهتم بالأمر. امنحني القليل من الوقت.

ركلت غابريال في ساقه. لكنه استمر في حديثه معه، وراح يريه سترته الجديدة التي خاطها له الخياط أشرف، واقترح عليه اصطحابه لدى الإسكافي الذي يصنع الأحذية من كل الألوان.

كلما تمادى في الحديث، هدد بسقوط مخططي. يجب وضع حدّ سريع للموضوع. نهضت وقدمت ذراعي إلى الرجل العجوز وأنا أقول له: "معي سيارتي، وسأصحبك إلى منزلك". سرّه عرضي، فنهض وألقى التحية على صديقي الذي كان يتلو أشعار لافونتين على فتى المقهى الغارق في الضحك.

في الطريق، لم أستطع الامتناع عن احتساب عدد الليالي الكاملة والهانئة التي تنتظرني. أمر يدعو إلى السعادة والاكتفاء أنني سأقدم خدمة أخيرة إلى هٰذا العجوز الرائع الذي أتعبته الحياة. كان يقيم في منزل صغير في منطقة الجبل القديم. حين دخلنا المنزل أرادني أن أعاين حالة الحمامات التي راح يدلّ عليها بعكازه. الرجال الذين سرقوه جرّدوها من كل شيء، حتى أنهم انتزعوا الصنابير من أنابيبها. لم يكن في البيت أثاث كذلك. حتى السرير لم يكن في حالة جيدة. قال لي: "هذا ضريحي! انظر كيف يتوسع. لم تعد

لديّ رغبة في الحياة. مع ذلك، حين وصلت إلى طنجة تلبية لدعوة من پول بولز[1] في الحقبة العالمية للمدينة، كنت ثريّاً ومفعماً بالطاقة والمشروعات. تركت نفسي تنساق وراء الإغراءات قبل أن أستقر أولاً في شقة على بولفار باستور، ثم في منزل جبليّ رائع. بدّدت ثروتي على الاحتفالات، وكنت أتودّد إلى عائلات بكاملها إكراماً للفتيان الذين أضاجعهم. لم يكونوا مثليّي الجنس فعلاً. يمضون معي ما بعد الظهر، وفي المساء، ينفقون أموالي على المومسات في البارات. بعضهم تزوجوا وأنجبوا الأطفال. لم أكن مقتّراً. كلّ إنسان حرّ في حياته ويتصرف بها بالشكل الذي يريد. مع العمر وتراجع إمكاناتي اضطررت إلى ترك بيتي الكبير، ثم بات الفتيان لا يتردّدون عليّ حين علموا أنني لم أعد أملك المال الوفير. منذ موت پول، بتّ أفكر كل يوم في الرحيل، لكن كيف؟ من تراه يساعدني لأخلد إلى رقاد أبديّ من دون ألم ولا عنف؟"

توقف عن الكلام، ثم سدّد إليّ نظره وقال: "هل أنت قادر على ذلك؟"

– وهل أنت واثق من نفسك؟

– لو كنت مكاني، ماذا كنت تفعل؟

– لست أدري.

– إذاً، جئني بهذا القرص المنوّم ببطء... أترك لك كلّ ما أملك. ليس بالشيء الكثير. وظّفت بعض الدولارات في المنطقة الحرة.

---

١ Paul Bowles، مؤلف موسيقي وكاتب ورحّالة أميركي (١٩١٠–١٩٩٩). أمضى معظم حياته في المغرب.

وما دمت تملك سيارة، بإمكاننا الذهاب وسحب هذا المال الذي سيكون أجرك لمساعدتي على مغادرة الحياة.

في المساء، أعاد كتابة وصيته، وسلمني مغلفاً من المفترض أنه يضمّ مبلغاً من المال فيه نحو خمسة آلاف دولار. كنت قد أصبحت وريثه الوحيد، وبات عليّ الاهتمام بدفنه. كان قد اشترى في أيام عزّه قبراً أعلى مقبرة المسيحيين، بجوار ضريح أدولفو دو ڤيلاسكيز Adolfo de Vélasquez.

لم يكن لديّ من الأقراص التي طلبها، لكن كانت لديه علبة كاملة من الحبوب المنوّمة. قبل أن يتمدد على سريره أمسك بيدي وضغط عليها بكل قواه وقال لي: "شكراً!" سهرت عليه حتى الصباح. لم يفق. كنت أشعر بالحزن والراحة معاً، فقد ساعدت شخصاً طيباً على الموت بكرامة وصمت. تدابير الدفن استغرقت مني النهار بطوله. كان عليّ إنفاق بعض المال للحصول على أوراق وعلى الإذن بالدفن. في الليلة التالية، نمت نوماً عميقاً.

الفصل الرابع عشر

غرفة نومي تحولت فردوساً صغيراً. كل ما فيها مرتّب. الملاءات تُبدّل كل يومين. الوسائد مريحة. الجدران بيضاء. انتزعت صور آڤا غاردنر وكذلك صور جين تييرني[1] الممثلة التي تذكرني بأوريان، الفتاة الساحرة الجمال التي التقيتها في إحدى السهرات. المنزل تجري تهوئته مرات عدة في اليوم. تخلصت من جميع الأدوات الإلكترونية، ومن الهاتف الجوال، وجهاز الكمبيوتر، والتلفزيون، والترانزيستور... ورميت في سلة المهملات مغلفات الحبوب المنوّمة والمسكّنة. لم أحتفظ بقربي إلا بجهاز قياس ضغط الدم، وبميزان حرارة، وعلبة باراسيتمول، وكرات قطنٍ للأذن، وكوب، وزجاجة ماء، ورواية لروب-غرييه Robbe-Grillet في حال جافاني النوم، وعلبة مناديل ورقية ودفتر صغير أدوّن عليه الأفكار التي تراودني ليلاً.

هذا الصباح، وكرجل وُلد من جديد، تسليت بحساب ليالي نومي العميق التي كسبتها بعرق مخططاتي. بفضل أمي: ١٢ شهراً من النوم

---

١ Gene Tierney، ممثلة أميركية (١٩٢٠-١٩٩١).

العميق. ونظراً إلى الحب العميق الذي كنت أكنه لها، كنت أستحق على الأقل ضعف ما نلته. لكنها لم تكن تحب الإلحاح للحصول على المزيد. مع ذلك، حصلت على ٣٦٥ ليلة من النوم المصنف من نوعية جيدة. وكسمّان بربري عجوز، انكببت على حساباتي وأنا أقول لنفسي: يستحسن الجمع لا الطرح. وبحسابٍ تقريبي بسيط لليالي التي كسبتها، آخذاً بالاعتبار أهمية ضحاياي:

أختي غير الشقيقة – ٤ أشهر. كنا نادراً ما نلتقي، والعلاقة لم تكن بمثل المتانة التي يمكن تصوّرها.

المركيز – ٣ أشهر بكاملها.

المغتصب – عام بكامله على الأقل. لكنني لست واثقاً من شيء. فإن كان الموت يرفضه بسبب الروائح الكريهة المنبعثة منه، يجب إعادة النظر في هذا الحساب.

شقيقا الزهايمر – ١١ شهراً.

يزيد السفّاح – بقدر الوغد – عام.

المشعوذة – عام بكامله.

الإنكليزي العجوز – ٦ أشهر.

المجموع: ٧٢ شهراً من النوم المضمون.

إذاً، المحصلة ست سنوات من الطمأنينة. وقد أمدّني هذا الحساب بشعور الفخر والرضى. كانت المرة الأولى التي أحقق فيها انتصاراً على تناقضات الحياة وقساوتها. لديّ رغبة في أن يقاسمني أصدقائي هذا الفرح، لكن نظراً إلى السبل التي يجب اتباعها لبلوغ ذلك كان ذلك مستحيلاً بالطبع.

صوت داخلي هتف لي: "اصرُف النظر عنِ الأخلاق، ولا تلتفت كثيراً إلى ما تفعل، افعله وامضِ في طريقك. فكّر في نفسك، تصرّف بنوع من الأنانية". هكذا، نَظمت احتفالاً كبيراً في منزلي لجميع أصدقائي. جاؤوا جميعاً، وعندما سألوني عن المناسبة التي استدعت هذا الاحتفال، أجبتهم: "الخفة! خفة وجودنا التي لا يمكن فكّ ألغازها!"

II

الفصل الخامس عشر

اثنان وسبعون شهراً من النوم المضمون، ست سنوات من الطمأنينة، محصّلة ضخمة وفي الوقت نفسه لا تكفي. كنت لا أزال مستغرقاً في حساباتي حين رنّ هاتفي:

– أنا طوني، أنا في طريق العودة إلى طنجة ولديّ خطط عدة لمشروعنا! يمكنك أن تقلّني، أنا في المطار.

– مشروعنا؟

مضى أكثر من شهر على رحيله. وأعتقد أنني فعلت كلّ شيء من أجل ألّا تطأ قدماه ثانيةً أرض المغرب. لم أكن مسروراً. في الطريق إلى المطار، كنت لا أنفك أفكر في طريقة أخرسه فيها إلى الأبد. ماكر ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته. كان طوني خطراً حقيقياً على ما يسميه "مشروعنا" ويمكنه أن يتسبب في سقوطي في كل لحظة. لكنني كنت شديد الضيق. هو لا يتناسب إطلاقاً مع صنف الأشخاص الذين كنت أسرّع موتهم وكانت له حيالي مواقف لطيفة.

ضمّني إليه. كان يفوح منه عطر نسائي، وسرعان ما أخبرني أنه سيتزوج كاتي، امرأة مغربية التقاها في أستراليا. اسمها الحقيقي

خديجة. بدأت الأمور تتعقّد.

رأيت وراءه امرأةً ضئيلة الحجم، شديدة السمرة، مع عينين غائرتين ونظرة تائهة. تكبره قليلاً في العمر. كانت كاتي تعمل لدى فرنسيين مقيمين في سيدني. حين سلمت عليّ باليد شعرت كأن مسّاً من الكهرباء أصابني فانتفضت. ابتسمت فلمحت عندئذ وجهها الحقيقي. إنها مشعوذة. قلت في نفسي إنّ انطباعي الأول عنها أملته بالتأكيد المفاجآت والمشاحنات التي قد يتسبب لي فيها طوني.

انتحيت بطوني جانباً وسألته عن دوافعه للعودة. فزادني جوابه قلقاً: "لأن لديّ مشروعات عدة أعرضها عليك، فأنا بدوري بتّ عرضةً لأرقٍ رهيب".

- لكن ما ينطبق عليّ، لا ينطبق بالضرورة على سواي...

- نعم، لكنني اشتقت إليك، ومغامراتنا كانت مثيرة ومدهشة... من ثم إن كاتي منتسبة جديدة ذات أهمية كبيرة.

- هل حدثتها عن...

- بالطبع لا، لست غبيّاً. الوثوق بامرأة؟ إطلاقاً. أنت تعرف ما يقوله القرآن عن النساء: "قدرتهن على الأذى لا حدود لها" لم أفقد بعد صوابي، لكن كاتي يمكن أن تكون ذات منفعة لنا. لا تقلق.

طمأنني كلامه إلى حدٍّ ما. في السيارة سألني هل أتلقى طلبات لكتابة سيناريو في هذه المدة. كنت والحقّ يقال كثير الانشغال.

- وما الموضوع؟

- قصة خاصة جدّاً عن قاتل متسلسل. تستبدّ به مساء أيام الجمعة رغبة عارمة في القتل، وإلا...

قاطعني قائلاً: "وإلا، فلن يعرف النوم".

في اليوم التالي، جاء لزيارتي ورمى على الطاولة حزمةً من الدولارات. أبلغني أنه كسب ما يكفي من المال، ما يغنيه عن العمل مجدداً في المستشفى، واقترح عليّ أن يضع نفسه في تصرفي بكل طيبة خاطر. قال لي إنّ لي في ذمته ديناً وهو مصرّ على تسديده. أجبته بأن عملي كاتب سيناريو يؤمن لي حياة مريحة، وأنني غير متطلب، ومن الأفضل أن يسترجع دولاراته. رفض، وأكد أنّ المبلغ لتمويل مغامراتنا المقبلة. لم يكن يفهم دوماً ما أقوله له، على ما يبدو، ويوقع نفسه في مغالطات واضحة. دوماً قلت له وكررت القول إنني لم أكن قاتلاً، ولا مجرماً، أو رجلاً منحرفاً، وإنني لن ألجأ إطلاقاً إلى قتل أبرياء، وجلّ ما أفعله هو تسريع موت المشرفين على الموت، لا انتزاع أرواح أشخاص لا يزالون في مقتبل العمر. كان طوني عنيداً.

بعد لحظة، مال نحوي وأسرّ في أذني: "فقدت القدرة على الانتصاب؛ لقد أصبحت عاجزاً جنسياً، لا الفياغرا ولا سواها من الحبوب نجحت في إيقاظ صديقي القديم من رقاده. يجب أن أتظاهر بارتكاب جريمة لأحظى بالانتصاب. كاتي تدرك ذلك، وتجاريني في لعبتي، إذ تؤدي دور الضحية التي أتظاهر بخنقها فيما يداها منشغلتان بمساعدتي على الاستمناء، وقد نجحت هذه الحيلة بمعدل مرةٍ من كلّ محاولتين. وقد أدركت أنني إن ارتكبت جريمة قتل حقيقية، فسأتخلص من علّتي، تماماً كما حالك مع الأرق...".

أخرجني عن طوري. كيف يمكنه التطرق إلى الموضوع بمثل

هذه الصراحة؟ إذاً، يفكر طوني أنه إن ارتكب جريمة قتل، فستحلّ مشكلته، في حين أن عليه استشارة طبيب على وجه السرعة، أو محلل نفسي، أو اختصاصي في شؤون الجنس. لقد أضحى مخبولاً تهيمن عليه فكرة عجزه الجنسي. حاولت أن أعيده إلى صوابه.

عاد بعد أيام لرؤيتي، وكان غاضباً: تصنُّع قتل كاتي لم يعد ينفع. حاولت جاهدةً أن تجعله يستمني وهو المتظاهر بخنقها لا يتمكن من الانتصاب. لقد وضع خطةً أخرى وهو يحتاج إلى مساعدتي من أجل تنفيذها: "المسألة لا تتعلق بالقتل، ولكن بالتحديد، باعتماد قليل من العنف في العلاقة لكي أشعر بأنني في خطر، كأن أمارس الجنس مثلاً في مسجد أو في بهو بنايةٍ لا تهدأ فيها الحركة".

لم يكن في إمكاني الموافقة على مشروع الاغتصاب الذي يقترحه، لأن هذا ما كان يرمي إليه. أجابني بأنّ في استطاعته أن يدفع المال لفتيات وأنّ كل شيءٍ يمكن ترتيبه بدقة.

في النهاية، أفضّل تشجيعه على تجربة ما نوى عليه في أحد المساجد. المجازفة خطيرة جداً، وعاقبتها السجن في أفضل الحالات والإعدام في أسوئها. لكنني كنت أحبه وعليّ أن أجد سبيلاً آخر للتخلص منه. وما دام يملك المال، اقترحت عليه أن أجري من أجله جولة في المدينة لزيارة عزيزو، وهو حلاق رديء لكنه قوّاد ماهر لجميع الأصناف.

كان عزيزو إنساناً بسيطاً. ميوله الجنسية ملتبسة. ربما كان مثليّ

الجنس. يتصرّف بميوعة وبنوع من التحفظ. شعره مصبوغ، وهو رجل خدوم وطيّب الجوهر. كان يسكن في ستوديو صغير من بناية عتيقة لا مصعد فيها. حين رآني أصل منقطع النفس، قال لي: "هذه رياضتي. صعود الدرج إلى الطبقة السادسة مرات عدة في اليوم يكفيني للمحافظة على جمال جسدي".

ما إن جلست، حتى جاء بـ"آي باد" وأخذ باستعراض الصور.

– هذا الآي باد هو للرجال الذين يحبون النساء. لديّ جهاز آخر أكثر جرأة بكثير. لكنني لن أعرضه عليك. لو تدري ما الذي يطلبه بعض الرجال مني! هم مجانين. الأسبوع الماضي طلب أحدهم فأراً في جورب نسائي... كان يريد إقحامه في مؤخرتها للمتعة! يا له من منحرف غريب الأطوار! حسناً، وأنت؟ بماذا يمكنني خدمتك؟

– الخدمة ليست لي، بل لصديقٍ يعاني من المشكلات.

– مشكلات، مشكلات، لكن أيّ نوع من المشكلات؟ أنت تخيفني.

حدثته عندذاك عن حالة طوني وذكرت له أن الدفع بالدولار.

بدا عزيزو مرتبكاً وحائراً، فلم يكن لديه من يقدمها إلى طوني من أجل هذا الدور الغريب. اقترح عليّ عوضاً عن جرعات الدواء عقاقير وحتى مراهم من خلاصات الكركم والزنجبيل. لم يكن في ما عرضه ما يقنع. وبعد تفكيرٍ تنهد قائلاً: "لماذا يعاني الرجال من مشكلات الانتصاب؟ هذا داء العصر. عليهم أن يدعوا الطبيعة تأخذ مجراها. كمشكلة النوم، أنا لا أفهم إطلاقاً أولئك الذين يكثرون من تناول الأدوية ليتمكنوا من النوم".

رغبت في الانقضاض عليه للوهلة الأولى، لكنني تمالكت نفسي. عليّ أولاً أن أجري حساب أرصدة النوم التي يمكن أن أجنيها من موته. وقلت في نفسي: عزيزو لن يأتيني بالكثير. قد يموت غداً، فلا يتغير شيء في المدينة. المومسات سيجدن لتدبير شؤونهن قوّاداً آخر. والزبائن لن يجدوا أيّ صعوبة للقاء البغايا... شكرت عزيزو وغادرت.

في طريق العودة، راجعت تلقائياً حساب أرصدتي في النوم، فأصابني الهلع حين اكتشفت أنني فقدت منها الكثير. كيف حدث ذلك ومتى؟ لا فكرة لديّ. سرقة، تغيّب، إهمال؟ شعرت بنفسي كأنني ضحية سطو. مع أنه ليس لهذه الأرصدة صفة مادية، كنت أملكها وأعتقد أن في إمكاني التصرف بها على هواي. وكان يحدث لي في المدة الأخيرة أن أغفو في عزّ النهار في حديقة عامة، وهو أمر لم يكن يحدث معي في السابق. إذاً، هل وقعت ضحية سرقة؟ ثمة خطب ما.

بوصولي إلى منزلي، دخلت سريري مباشرةً. حاولت أن أغفو، لكن من دون طائل. أرصدتي اختفت فعلاً جميعها. تبخرت. لأيّ سبب؟ هل انتهت صلاحيتها؟ هل فقدت كل تأثير لها؟ وما العمل؟ تناول حبوب منوّمة لاستعادتها؟ أدركت أنني فقدتها نهائيّاً.

لا بدّ من العودة إلى العمل مباشرةً، ووحيداً. هذه المرة قررت مغادرة طنجة وألّا أترك أثراً يدل على مكاني لبعض الوقت. لكن في اللحظة التي كنت أغادر فيها البيت، جاءت كاتي يتبعها طوني في

حالة جسدية مزرية. كان يجرّ قدميه جرّاً، ويعاني من صعوبة في الكلام. ذكرت لي أنه ابتلع حبوباً اشتراها من أحد الأفّاقين أصابته بالتسمم. وقد خرج للتو من المستشفى حيث أجريت له عملية غسل المعدة غير أنه لا يزال يعاني من الألم.

"لا يكفي أن عضوه فارق الحياة، لكن ها السم حوّله إلى كلب. بات الآن ينبح ويعضّ".

لم يكن ينقصني إلا هذا: طوني وقد تحوّل إلى كلب! اقتربت منه. بدا مرهقاً وحزيناً وعيناه متعبتان. وضع رأسه على كتفي وتمتم: "لقد قُضي عليّ!" وبدأ ينتحب كطفل. جذبته زوجته من ذراعه وقالت له إنّ الوقت قد حان للعودة إلى المنزل لتناول العشاء، مضيفةً: "ليس في الحياة سوى المضاجعة، أليس كذلك يا طوني؟"

الفصل السادس عشر

بدأت حال طوني تتراجع سريعاً. هذا ما علمته في اتصال من زوجته وهي تبكي. كان في مستشفى الجبيلات.

ذهبت لزيارته. ولما وقفت بجانب سريره، اكتشفت أنه يحتضر. تناولت يده وضغطت فلمحت الدموع تنحدر على وجنتيه. أخرجت كاتي آلة تسجيل من حقيبتها وشغّلتها، فسمعت تلاوة قرآنية. كانت تلك النهاية. طوني الملحد رفع سبابة يده اليمنى وبدأت شفتاه تتمتمان شهادة الإيمان. لم أكن أعلم أنه تحوّل إلى الإيمان، وأن زوجته تستمع لتلاوة القرآن. انحنيت فوقه على السرير، وعلى جري عادتي، كتمت أنفاسه سرّاً. لم تشكّ كاتي في شيء. كانت خائرة القوى، فجلست أرضاً واستغرقت في البكاء. أنا بدأت بدوري البكاء. ما إن جاء الطبيب وأعلن الوفاة، حتى دخل ممرض الغرفة مسرعاً وقدّم فاتورة المستشفى. من دون احترام ولا حياء.

جرت مراسم الدفن في اليوم التالي. لم يحضر الجنازة أحد. أمر يدعو إلى الحزن حقّاً. في الليلة نفسها، جمعت كاتي حقائبها

وسافرت إلى الدار البيضاء، ومن هناك، كما قالت، ستستقل الطائرة إلى مونريال. لم أطرح عليها أيّ سؤال. صفحة وطُويت. وأنا سيصبح بإمكاني النوم مجدداً، مقتنعاً بأن كاتي تجهل كل شيء عن خططنا. أخيراً أفضّل أن أقنع نفسي بذلك.

كان ليلي مضطرباً. إن كان موت طوني يرتّب وضعي، فعاطفة الحب التي أكنها له جعلتني حزيناً. سأفتقده خصوصاً من أجل تلك اللحظات التي يبدأ فيها الهلوسة ويريد "تحقيق أشياء خارقة"، كما كان يقول. لكن الآن، على الأقل، لن يكون على نشاطاتي الخاصة أيّ شهود.

اكتشفت في الأيام التالية أن موت طوني جعلني أرث ليس أرصدة نوم فقط بل شيئاً آخر: تحقيق انتصاب قوي. ها أنا الآن أمام سلسلة انتصابات متكررة لست أدري كيف أصرّفها. ليس لأنني أحتقر هذا النوع من العافية، بل لأنني كنت أخشى أن أجد نفسي مجدداً مع انتصاب مرضيّ حتى من دون ممارسة جنسية. إذاً، يجب التخلص سريعاً من هذا الرصيد المزعج. طبيب وقح كتب لي وصفة طبية كالتالي: ممارسة العادة السرية صباحاً وظهراً ومساءً، مع مشاهدة فيلم بورنوغرافي ألماني، وخلال أسبوعين، كما أكد لي، ستستعيد حياتي الجنسية انتظامها.

وصفته لم تكن تكفي، فكان عليّ وصل العلاقة مجدداً مع سكينة التي كان زوجها في السجن. بفضلها، استطعت أن أختزل ممارسة العادة السرية إلى مرتين يوميّاً، ثم مرة واحدة. استعجلت التخلص

من هذا الوضع لأن من عادات صديقتي السيئة شرب زجاجة أو اثنتين من البيرة قبل ممارسة الجنس. أنفاسها والرائحة الكريهة لهذا المشروب كانت تروعني.

كنت أنتصب لكنني لم أعد أنام. كان لا بدّ من الانطلاق إلى الصيد مجدداً، وتجهيز مداخلاتي بدقة. كنت متطلباً وأدخل في مجازفات كبرى. تسريع موت متعطل عن العمل مسكين لن يعود عليّ بالنفع الكثير.

في الانتظار، كان عليّ أن أمضي لياليّ وعيناي مفتوحتان وقد جفّ ماؤهما وباتتا تؤلمانني. سقطتُ مجدداً في اللحظات الأكثر سوءاً في حياتي. ومجدداً بات رأسي مثقلاً بأفكار لا جدوى منها، وهوسيّة. لم يكن في إمكاني التخلص من الضجيج والضوضاء والاضطراب، أو وضع حدّ لهذه الفوضى. حتى لكأن فكري في ورشة أعمال. بتّ سجين أفكار تافهة ألتقطها مساءً في الشارع، أو المقهى، أو من فيلم رديء. كانت أفكاري تتكرر إلى ما لا نهاية كضربات مطرقة تنهال بلا هوادة على مسمار معاند. كنت أبحث عن طريقة أخرس بها هذا الضجيج في رأسي لكن من دون طائل، لأنني كنت أواجهه بأسلحةٍ غير فعالة.

ليسً عدلاً أن يكون هناك أشخاص مثلي يعانون صعوبةً في النوم يفوقون عدداً أولئك الذين ينامون من دون مشكلة نوماً عميقاً ومتواصلاً. البشرية في النهاية فئتان. الأرِقون والآخرون، وكذلك الذين يعانون الصداع والآخرون، مرضى السكريّ والآخرون،

المكتئبون والآخرون... كنت أتحرك في دوامة.

ذات يوم، بينما كنت أنتظر طائرتي إلى باريس في قاعة أحد المطارات، شاهدت رجلاً عجوزاً يمشي ببطء ويحمل وسادةً في كيس شفاف من البلاستيك. أدركت مباشرة أنه يعاني صعوبة في النوم، فلا يغمض له جفن إلا على هذه الوسادة التي لا تفارقه. اقتربت منه وحيّيته متخيلاً أنه ربما يكون الرجل المناسب لغرضي.

– اعذرني على إزعاجك، لكن قل لي: لماذا تسافر مع هذه الوسادة؟

– كم أنت فضوليّ! هذا أمرٌ يعنيني.

من ثم راح يسرد لي حكايته مع زوجته التي أحبها كثيراً لكنها فارقت الحياة. "على هذه الوسادة"، قال لي، "عطرها، رائحتها الطبيعية، ذكرياتنا، ماضينا، حبنا. لا أستطيع النوم من دونها".

في اللحظة التي كنت أستعد فيها للمغادرة، أمسكني من كمّي وسألني لماذا طرحت عليه السؤال. فحدثته عن أرقي والأهمية التي أوليها عامةً لكل ما له علاقة بالنوم. عندئذ اقترب مني وأسرّ في أذني هذا الاعتراف الغريب: "منذ موت زوجتي، كلّ مساء، وقبل دخولي السرير، أمارس العادة السرية لتفريغ نفسي. بعدها أفقد حيويتي، وأشعر بالإرهاق، فأصير مستعدّاً للنوم، وألقي برأسي على وسادتي السحرية! ليس عليك سوى أن تقلّدني".

رغم أنه أكثر تنبهاً مما اعتقدت، في اللحظة الأولى، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته، لكنّ هذا الرجل لن يكسبني شيئاً. لن يكون زبوني

المقبل. ألقيت عليه نظرة أخيرة، وغادرته من دون إلقاء التحية عليه.

أدركت ذلك اليوم أنني لن أنتصر نهائيّاً على أرقي إلا حين أسرّع موت شخصية مهمة وبالغة التأثير، أختارها بعناية لا مصادفة، أحد يكون وزنه السياسي والاجتماعي معادلاً للهدف الذي أسعى إليه. لكنني لا أملك بعد السلطة ولا القدرة للانقضاض على هذا النوع من الأشخاص.

فكرت في رئيس حكومةٍ سابق في عهد الحسن الثاني كنت على معرفة سطحية به. كان في الخامسة والتسعين ويملك ثروة أسطورية، ويعيش في بيته محاطاً بعائلته وبعدد قليل من أصدقاء جيله ممن لا يزالون على قيد الحياة. كنت أحبه كثيراً لكن الاتصال به انقطع تماماً. كنت أسأل عن أحواله وكان يخبرني من يراه وهو متعجب بأنه في صحة ممتازة. "لا يزال يدخن سيجار الهافانا الضخم، وينام جيداً، ويلعب الورق بعد الظهر مع بستانيّه وسائقه. أحياناً يدهمه النعاس أثناء اللعب لكن سرعان ما يستفيق من دون أن يفوته شيء".

الفصل السابع عشر

لم أعد أعرف كم مرّ عليّ من الليالي وأنا محرومٌ الرقاد. لم أعد أنام. يستحيل عليّ إغماض عيني لو لحظة. لياليّ أضحت بيضاء وجوفاء. فراغها يعذبني ويخرجني عن طوري. ما إن يقترب المساء، لا أعود أنا نفسي. أفاجئ نفسي وهي تتسوّل بصوتٍ عال: "قليلاً من النوم لو تكرّمت... قليلاً من هذا الغياب اللطيفِ الممتع... انفلات بسيط، مغامرة قصيرة، فسحة في الطبيعة مع النجوم في الظلام المطلق تكفيني...". لكن لا شيء من كل ذلك.

يساورني شعور أكيد بأنني معاقب. ممن؟ لست أدري. محكمة غير مرئية حكمت عليّ في غفلة مني. قضاة – على بيّنة من خططي – اجتمعوا في أعالي توبقال وقرروا أن ينتزعوا مني كل إمكانية للنوم. من دون مرافعة ولا نقاش.

هيئة المحلفين لم تكن مؤلفة من قانونيين بل من علماء دين رأوا أن ممارستي الشعائر الدينية الإسلامية تعتريها شوائب عدة، خصوصاً ما يتعلق بطريقتي في تسريع موت الأشخاص، وهو أمر لا يمكن إلا

أن يتعارض مع الإرادة الإلهية. ومن ناحية أخرى، لا أؤدي الصلوات الخمس، ولا أصوم رمضان. ويحدث أحياناً أن أشرب كوباً من النبيذ أو كأساً من الشامبانيا. أنا لا أبالغ. حتى الحج أسأت تطبيقه لأنني استغللت الرحلة لأكتب تحقيقاً في صحيفة *Le Monde* أنتقد فيه بشدّة الطريقة التي تتعامل فيها السلطات السعودية مع هذا المدّ البشري من المسلمين القادمين للحج من أقطار العالم أجمع. لو أنهم كانوا يدركون ما كنت أنوي، لاحتجزوني ورفضوا تسليمي جواز سفري. فللسفر إلى هناك لا بدّ من تأشيرةٍ للدخول ومثلها للخروج. فمن مصلحتنا أن نتصرف بكثير من الدراية وبتحفظ شديد.

المسلم الصالح لا يتطرق إلى مثل هذا النوع من الموضوعات، فالحج ركن من أركان الإسلام الخمسة. هو خاتمتها ويتمّ بخشوع وتقشف ومن دون استفزازات، وإلا انزلقت الأمور سريعاً نحو الأسوأ، لتجد نفسك في السجن بتهمة الكفر والردّة. فمن السهل جدّاً عليهم إصدار مرسوم بأنك مرتدّ. يكفي أن يقرّر ذلك إمام خبيث حاقد، ويصير عليك عندئذ أن تثبت العكس! هذه الجريمة تُطبق عليها في السعودية عقوبة الإعدام، بقطع الرأس في الساحة العامة بعد صلاة الجمعة.

سمعت أخيراً أن السلطات السعودية بحاجة إلى جلادين، وقد نشرت لهذه الغاية إعلاناً في الصحف. مع العلم أن هذه المهنة الخاصة جدّاً هي مهمة يرثها الابن عن أبيه. وتخيلت للتوّ أباً يدفع ابنه إلى الوقوف عند رأس الخروف. "عليك أن تسدّد ضربةً واحدة، بقوّة ودقّة. الرأس يجب أن يقطع بضربة واحدة وإلا ارتفعت احتجاجات

الجمهور مباشرة. الفعالية المطلقة مطلوبة!". وجود الله مسألة لا تحتمل اللهو خصوصاً لدى البدو.

لحسن الحظ أنّ المغرب لا يطبّق قطع رؤوس المسلمين الضالين. لكن يبدو أنّ عقاباً قد صدر بالنسبة إلى حالتي. "يُحرم حرماناً تامّاً النومَ، وفي النتيجة الأحلامَ". من تراه أصدر قراراً كهذا؟ أعدائي ليست لديهم مثل هذه القدرة، ولا جيراني. إذاً، زوجتي؟ أتكون الرغبة في الانتقام قد استبدّت بالمرأة التي أحببتها والتي توقفت عن حبها وهجرتها انتصاراً لكرامتها؟ يجب الاعتراف بأنها ماهرة في هذا المجال. المشعوذون والنصابون والبصارون جميعاً تحت إمرتها. كلّ مال النفقة تبدّده على هذا الهراء، وربما حتى على بعض القضاة في قمة توبقال على ارتفاع ٤١٦٧ متراً عن سطح البحر. نشأتها في هذا الوسط من السحر والمكائد أتاحت لها التصرف بها بما تقتضيه المواقف. أدركت سريعاً أنّ عليّ تجنّب مواجهتها. حتى لو كنت لا أؤمن بهذه الممارسات من عصور بائدة.

يبدو أن للعين الشريرة وجوداً حقّاً. فكلما أثرت هذا الموضوع، صادفت من يقول لي، حتى لو لم يكن بالضرورة أميّاً أو عديم الثقافة، "بالطبع لها وجود. على أي حال إن نبينا يأتي على ذكرها في أحد أحاديثه. يجب ألّا نهمل الجانب اللاعقلاني في الحياة!"

لا أدّعي أنني قادر على تفسير كل شيء، ولا فهم كل شيء. لكن لا يمكن أن يقنعني أحد أنّ حجاباً، وكتابةً على نثار عظم، وطلسماً يكسوه تدوينٌ بحبر باهت، مع تراب ممزوج بدم جاف، مجهّزة جميعها في أحد الأكواخ الحقيرة في إحدى مناطق المغرب النائية،

في أغادير أو تافراوت، يمكن أن يكون لها تأثير في نوعية نومي.

من أجل الوقوف على السبب الحقيقي لدائي، يجب البحث في مكان آخر، من دون تجريم إنسان، بمن فيهم زوجتي السابقة. يجب البحث داخلي، في ماضيّ، في جسدي، في ذكرياتي القديمة، حتى لو وقعت على أمور عددتها بلا أهمية وأنه لا معنى لها.

التأمّل. الجهوزية لإسقاط الضجيج اليومي والعودة إلى الذات. التفكير أثناء التنفس المنهجيّ. الاسترخاء. الرضى بإهمال الذات. رفض الاستسلام للعقل الذي لوّثته نفايات الحياة اليومية.

لسوء الحظ، لست مهيئاً لذلك بالكامل. فدوماً كنت في يقظة مفرطة. كل شيء، بالنسبة إليّ، يجب إخضاعه للرقابة، خصوصاً أنني لا أريد إطلاقاً أن أفقد السيطرة على عقلي، ولا على الأشياء. لم أثمل مرةً، ولا تناولت شراباً مع الأصحاب، كما يقال، ولا دخنت سيجارة حشيش، ولا تناولت حبة من حبوب الهلوسة التي تجعلك ترفرف كعصفور سعيد. لا أطلق العنان لأهوائي، ولا أفقد انتباهي. يكفي أن تبرز ذرّة ذنبٍ من عمق الليل حتى تمرّ أمامي مواكب أشباح الرجال والنساء الذين سرّعت موتهم. يستمرّ العرض ما يقارب الساعة، أعاني خلالها العذاب بصمت. ضيقي يتوقف حين أتوصّل إلى التفكير في الليالي الرائعة التي أمضيتها بفضل أرصدة النوم التي جمعتها بجدارة.

قرأت منذ مدة أن حرمان النوم هو بين أساليب التعذيب الأكثر فعّالية التي يمارسها الطغاة على معارضيهم ليجبروهم على الكلام.

يقضي هذا الأسلوب بإيهام السجين بأنهم سيسمحون له بالنوم ثم يوقظونه بطريقة فجّة مرّات متتالية. الطريق إلى الجنون، الجنون العارض أو المقيم، يمرّ علىً ما يبدو بالأرق. أما الانهيار النفسي، فكثيراً ما يكشف عن نفسه خلال الليالي التي لا تعرف فيها العيون النوم.

يمكننا بالطبع ألّا ننام ليلةً من دون أن نصاب بانهيارٍ نفسيّ. ماذا يفعل سكان شمال الكرة الأرضية؟ يعتادون. السنة عندهم قسمان: ليل طويل ونهار من دون نهاية. ما يجعلهم يفقدون البوصلة ويغرقون في الجنون.

من هذه الناحية، يجب أن أعيد النظر في إعجابي ببلدان الشمال.

الفصل الثامن عشر

أعلم أن خضوعي لعلاج نفسيّ طويل يمكنه أن يحلّ مشكلتي. لا بد من الصبر والإيمان، غير أنني لا أملك هذا ولا ذاك. وافقت على زيارة أحد المعالجين النفسيين على مدى عام. حفرنا. أو بالأحرى حفرت. وكنت أعرف ما الذي سأجده. "أوضح من أن يخضع لتحليلٍ بنّاء"، هذا ما استنتجه المحلل الذي نصحني بالكتابة حول الموضوع. "علاج رائع"، قال لي.

نعم، الكتابة، لكن شرط أن تستمرّ، وأن أتوصّل إلى سرد حكايةٍ آسرة أبطالها أشخاص حقيقيون. حاولت مرات عدة، وكل مرة كنت عاجزاً عن تخطي الصفحة الأولى. في الواقع، أحبّ رواية الحكايات الخيالية لا استخدام الأدب كتعويذة. لو لم أكن كاتب سيناريو، لكنت اختصاصي مونتاج أفلام. أمضي وقتي في منح الإيقاع لأفلام لم ولن ترى النور، من دون سيناريو ولا حبكة. إنني واثق أنّ إصلاحَ أفلامٍ خضعت لنوعٍ من علاج نحافةٍ قسريّ سيكون ممتعاً. أحاول أنْ أمنحها جسداً وتماسكاً، من أجل ملءِ فراغ الليل تحديداً.

سيناريواتي أهتم بها بكثير من العناية كما لياليّ. وبصبر متناهٍ،

أرتّبها وأنظمها لتؤدي وظيفتها بثقة وصدقيّة. لذا يطلبني مخرجو الأفلام باستمرار. هم يعرفون ميلي إلى أن أضفي عليها أكثر مما يضفيه الآخرون. اليوم كتّاب الحوارات والسيناريوات للسينما مفلسون. هذا لا يؤدي إلى ازدهار هذه الصناعة. الميل الآن هو إلى الاكتفاء بالأشياء الصغيرة: ميزانية صغيرة، ممثلون صغار، ديكور صغير. والنتيجة: فيلم صغير، صغير جداً من دون مدى. أنا أسدّ النقص، ألاحق أدنى إهمال، أقفل الأبواب حين ينسى الممثل إقفالها، أختزل الحوارات فلا أُبقي إلا على الضروري. شهدت السينما الفرنسية كتّاب حواراتٍ كباراً أمثال باسكال جاردان وهنري جانسون وميشال أوديار، المبدع أوديار، عرفوا كيف يلتقطون روح العصر والكلمات التي تلائمه. هؤلاء هم مصدر إلهامي.

المحلل النفسي اقترح عليّ فكرةً جيدةً: الكشف مجدداً على بياضات السرير وإيلاء اختيار الفراش والسرير عنايةً كبرى. في الشارع إعلان داخل ڤيترين استرعى انتباهي: "Beautyrest: اكتشفوا التقنية الجديدة للفرش التي تعيد شحن الجسد أثناء النوم". هذا ما أنا بحاجةٍ إليه! لعلّني أهتدي إلى النوم، قلت في نفسي.

دفعت الباب ودخلت إلى المتجر. رجل صغير يرتدي نظاراتٍ سميكة قال لي: "أيها السيد، من الواضح أنك لا تنام جيداً، لديّ ما تبحث عنه!" ثم اندفع في خطاب يؤكد فيه أننا نمضي ثلث عمرنا في السرير، وأنّ ليلة لا ننام فيها تعني ضياع نهارٍ من حياتنا... من دون النوم، قال، لا نعمل شيئاً بطريقة جيدة: لا نوقع اتفاقات، لا ننجح

في عملنا، حتى النساء لا يبدين اهتماماً بنا...

نظرت إليه فاستنتجت أنه يعاني من سوء النوم بقدر ما أعاني. كان يتابع كلامه المنمّق ويدّعي أن أكبر الفنادق تشتري منه تجهيزاتها. "لدى السائح الأميركي متطلبات عجيبة للياليه، وBeautyrest فكرت فيها واستجابت لها. مجموعاتنا تعتمد على أرقى ما توصلت إليه التكنولوجيا، ويجري اختبارها بواسطة الآلات، مع كفالة عشر سنوات! أضف إلى ذلك، وهذا بيننا، ستمنح نفسك متعة النوم يوميّاً كأنك تنام في قصر! النوم المرمِّم مضمون، الاستيقاظ بكامل النشاط مضمون!" لم يكن ثمة حاجة لأقول له إنني لست أميركيّاً وإن متطلباتي كانت في غاية البساطة: النوم، هذا كلّ شيء.

شكرته وقلت له إنني سأفكر في الموضوع. وفيما هو يرافقني إلى الباب، أسرّ في أذني: "هذه الفرش تحسّن الأداء الجنسي! وأنا أعلم عما أتكلم..." ثم أطلق ضحكة عالية وربت على ظهري.

فكرت في أن أقول له: "أريد النوم لا ممارسة الجنس! الجنس يمكن ممارسته أينما كان...". لكنّ نظرة إلى هيئته جعلتني أصرف النظر عن قول شيء.

الفصل التاسع عشر

أجمل ليالي النوم عرفتها في الصحراء، مطلع فبراير. كنت أصغر بكثير، عاشقاً ومفعماً بالأمل. كنت في رفقة فريق تصوير فيلم في الجنوب المغربي حيث التحقت بي عشيقتي مايا. وكالة سياحة تولت تنظيم كلّ شيء: الحمام، المطبخ، الخيم المجهّزة...

مجرد وجودك على مسافة خمسمئة كيلومتر بعيداً من مراكش يكفي لدفع أيٍّ كان إلى عالم آخر، وزمان آخر، يغيب فيه الحزن والضغوط اليومية. الصحراء التي في نظر بعضهم معادل العدم هي مكان حيّ لكنه مغلف بالصمت. هذا الصمت ليس غياب الضجيج بل شيء آخر، نوع من الخفة التي تسكنك وتغذي طمأنينتك واستعداداتك للتأمل واتخاذ مسافة من الأشياء.

في اليوم التالي، استيقظت مبتهجاً إلى درجة أنني كنت أخبر الجميع كم كان نومي جيداً. لامست حدود السخافة حتى أن أحد التقنيين سألني هل لا أسخر قليلاً. بالطبع، كان من النوع الذي لا يعرف الأرق وأهواله. المخرج، الذي منذ بداية التصوير يكاد يلتهم صديقتي بعينيه، قال لي: "أنت لست بالشخص الطبيعيّ. مع فتاة مثل

مايا، لن يغمض لي جفن طوال الليل. كيف يمكن أن تكون سعيداً لأنك استغرقت في نوم عميق في حين كان بإمكانك أن تمارس معها الحب الليل بطوله!"

لماذا أجيبه أنني ومايا نحب ممارسة الحب بعد الظهر، وأن الليل للنوم وجسدانا متعانقان بهدوءٍ وروعة.

بعد ممارسة الحب، كانت مايا تحبّ تحضير ليلنا. نأخذ حماماً ساخناً وسط الشموع تدلكني خلاله طويلاً وهي تهمس كلمات الحب في أذني، فيسري الاسترخاء في جسدي، حتى أنني غفوت مرةً وأنا بين يديها في مغطس الاستحمام.

كانت حقبة للزمن فيها لونٌ مختلف. انتهيت إلى الإقرار بأن حياتي الزوجية انتهت لكنني لم أتوصل إلى هجر زوجتي التي تمارس عليّ الابتزاز العاطفي. كنت مهيّأً للحب الكبير.

الليلة التي تلت لقاءنا نمت مغموراً بالسعادة. لم يكن نوماً عميقاً لكنه رائع وواعد. كل الأحلام كانت متاحة. لكن موعدنا الأول لم يجرِ على ما يرام. المطعم كان مزدحماً ويبثّ موسيقا إلكترونية تطغى على حديثنا. أثار الأمر ضحكنا. في المرة التالية، جرت الأمور كما نشتهي.

كانت شغوفةً بالقراءة وبالسينما. الموضوعات بيننا لم تكن تنضب، كنا ننتقل من فيلم لفريتز لانغ Fritz Lang إلى رواية لمارغريت يورسينار Marguerite Yourcenar، ومن ألبرت كوهين Albert Cohen إلى أورسون ويلز Orson Welles. من وقتٍ إلى آخر، كان يسود الصمت بيننا فنتبادل النظرات بتواطؤ. كنت قد اتخذت قراري بأنها

ستكون امرأة حياتي. حين يكون الإنسان عاشقاً، يكون ميّالاً إلى المبالغة. بعد هذا الانفلات الأول في الصحراء المغربية، فاجأتها باصطحابها في رحلة إلى آيسلندا، وهي بلاد جافة وغريبة، وسكانها من أكثر الناس نهماً بالقراءة، مدعياً لزوجتي أنني منشغل في تصوير فيلم جديد. مايا وأنا اختفينا معاً. وكان اختفاءً رائعاً، لكنني كنت أدرك أنّ لا مستقبل لحبنا، إذ لم يكن في إمكاني ترك زوجتي التي تمرّ بمرحلة اكتئابٍ حادّ. كنت آمل في التوصّل إلى تدبير، مفكراً في فيلم L'arrangement [التدبير] لإيليا كازان Elia Kazan من بطولة كيرك دوغلاس Kirk Douglas، فكنت أتلبس نوعاً ما شخصية البطل. كلّ ذلك لم يكن سوى محاولةٍ لتأجيل القرار الذي عليّ اتخاذه. كان حبّاً في الخفاء. نحتجب لنتبادل حبّنا، وكنا نتجنب الحديث عن "الوضع"، لأن الكلام ينتهي في كلّ مرة إلى شجن.

حين علمت مايا ذات مساءٍ أنني قطعت عهداً لزوجتي أنني لن أتخلى عنها، لم تتفوّه إلا بكلمةٍ موجزة وقاطعة: "لقد خسرتني". كنت أدرك جُبن الرجال وأرتاب من قسوة النساء. رحلتْ حاملةً معها كل الآمال والأحلام التي بنيناها معاً. الفراغ الذي خلّفته وراءها حلّ محله يأسٌ عنيد وقتاً طويلاً. برحيلها، فقدتُ الحب واستعدتُ ليالي أرقي.

الفصل العشرون

منذ طفولتي وأنا عرضة للصداع القوي. آلام في الرأس قوية لا ترحم، تعذبني ثم تختفي بعد ساعاتٍ. لتجنبها، منعت نفسي عن كل ما كان يمكنه أن يتسبب فيها. كنت أسمّيها في تلك المرحلة "عذاباتي الانتحارية". لا كحول، لا شوكولا، لا مآكل دسمة، لا أطعمة آسيوية، لا مضايقات (لم أكن أنجح في تجنبها دوماً)، لا غضب، لا توتر...

عشت طويلاً مع هذه الآلام التي تصيبني في أيّ مكان وزمان. كانت تهاجمني أحياناً في الليل لتتوعّدني بليلةٍ من الأرق التام. لم أعد أدري هل أناضل من أجل التخلّص من الصّداع أو التخلّص من الأرق. على أي حال بعض أنواع الصداع تنتظر حتى أنام لتوقظني بوحشيةٍ رهيبة. وتدّ ينغرز في صدغي فأقفز من الألم.

كم من مرة حلمت لو يمكنني تبديل رأسي ووضعه أمامي وإلقاء العبر والدروس عليه. الصداع ليس مرضاً. إنه حالة وجود. حضور مضطرب يكون الرأس في قبضته. نوع من العذاب، نموذج مصغر عن الجحيم الذي تهدد به الكتب المقدسة من يخرجون عن الدين. عقاب أقصى. ألم متواصل يتوسّع عمقاً أكثر فأكثر. إنه الرعب.

استشرت كثيرين، وفي كل مكان. حتى في الهند حيث نصحوني باختصاصيّ كبير بهذا الداء. أتذكر أنني وقفت في صفٍّ طويل على درج حيث كان عشرون شخصاً في الانتظار. جميعهم يبدون واثقين ثقة كبيرة بهذا الطبيب. عيادته تقوم في حيّ قديم من دلهي العتيقة. ما إن رآني، حتى قال لي بإنكليزية أفهمها: "بالنسبة إليك الأمر معقّد". أعطاني قارورة ملأى بأقراص بيضاء لأتناولها ثلاث مراتٍ في اليوم، ولشهر.

النتيجة فشلٌ تامّ. أقراصه كانت من الطبشور أو الدقيق الممزوج بمادة أخرى.

مرّةً أخرى، وبناءً على نصيحة من أصدقائي بيار—آلان ودوروثي، استشرت اختصاصيّاً في الطب التجانسي، مشهوراً في جنيف، وكما قيل لي، يجترح المعجزات. الجميع معجبون به. رأيته ورآني. خرجت من عنده مع قائمة طويلة ملأى بأسماءٍ وأرقام. اتبعت تعليماتها بحرفيتها. النتيجة لا شيء. Walou, Nienti, Nada[1]. وقت مهدور. أمل محبط. وبالنسبة إليه فشل. كنت من اللياقة إلى حدّ أنني لم أقل شيئاً. أصدقائي كانوا منزعجين ولا يفهمون، لماذا لم تسرْ الأمور معي كما يجب.

اشتركت مرةً في اجتماع للمصابين بالصداع. كان كلّ واحد يسرد معاناته مع الداء ويتحدث خصوصاً عن مزيج الأدوية التي يتناولها ليسكّن الألم. كان اجتماعاً مهمّاً لأننا تبادلنا آراءنا السياسية والثقافية بعيداً من آلام الرأس. كان بيننا ممثل مسرحي اشترك في

---

١ مفردات ثلاث باللهجات المغربية والإيطالية والإسبانية، تعني جميعها: لا شيء.

جميع مسرحيات صمويل بيكيت. حين يصيبه الصداع كان يعتلي خشبة المسرح، وكان الجمهور يعتقد أن التّقطيبة على وجهه هي من مقتضيات الدور. يستمر في التمثيل حتى يزول الألم. امرأة حسناء تدير محلّاً للموضة حدثتنا عن الصداع الذي يصيبها في الغالب لحظة رعشة الجماع. تختلط عندها اللذة بالألم. وبالنسبة إلى شريكها تلك اللحظة هي منتهى النشوة لديه، وكان يعتزّ بها. كما كان هناك امرأة لديها شغف بالسياسة لكنها اضطرت إلى قطع مسيرتها، والاستقالة من مهمتها، بسبب نوبات الصداع التي تنتابها، وانصرفت إلى تمضية وقتها في اختبار أدوية جديدة.

بين الصداع والأرق نوع من القرابة. الواحد منهما يستدعي الآخر. فلشدة ما يلحّ المصاب بالأرق في طلب النوم، يُرهق عصيباته، ما يتسبب له في آلام الرأس. وحين تكون في قبضة الصداع، من المستحيل أن تتمكن من النوم. على أيّ حال هذا ما كان يحدث لي.

ذات مساء كئيب، أدركت أنه مضى عليّ نحو شهرين لم أعرف خلالهما آلام الرأس. وخشية معاودتها حاولت صرف تفكيري إلى أمور أخرى. الحياة من دون ألم لها طعم لذيذ. يجب أن تكون قد مررت بمعاناة آلام الرأس الحادة والمستمرة من أجل أن يطيب لك تذوق اللحظات البسيطة في الحياة، كالجلوس تحت شجرة وانتظار مغيب الشمس. شرب كأس مع الأصدقاء في أجواء من الثرثرة واللهو. اكتشاف كاتب والانكباب على قراءته بنهم. تناول طبق معجّنات حضّرته المرأة التي تحبّ وتقبيلها في عنقها حين تجهّز المائدة، والقول لها إنك تحبها وتعبدها، وإنها فريدة، وإنها امرأة حياتك.

تدخين سيجار وشرب كأس من الكونياك المعتق. نبش ذكريات مع شخص مقرب منك وإجلاء صورتها. أخذ قيلولة على كرسي هزاز والاستغراق في أحلام إيروتيكية.

كل هذه السعادة بدأت اكتشافها من جديد، لأن الرقابة رُفعت. أُطلق سراحي. ما من آلام في الرأس، ما من اضطرابات ولا أفكار سوداء. عُدت شابّاً من جديد. التأثير كان مباشراً. فقدت بعض الوزن وتحسن أدائي في العمل. كان الصداع ملتهم الصحة والطمأنينة. شعرت كأنني صرت شخصاً آخر، مستعدّاً لمباشرة مشروعات جديدة، ومغامرات جديدة.

لكن ما إن زال عني الصداع، حتى حلّ محله الأرق. كأنهما تبادلا كلمة السر. هيّا، إليك ضحية مثالية. إنه جاهز للألم. يصارع لكن بطريقة سيئة لا تفي بالغرض. ليس لديه سوى ما يستحق. إن كان قد حاز التصرف بنهاراته، فلياليه يجب أن تستعصي عليه. فهو لا يستطيع، على أيّ حال، الانتصار على كل الجبهات!

في المساء، بعد الاغتسال، أخلع ثيابي، وأرتدي قميصاً طويلاً من دون أكمام، وأجري بعض تمارين التنفس. أرفع اللحاف قليلاً وأندسّ في الفراش. أحب كثيراً هذه اللحظة. من حيث المبدأ، كلّ ما يحيط بي مرتّب، ولا شيء يوحي بتوقع الوصول اللطيف والمدوّي للأرق. في دقائق معدودة، أستعيد في ذهني الأحداث المهمة التي جرت لي خلال النهار. أخطط لما عليّ فعله في اليوم التالي. كل هذا يجري من دون ضجة، ولا صخب أو إزعاج. لكنّ هذا السلام لا يستمرّ

طويلاً. فقبل انقضاء نصف ساعة، أبدأ تبديل وضعيّات نومي. هذا مؤشر سيئ. ما من وضعية تلائم. فأقول في نفسي: لا بدّ أن أهتدي في النهاية إلى الوضعية المطلوبة، لكنّ أحداً يهمس في أذني: "لن تنام هذه الليلة قبل الفجر. بدّل الوضعيات بقدر ما تشاء، فالنوم قد فرّ وتركك في حالة من التشنج والتوتر لا يمكنك معها المبادرة إلى شيء، لا القراءة، ولا مشاهدة فيلم أو كتابة بضعة أسطر، ولا جدوى من الإلحاح!"

من غير المجدي أن أصارع، وأثور وأعترض. تجب استعادة هدوئي وتقبّل ما يأتي. لذا، منعت نفسي عن التفكير في يومي السابق وفي غدي. أتخيل حقلاً أخضر، أصفر، بنفسجيّاً يمتدّ إلى ما لا نهاية وموسيقا موزار. لكنّ صورة الممثل ادوارد ج. روبنسون تفرض نفسها عليّ: إنه في مستشفى حيث يوضع حدّ لحياة العجائز. يُجمعون في قاعة وتعرض عليهم صور هادئة وملطّفة قبل أن يتلقوا حقنة الموت. يفارق الحياة ومشاهد المناظر الجميلة في عينيه وموسيقا لطيفة في أذنيه. إنه فيلم ريتشارد فلايتشر Richard Fleischer الريادي Soleil vert [شمس خضراء] الذي أبصر النور عام ١٩٧٣.

الفصل الحادي والعشرون

ذات صباح، وفي اللحظة التي بدأ النوم يراودني، بعدما هدّني التعب المتراكم، جاءني المنتج هرّوش غاضباً يطالبني باسترداد المال المسبق الذي دفعه لي، ومهدّداً بإصرار: "لن أغادر من دون مالي!"

دمه المتوسطي الحارّ ورثه من أمه التونسية ووالده اليوناني، كما يحب التذكير هو بنفسه. كان في غليان متواصل، وعلى مشارف أزمة أعصاب، أو انفجار في الدماغ.

قدته إلى الصالة حيث قدمت إليه القهوة، وطلبت منه الجلوس والاستماع لي.

"السيناريو الخاص بك جاهز. هو هنا في رأسي، ويكفي أن ترسل إليّ إحدى سكرتيراتك، أكثرهنّ قبحاً وبرودةً، لكي أمليه عليها. وغداً يكون بين يديك سيناريو عبقري سبق وتحدثت عنه مع مارتن سكورسيزي Martin Scorsese الذي أعجبته الفكرة وراح يلحّ عليّ".

نظر إليّ، وقد سكنت ثورته قليلاً: "لماذا تريد السكرتيرة قبيحة؟ أنا لا أوظف سوى فتياتٍ مرشحات ليكنّ نجمات، مدافع،

رائعات، جاهزات لكلّ شيء من أجل دور صغير. غداً ستكون عندك بابيت، صدر رائع، فاسقة، لكنها سكرتيرة ممتازة. المهم، ما الفكرة؟"

ومن دون أن يترك لي فرصة للإجابة، تابع: "انتظر قليلاً. ذكرت لي أنك تحدثت عن السيناريو مع سكورسيزي؟ مع مارتن سكورسيزي بنفسه؟ هل تسخر مني؟ أتريدني أن أصدق أنّ مخرجاً أميركيّاً كبيراً لديه وقت يضيعه على الهاتف مع كاتب سيناريو مغربيّ مغمور لم يسمع به أحد، لا هو ولا سواه؟"

– لنقل إنني كنت محظوظاً. استعنت بأحد موسيقيي فرقة "ناس الغيوان"[1] الذي أمّن لي الاتصال بمكتبه.

– حسناً، حسناً، فهمت الآن، يبدو أنه يقدّر كثيراً هذه الفرقة.

– أصغِ إليّ. إنها قصة فتى لا يستطيع النوم، إلى اليوم الذي يكتشف فيه أنه يحظى بنوم عميق حين يقتل أحد المقربين منه. في الواقع هو لا يقتلهم فعلاً، بل يسرّع موتهم، وبذلك يحصل على رصيد من النوم يتيح له تمضية ليالٍ هادئة. كلما أكثر من القتل، كان نومه أفضل. وما إن يتوقف، حتى يعاوده الأرق ويعيش في الجحيم. وللحظته، يضع نفسه في تصرّف الأشخاص الذين تكون لهم مصلحة في اختفاء بعضهم من محيطهم، وهذا هو التشابك.

– رائع! تابع... أرى للتوّ روبرت دو نيرو Robert De Niro للدور، وبالطبع سكورسيزي سيخرج الفيلم.

بعد لحظة صمتٍ أُخرج سيجاراً، كما تقتضي الأصول، وأشعله.

---

[1] فرقة موسيقية مغربية أُسست في ستينيات القرن الماضي في الدار البيضاء.

– اعرض لي الصفات المحددة للشخصية...

– رجل في العقد الخامس، أصلع، أستاذ مادة السينما في إحدى الجامعات، كاتب سيناريو موهوب، مطلّق، لديه ولد يعيش مع أمه. مستقيم، مثقف، لكنه لا يحسن التصرف بالمال. هو فنان، لا يضاجع إطلاقاً الممثلات، يظن نفسه ملاحقاً من زوجته السابقة التي هي على علاقة مع شبكة من المشعوذين النافذين. في الواقع هو لا يستطيع المضاجعة. فما يكاد ينجح في التخلص من أرقه، حتى ينقضّ على عجزه الجنسي... لكن من أجل أن يتوصّل إلى الاستمناء، وهذا أمر آخر، عليه أن يقتل فعلاً... هنا يسترعي انتباه المافيا، ويتحوّل الفيلم إلى قضية صراع بين الذين يعانون الأرق، وأولئك الذين يعانون العجز الجنسي!

– أنت تهذي.

– نعم، لا بأس بالهذيان.

– وكيف يختار ضحاياه؟

– تبعاً لأهميّتهم. أنت مثلاً، كم وزنك؟ أعني بملايين الأورو...

– تعلم جيداً أن المنتج ليس صاحب مال.

– اعلم أن وزنك المعنوي يعادل في رأيي عاماً بكامله من النوم الرائع!

– شكراً للتقدير. حسناً، غداً عند الثامنة، ستأتيك في النهاية ثريا مع جهاز الكمبيوتر. جهّز القهوة وبعض السجائر المخدرة، فأداؤها يصير ممتازاً بعد التدخين. ومن دون مزاح، أريد السيناريو غداً مساءً. وبالمناسبة، سأتصل بمدير أعمال سكورسيزي... قل لي، هل هاتفته

حقّاً؟ ألم تمرّ عبر مدير أعماله؟ هذا غريب. أمر لا أستطيع تصديقه.

عدت مجدداً إلى سريري. يستحيل عليّ النوم. فكرة أن أجعل من هرّوش هدفي المقبل لا تفارقني. لكن عليه رؤية سكورسيزي وإقناعه بإخراج الفيلم. لذا، عليّ انتظار الانتهاء من تصويره ليصير في إمكاني قتله، فخسارة كبرى أن أفرّط في هذا الفيلم، إلا إذا اكتشفت أن سكورسيزي أو دو نيرو في نهاية حياتيهما. قرأت في مكان ما أن دو نيرو مصاب بسرطان البروستات، وهو من النوع الذي ينتشر ببطء، ولذا بدا في أفلامه الأخيرة بصحة جيدة. تسريع موت نجم عالميّ يسوّي مشكلتي لمرة نهائية. لكن لست أدري كيف أصل إلّيه. إذاً، من الأجدى أن أصرف النظر عن دو نيرو وعن كل النجوم العجائز.

باكراً في الصباح جاءتني ثريا من قبل هرّوش. لم تكن جميلة فعلاً لكن لها حضورها الطاغي. طلة مثيرة، جسد متناسق، نظرة حارة، وقد وجدت صعوبة في أن أرى فيها السكرتيرة التي ستدوّن السيناريو الذي في رأسي. ومع ذلك، جلست على مكتبي وخلعت حذاءها وقالت: "أنا جاهزة، إنني أصغي".

بعدما ارتشفنا فنجانَيْ قهوة ثقيلة، بدأت أتمشّى في الشقة وأملي عليها ما تكتبه. فتذكرت أستاذ مادة الفلسفة الذي كان يلقي علينا محاضرته وهو يتمشى على المنصة. وأمام دهشة الطلاب قال مفسراً: "أفكر بقدميّ، لكن لا تقلدوني، فكّروا برؤوسكم، وحين تنفد الأفكار، فكّروا بأقدامكم. سترون كم هذا طريف!"

بينما كنت أروي لثريا حكاية ذلك الرجل المسكين الذي لم يكن النوم يعرف سبيلاً إلى عينيه إلا بتسريع موت بعض الأشخاص، كنت أحاول أن أتخيّل ما يمكن لمخرج جيد أن يفعله.

كانت كتابة السيناريو تأخذ مجراها. ثريا تضحك وتتوقف من وقت إلى آخر لتدخين سيجارة حشيش وتسألني: "لكن من أين تأتي هذه الحكاية؟ أتمنى ألّا تكون أنت بطلها، أليس كذلك؟"

– كثيراً ما يُطرح عليّ هذا السؤال، خصوصاً من التلاميذ حين أدعى إلى زيارة المدارس. يريدون أن يعرفوا كيف تولد أفكاري وكيف تعمل المخيّلة. كنت أجيب دوماً: "لا تفكروا أنها تهبط هكذا من السماء. أبحث عنها كل يوم، أنبش في رأسي وأستخرج ما أنا بحاجة إليه للكتابة".

مرات عدة اقترحت عليّ ثريا تعديلاً كأن أتخلّص من كاتي لا من طوني، لأنها وجدته إنساناً لطيفاً وقد يكون ذا فائدة في مجرى الحكاية. وكنت أجيبها بأنني سأفكر في ذلك في الوقت المناسب. هذا لا يعني أنها ليست على حقّ، فموت طوني يضعف حبكة الرواية.

حين أنهت كتابة السيناريو، سحبت منه مجموعة نسخ. تركت لي واحدةً منها على الطاولة، وطبعت على خدي قبلة قبل أن تهمّ بالرحيل. وفي لحظة مغادرتها، ألقت نظرة ساهمةً على الشارع السابح في مطر غزير. ثم ألقت حقيبتها وطلبت مني أن أقدّم إليها كأساً.

– كأس ماذا؟

– لا يهمّ. إنه المطر، فما إن يبدأ بالهطول، حتى أشعر بحاجة

إلى الشرب، ليس بالتحديد شراباً مسكراً، لكنني الآن أرغب كثيراً في كأس تيكيلا مثلاً.

اقترحت عليها كأساً من زجاجة Lagavulin في السادسة عشرة من عمرها.

– هذا أفضل من كل تيكيلا المكسيك.

– وهل هي مثيرة للرغبة؟

– إن شئنا... لكنّ الكحول ما أدّى مرّةً إلى تحسين الأداء...

دقّت كأسها بكأسي، وكالسحر، ارتمت بين ذراعيّ. أحسست بنهديها الصلبين وبدأت تخيّل التتمة. لكنها نهضت وقالت لي: "لا بدّ أن يتوقف المطر، وإلا فإنني أفقد التركيز اللازم لممارسة الجنس".

مضينا نتفحّص السماء السوداء الملبدة بالغيوم. كان المطر ينهلّ حبالاً. فكان لا بدّ من تأجيل جلستنا إلى يوم آخر مشمس.

لدى مغادرتها طبعت على وجنتي قبلة أخرى وقالت: "لا تلقِ بالاً لمزاجي العاطفيّ المتقلب".

في اليوم التالي، اتصل بي هرّوش. بدا شديد الانفعال ومفعماً بالحماسة بعد قراءته السيناريو ليخبرني أنه يحاول الاتصال بمديرَي أعمال كلٍّ من سكورسيزي ودو نيرو.

"هل تعلم أن سكورسيزي صوّر فيلمه La dernière tentation du Christ [الإغواء الأخير للمسيح] في المغرب؟ إنه يعشق هذه البلاد!"

تختلط الأمور جميعاً في رأس هرّوش الذي كان مستعدّاً للسفر

إلى لوس أنجلس أو نيويورك للقائهما.

لست أدري كيف فعلها هرّوش، إذ بعد ذلك بيومين تلقيت اتصالاً من لوس أنجلس من الممثل جو بيسي Joe Pesci الذي كان قد اشترك في عدد من أفلام سكورسيزي، وتحديداً Casino [كازينو] وLes affranchis [المُعْتَقون]، ليبلغني بإنكليزية لم أكد أفهمها: "أنا هو بطلك القاتل!" قبل أن يقفل الخط تاركاً إياي في الشكّ.

لا ممثل بمثل هذا القدر يتصل بنفسه. الكلّ يمرّون تحديداً بمديري الأعمال. فكرت أن في الأمر مزحة من النوع الذي يفعله هرّوش أحياناً. اتصلت به وطلبت منه ألا يزعجني ثانيةً، خصوصاً أن يدفع لي مستحقاتي بعدما أنهيت كتابة السيناريو. كما أكدت له أنني لست في وارد عمل جديد قبل بعض الوقت. كنت أسعى إلى حلّ مشكلة أرقي الآخذة في التفاقم أكثر فأكثر. ولختام الكلام، تمنيت له حظّاً جيداً مع الأميركيين، وأنا مقتنع في أعماق ذاتي أنه لا سكورسيزي ولا دو نيرو سيستجيبان. جمعت السيناريو في ملف ووضعته على أحد الرفوف، في إشارة إلى أنني أنهيت العمل وعليّ الانصراف إلى شأنٍ آخر.

هذه الليلة كان أَرَقي رحيماً. فقد أتاح لي كتابة قصيدة في الوقت الذي كنت أمضيه عادةً في التلوّع.

"سأتخلى طوعاً لحفّاري قبري عن ضجيج لياليّ التي تتمطّى،
وتتطاول، وتتداخل وتنحرف نحو دروبٍ مفجعة
مطلية بالأبيض الباهت، تخطّ رسوماً ومتاهات

شوارع لا تفضي إلى مكان، منازل غير مكتملة، حدائق مهجورة، مساحات باهتة بأشجار متفحمة وزنزانات لمحكومين

تنقضّ على ظهري، تلقي عليّ شعوذتها، تخطّط، تتحكّم، تعاند، تستدعي السّحر الأسود، تحطّم هدوء الضفة القريبة، تحفر بئراً أو قبراً، حفرة بعرض كتفيّ، عميقةً بقدر اكتئابي الحادّ،

حفرة من أجلي فحسب، رطبة ومعتمة تضيع فيها عطور الفردوس، والذكريات التي صمدت طويلاً، والتي دوماً اعتمد عليها المقرّبون إليّ، الأشياء الصغيرة لما لا جدوى منه، طعم الحلم، عصير البرتقال المرّ، الرائحة النفاذة اللذيذة لعجينة السفرجل بعطر الورد، الرائحة الأبدية للخبز المحمّص صباحاً، عطر القهوة يغمر الغرفة،

الأشياء التي لم نستخدمها مرةً، الاعترافات المتسوّلة قليلاً من الرقاد حيث يرتسم مفهوم الفوضى والعدم، لياليّ سكرى، مثلومة، مشوّهة، عيناي، لياليّ، أخطائي، تيَهاني، تسخر مني، تدور حول الحفرة كما في لعبة دوّامة الخيل، كما في لعبة من دون شِباك. أغرق، أختنق، وأخرج الرأس من الركود، أزحف بركبتين داميتين، وجسدٍ مثقل، متبرّم، مذَلٍّ بالسواد الذي يعبث بي، متوتر، مضطرب كأفعى في قفص، أصارع في الظلام، أراهن للسماح بتسلل النوم، أخبط بقدميَّ ويديَّ. لا أحد يسمعني.

أحدٌ ما يهمس في أذني: النوم حيوان أليف، عليك الاعتناء به، وإلا هجرك فيتحتم عليك بذلُ مشقةٍ كبيرة لاستعادته، حيوان لطيف وحنون، عنيد، معقد أحياناً، أهمّ من كلبٍ أو هرّ، إنه أمير الألفة، إن هجرك تملّكك ألمٌ غريب...

الخوف يهين العقل، ينتج دوّامة أفكارٍ لا تنتهي، يفرض تفكيراً يهزأ بالمعنى، يقدّم تعريفات جديدة للأشياء، يسلبني خيراتي اللّامادية، يُحدث اختراقات في المعركة. الخوف هو هذا الجنون الصغير الذي

يؤلم من دون أن يميت، بصيص النار تحت الجمر، النهر وضفافه. وأنا جالس كالأبله أنتظر مرور جثث أعدائي. نعم، هم فيلق، بينهم من أعرفهم وصنّفتهم، ثمّ كلّ الآخرين الذين لا يحبونني من دون أن يكونوا قد التقوني سابقاً، لكن ليسوا هم الذين سلبوني رقادي.“

الفصل الثاني والعشرون

هذه الاستراحة كانت قصيرة الأجل. في الليلة التالية، بدأت تعذبني فكرة مزاولة ممارساتي المريبة من جديد. استعدت في ذهني مراراً وتكراراً أصحاب الأوزان الثقيلة الذين باتوا في عمر الرحيل. المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب بلغ للتوّ سنه التسعين. لا أتمنى له المرض ولا الموت، لكن لو في استطاعتي الاقتراب منه حين تسوء حاله، من دون إلحاق الأذى به، أو دفعه، أكون كمن كسب الجائزة الكبرى. ثروته تقدّر بعشرات المليارات من الدولارات. أهميته السياسية وشخصيته المؤثرة وشهرته العالمية ستعود عليّ بآلاف الليالي من النوم العميق، وربما ليالي عمري جميعها المتبقية لديّ.

إن نجحت في تحقيق هذا الهدف، فسأتوقف عن استجداء الأرصدة وسأكرس نفسي بالكامل لكتابة السيناريوات التي تُطلب مني. سأعود من جديد رجلاً حرّاً، مع نظام حياة سليم، ونوم منتظم، وأعيش في وضع طبيعي واضح. وسأقترح عندئذ على جارتي الحسناء، الأرملة التي لا تزال في ريعان شبابها، هدم الجدار الفاصل بين منزلينا. سنتحرّك في مساحة أوسع في الوقت الذي يشعر كلّ منا

أنه لا يزال في منزله. هذا هو الوضع المثالي.

لتمضية الوقت، شاهدت هذا الفيلم الحديث حيث جاين فوندا بسنواتها التسع والسبعين تطرق باب جارها الوحيد، روبرت ردفورد بسنواته الإحدى والثمانين، لتقترح عليه: "أنا وحيدة وأنت وحيد، نحن جاران، إنني بحاجة إلى مؤانسة، إلى أحد ما أتمنى له ليلة سعيدة، لن أتمكن من النوم من دونها. فهل ترضى أن تدخل بيتي وتنام إلى جانبي في سريري الفسيح؟ لا جنس بالطبع... سأفكر في الأمر، أجابها ردفورد، وسأتصل بك".

الفيلم كان بالغ التأثير فيّ. لست في عمر ردفورد بالطبع، لكن الفيلم حضّني أكثر على أن أحلم بطرق باب جارتي، قبل أن تجد لنفسها رجلاً آخر.

جارتي أجنبية. لا تصبغ شعرها. فشعرها أبيض، رماديّ، مع مسحة جمال. أنيقة، لا أحد يعرف الكثير عن حياتها، ولماذا تسكن في منزل صغير مع كلبين وهرّ وببغاء. تكتب. إذ ألمحها غالباً منحنيةً على حاسوبها.

بعد بضعة أيام، اغتنمت فرصة تسرّب ماءٍ لزيارتها. فتحت لي الباب بلطف. صورها على الجدار الرئيسي للصالون، مع رجلٍ، في لحظاتٍ مختلفة من حياتهما، تكشف القليل عن حياتها. الظاهر أنها من دون أولاد. نظرت، لكنني لم أطرح أسئلة. وحين هممت بالمغادرة، قدّمت إليّ كتاباً بالإنكليزية: "خذ، اقرأه، فربما تعلمت أشياء عن بلادك!" لم أستطع منع نفسي عن سؤالها عن نومها. تنهدت

وصارحتني بأنها لا تنام إلا قليلاً جدّاً. "الليل، أراه كوقتٍ ضائع. أنام حين يصير جسدي متعباً ولا يستطيع مواكبتي".

كانت ذات جمال طبيعي، جمال العمر الهادئ، المتقبّل، المتحمّل المسؤولية. لم أتخيّل نفسي لحظة أسرّع نهايتها. من يدري، ربما جئتها يوماً عارضاً عليها ما اقترحته فوندا على ردفورد.

الفصل الثالث والعشرون

كتابان لم يكن يجدر بي قراءتهما ليلاً: *Le festin nu* [الوليمة العارية] لويليام بوروز William Burroughs و*La disparition* [الاختفاء] لجورج بيريك Georges Perec.

اكتشفت ذات يوم في صحيفة *Polyphonix* أنّ مؤسسة الفنان جان-جاك ليبل Jean-Jacques Lebel كانت قد دعت مجموعة صغيرة من الشعراء الفرنسيين إلى تقديم قراءات متقاطعة مع شعراء أميركيين من جماعة Generation Beat[1] في سان فرنسيسكو ونيويورك. أثار ذلك اهتمامي وقرأت أعمالهم التي كانت قد بدأت تُترجم إلى الفرنسية في تلك الحقبة.

بالقدر نفسه أثار *Howl*[2] [عواء] لألن غنسبرغ Allen Ginsberg حماستي، ومثله نص أو رواية سابقه ويليام بوروز *Le festin nu*، التي أخرجتني عن طوري عقليّاً وجسديّاً وعاطفيّاً.

أمضيت بعدما قرأتها أكثر الليالي اضطراباً في حياتي. كأنني

١ حركة أدبية وفنية نشأت في الولايات المتحدة في خمسينيات القرن الماضي.

٢ عنوان مجموعة شعرية.

قد ابتلعت كلّ الحبوب المخدرة لشخصيات بوروز. اليوم أيضاً، حين أعاود التفكير فيها، تتوتر أعصابي. حين سمعت بخبر موته، ذات ليلة لطيفة من أغسطس ١٩٩٧، قادتني أفكاري إليه. جسده النحيل، وأناقته كموظف صغير، رسما له صورة لطيفة في عينيّ. كان من المستحيل أن أتخيّل أن وراء هذا المظهر يكمن ذلك العنف وتلك القوة التي أنتجت هذا النص المتفجّر. لم أستطع إطلاقاً أن أعيد قراءته. صفحة من هذا الكتاب الشهير أعطت اسمها منذ ذلك الحين لمطعم مقبّلاتٍ في باريس.

صديق مغربي كان أول من حدثني عن كتاب بيريك ***La disparition***، وقال لي (كان لم يقرأه بعد) إنه يروي قصة اختطاف الزعيم اليساري مهدي بن بركة واختفائه. انكببت على قراءة الكتاب، واكتشفت أن الحرف المصوّت "e" لا وجود له في الكتاب، وكأنه اختفى نهائيّاً من اللغة الفرنسية. توصل بيريك إلى وضع كتاب بكامله من دون استخدام الحرف e. بينما كنت أقرؤه شعرت كأنّ نوعاً من التوتر الحادّ يعتريني ويدفعني إلى حافة الجنون. كان هدفي أن أقع على خطأ طباعيّ، كلمةٍ، فعلٍ يتضمن حرف e. وكنت كلما تقدمت في القراءة، فقدت قدراتي. كنت أصرخ، أصيح. وألعن بيريك بعدما كنت مولعاً به. نعتّه بالمريض لأنني تحولت مريضاً وأنا أتابع قراءة كتابه. ارتفع الدم إلى رأسي، وبدأ رأسي يغلي. تملّكني الخوف، فأسرعت إلى الحمام والكتاب في يدي ووضعت رأسي تحت الدوش الجليدي. برد رأسي للتو لكن الكتاب بللته المياه ولم يعد صالحاً للقراءة. كانت

الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً.

نظرت إلى نفسي في المرآة، فلم أتعرف إلى الوجه فيها. رجل شاحب كبر بضع سنوات في ليلة واحدة، رجل لا يشبهني أبداً. سمعت صوتاً يقول لي: "ها أنت ترى ما يحدث لك حين لا يفرغ رأسك". آه، لو أنني أملك الوصفة التي ترشدني إلى طريقة إفراغه! كيف يفعل الآخرون؟ رأسي صامد. بحكم العادة. لا يتراجع إطلاقاً ويتركني مرمياً أرضاً كمثل هذه الليلة حيث بيريك الطّيب تلاعب بعنادي.

لكن هناك ما هو أسوأ أيضاً، الفيلم الذي يحمل عنوان Un jour sans fin [يوم بلا نهاية] الذي يؤدي بطولته البارع بيل موراي Bill Murray والفاتنة أندي ماكدويل Andie MacDowell. يروي العودة الأبدية لليوم نفسه، الثاني من فبراير، وهو عيد المرموط في مدينة أميركية صغيرة. حين كنت أتسلى بمشاهدته لم أفكر لحظة أنه سيقلق ليلي. تحوّلت إلى فيل كونورز Phil Connors، الصحافي الذي يقدم نشرة أحوال الطقس، المجبر على أن يكرر إلى ما لا نهاية الأحداث والحركات نفسها التي جرت في ٢ فبراير تحت الثلج. مع فارق أنّ أندي ماكدويل تقع بين ذراعيه، في حين أنني لم يكن لديّ سوى ليلة مضطربة كل شيء فيها يعود من جديد كما في دولاب هائل.

كتاب، كتاب واحد، كانت له القدرة على مدى سنوات على أن

يجعلني أنام. أريد أن أقدم إليه التكريم الذي يستحق. يتعلق الأمر بـ *Gommes* [محايات] لألان روب–غرييه Alain Robbe–Grillet. منذ الصفحة الأولى، اعتراني الملل. حكاية مقتل السيد ديبون حدثت من دون أن تكون قد حدثت فعلاً. بعد بضع صفحات شعرت بالضياع فعلاً. عدت صفحات إلى الوراء لأستعيد ربط الأحداث، وخلال عشرين دقيقةً، تسلل إليّ النوم تلقائيّاً بسبب الملل. لم يكن نوماً جيداً بالتأكيد لأن مواقف الرواية كانت تتداخل مع أحلامي وتحدث اضطراباً. ذات يوم، في احتفال سينمائي، تجرأت على قول ذلك لروب–غرييه الذي غرق في الضحك وقال لي: "هذا دليل على أن روايتي جيدة؛ هي تفيد بشيء ما!"

الفصل الرابع والعشرون

أفتقد طوني. لم ينفعني موته في شيء على صعيد النوم لكنه استثار رغبتي الجنسية. كنت دوماً مفعماً بالرغبة غير أنني لم أكن أعرف حيال من أوجهها. الأرق جعلني في عزلة، ولا أعاشر سوى عدد قليل من النساء هذه المدة.

ذات ليلة وكنت مثاراً ومنزعجاً، بدأت تصفّح مفكرتي القديمة، وحاولت الاتصال ببعض عشيقاتي القديمات. في الاتصال الأول، وقعت على سيدة قابلتني بالإهانات وهي تصيح: "ألا تخجل أو تشفق على امرأة فقدت ابنتها؟" قدّمت اعتذاري غير أنها استمرّت بصياح متواصل.

انتقلت إلى الاتصال التالي وأنا أغطي سماعة الهاتف بمنديل وهي حيلة يفترض بها تمويه الصوت. كانت حنان على الخط. من الكلمات الأولى، عاد إليّ كلّ شيء، شعرها الطويل الذي يغطي ظهرها، ثدياها الصغيران، فمها النهم... كانت قد تركتني ذات يوم لتتزوج موسيقيّاً لكن كم أحببتها!

رغم تحايلي، عرفتني مباشرةً وعبّرت لي عن مدى اشتياقها إليّ.

تركها زوجها لأنه وجد أنها تكرّس وقتاً طويلاً لعملها في وزارة السياحة، وفي قسم الحِرف اليدوية حيث لها موقع وظيفيّ جيد. إضافة إلى أنها لم تنجب له ولداً، ما زاد نقمته عليها. كنت مسروراً للعثور عليها.

وصلتْ إلى منزلي في موعد العشاء. كنت قد أعددت طبق معجنات بالقريدس وفتحت قنينة نبيذ فاخر. بدا الجو رائعاً من لحظته. كانت تعلم لماذا هي هنا، ولم تثر من جديد حكايتنا القديمة. كانت جاهزة، رقيقة وتبدو في غاية السعادة. وفيما نحن نمارس الحب، صارحتني بأنها لم تنم مع رجل منذ أكثر من عام. شكرتها في أعماق نفسي، وشكرت طوني على منحي رصيده من الرغبة الجنسية. بالطبع، لم أكشف لها سرّي. وبما أنني لم أكن أعرف العدد الحقيقي للنقاط التي ورثتها من طوني، فإنّ حدوث عطلٍ مفاجئ لم يكن مستبعداً. ماذا أقول عندئذ؟

نامت حنان بين ذراعيّ. خشيت أن يحدث حضورها اضطراباً في نومي لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث. في الصباح، أعددت الفطور، وقالت وهي تغادر: "آمل ألّا ننتظر عشر سنواتٍ أخرى لنلتقي من جديد!"

في الليلة التالية، شاهدت تحقيقاً عن الشفنين البحري (raie manta) ذاك النوع من السمك المفلطح الهائل الحجم الذي يتنقل بطريقة رشيقة وواثقة، والذي يعيش في بولينيزيا. ما إن يسمع هذا السمك ضجةً عدائية، كالأصوات الصاخبة في تشييد الأبنية أو هدمها، حتى

ينسحب إلى مكان يسوده الصمت والهدوء. إنه بالغ الحساسية رغم ضخامة حجمه. في الواقع هو يتجنب التوتر والضجيج.

أنا الذي لم أكن أعرف السباحة بدأت أحلم بالغطس في مياه المحيط لمشاهدة مواكب هذه الحيوانات الوديعة المسالمة وهي تتّحد لتشكيل دائرة ومباشرة رقصة رائعة على طريقة ماتيس Matisse[1]. مشهد كهذا يمنحني السلام والنوم الهانئ لمرّة نهائية. كنت واثقاً من ذلك.

هرّوش، منتجي المصاب بجنون العظمة، اتصل بي هذا الصباح. أعدّ المبلغ المطلوب لتمويل الفيلم، لكن أموراً كثيرة يجب تعديلها في السيناريو، كأن نجعل من الرجل المصاب بالأرق مجرماً متسلسلاً، منحرفاً ومريضاً نفسيّاً، تستعين المافيا بخدماته، خصوصاً أنه غير معروف للشرطة. لن يعود فيلماً عن الرجل الذي يسرّع آجال الناس ليتمكن من النوم، بل عن مهووس يقتل للمتعة، وينام بهدوء بعد تنفيذ جريمته لأنه حقق متعته.

أصغيت إليه من دون أن أحاول مقاطعته ولا الإجابة عن أسئلته. ليتدبر أمره بنفسه، لا تهمني البقية ما دمت قد تلقيت بدل أتعابي. فالسينما يتسلل إليها تجّار ورجال أعمال يقدمون مكاسبهم المالية على سواها، وقد تعلمت ألّا أعاكسهم.

---

١ إشارة إلى اللوحة الزيتية العملاقة بعنوان La dance [الرقصة] للرسام الفرنسي المشهور هنري ماتيس (١٨٦٩-١٩٥٤).

الفصل الخامس والعشرون

لا أعلم كيف ظهر حمدان فجأةً في حياتي. لكأنه شبح طوني، خارجاً حديثاً من حكاية مثيرة، وربما من سيناريو غير مكتمل. جاءني ذات صباح كما لو كنا على موعد. قال لي إنه هنا من أجل الوظيفة. أي وظيفةٍ؟ هذه الكلمة لا وجود لها في قاموسي. طلبت منه أن يوضح ما يريد، ففاجأه سؤالي.

"لكن أنت الذي اتصلت بي منذ أسبوع لأصلك بأشخاص على مشارف النهاية. أنا ممرض، حتى أنني رئيس الممرضين. لديّ سلطة، والجميع يحترمونني. أعمل في مستشفى للأشخاص الأثرياء، وأنا على اطلاع على كل ما يجري فيه".

شعرت بالارتباك. لا أتذكر إطلاقاً أنني اتصلت بأحدهم وطلبت مساعدته. من أين جاءني؟ من عساه أرسله؟ الشرطة! ربما كانت تسعى للإيقاع بي. دوماً كنت أعيش في شكٍّ دائم من أن يُفتضح أمري عاجلاً أم آجلاً، وأن عليّ أن أدفع الثمن. ثمن مساعدتي أشخاصاً في نهاية حياتهم للرحيل بسلام؟ هذا ما سأقوله إن أخضعوني للاستجواب. اللهم، إن لم أقع على إسلاميٍّ متشدّد يعاقبني لأنني

خالفت إرادة الله...

– أنت مخطئ. أنا لم أتصل بك. ولا أعرف شيئاً عن الروايات التي تسردها عليّ.

– هيا، هيا، أنا الأخ غير الشقيق لصديقك، ذاك الذي سمّى نفسه طوني. أنا أعرف أنه مات، لكن كان لديه الوقت ليحدثني عن مساهمتك. أنا مكلّف منه متابعة العمل. إنني متفرغ تقريباً هذه المدة ومستعدّ لتأدية خدمة لك. اعلم أنني أشبه بالقبر. ما من كلمة تخرج من فمي، ما من إشارة، لا شيء، لن يدري أحد بالموضوع. بإمكانك الوثوق بي. أقسمت لطوني أن أنجز المهمة التي كلفني إياها.

كنت لا أزال على حذري. عندئذ أخرج مفكرةً صغيرة كتلك التي لطوني. وراح يقرأ لي أسماء الأشخاص الذين اختزلنا حياتهم، طوني وأنا. ثم حدثني عن أرصدة النوم، فاصطنعت الجهل. فراح يشرح لي بالتفاصيل طريقته في النظر إلى الأشياء: "أنا هنا لمساعدتك. لا أريد مالاً، لتحقيق بعض رغباتي فقط، فأشعر بأنني فعلت شيئاً غير مألوف. ثم إنني من رأي تلك الجمعيات في أوروبا التي تناضل من أجل الموت بكرامة. مثل هذا الموضوع لا يطرح هنا، مع أن هذه الأمور تحدث لكن دون تسميتها أو الحديث عنها".

طلبت منه الجلوس وخلع ربطة عنقه التي توحي كأنه في يوم عيد. كان قد وضعها إكراماً لي.

– سيد حمدان، سنطرح الأمور بكل وضوح. أرني أوراقك وقدّم إليّ ما يثبت أنك حقّاً الأخ غير الشقيق لطوني.

أراحه كلامي، فابتسم، ثم أخرج من جيبه رزمة صور تجمعه

بطوني. كما قدّم إليّ بطاقة هويته، وإجازة سوقه، وبطاقة انتساب إلى سوبرماركت "مرجان"، وأخيراً أبرز صورة امرأة وقال لي: "هذه من نوع النساء المفضلات لديّ. أحبهنّ ناضجاتٍ وسخيّاتٍ، مكتنزاتٍ وطيباتِ القلب، مثيراتٍ ويتمتعن بصحة جيدةً".

كنتَ منذهلاً بما يبدو أنه يطلبه مقابل خدماته. عند ذلك نهض وقال لي: "عليّ أن أغادر الآن، الحاكم السابق للمنطقة الحرّة على فراش الموت. إنه نسيب الحسن الثاني، نسبٌ بعيد، وهو شديد الثراء كما يبدو، وأظن أن موته سيعود عليك بأرصدة نوم لا بأس بها".

طلبت منه أن يمنحني القليل من الوقت؛ كنت بحاجة إلى التفكير. فأبدى انزعاجاً وتمتم: "حسناً، حسناً، سأعود نهاية النهار. لكن اليوم أو أبداً، مفهوم؟"

وحيداً من جديد تذكرت كم كان نومي متعسّراً الليلة الماضية. وهذه إشارة إلى أن رصيد النوم في حسابي لم يكن كافياً. بدأت أحسبه وأخطأت مراتٍ عدة. شعرت بالانزعاج، فتخلّيت. كنت أماطل. ألم يقدم إليّ هذا الشخص ما يكفي من الأدلة التي تسمح لي بالوثوق به؟ وفي الوقت نفسه، لا أحب أن يشاطرني سري أحد. من ثم، سيكون عليّ أن أجد له نساءً ناضجاتٍ، ولا خبرة لديّ في هذه الأمور...

نحو السابعة مساءً، طرق بابي، وقدّم ورقة: تقرير عن الحالة الصحية للحاكم السابق. الرقم مئة ارتسم في رأسي. مئة يومٍ من النوم الهنيء. هذا يستحق المحاولة.

ها أنا، كما في حقبة طوني، أطارد اللحظات الأخيرة لبعض المشرفين على الموت. الحاكم السابق أُدخل مستشفى راقياً عند مخرج طنجة. لدى وصولي اكتشفت أن حمدان لم يكن معروفاً فحسب، بل يحظى بالاحترام. أفسحوا لنا طريق الدخول. تبعته وأنا لا أزال على تحفّظي؛ لم أتوصل بعد إلى اعتياد هذا الرجل الذي برز لي من حيث لا أدري. حين رأيت رجلَيْ أمن مسلحَين أمام باب الغرفة التي يرقد فيها المشرف على الموت، أبطأت الخطى. جذبني حمدان من ذراعي ليدفعني إلى التقدم، وقدّمني بكل هدوءٍ إلى الرجلين اللذين كانا في الواقع حارسَين شخصيين: "هذا الدكتور ونيش، وهو صديق قديم للسيد الحاكم، ويحرص على زيارته، فربما كانت هذه الزيارة الأخيرة".

حيّياني باحترام ووجدت نفسي داخل الغرفة. الشحوب المخيف للحاكم أثار فيّ الرعشة. حمدان أبدى تأثراً بدوره. يجب التصرّف بسرعة. أخرجت مسبحتي وبدأت تلاوة سورة من **القرآن**. تركني حمدان وخرج يثرثر مع الحارسَين ليشتت انتباههما. حين وضعت أصابعي على حبل وريد الرجل، أدركت أن نهايته أضحت وشيكة، فحبست أنفاسه بكتلة قطن. حين أصدر حشرجته الأخيرة، دعوت حمدان والرجلين، وقلت بصوت من يسلّم بالواقع: "كأن القدر شاء أن أشهد موته، هو الذي كان رجلاً طيباً! كم من الليالي الرائعة أمضيناها معاً بتلاوة **القرآن** والصلاة لخلاص أرواحنا! كان رجلاً خيّراً، وإيمانه راسخ، وسخاؤه، وطيبته... يا لها من خسارة فادحة لنا جميعاً!"

كفكفت دمعة، وطلبت من حمدان أن يصطحبني إلى باب الخروج، لأنني كنت أخشى أن أتيه.

بينما كان يهمّ بالانصراف، مال إليّ وهمس: "امرأة متزوجة، ناضجة، عند الخامسة!"

ما العمل؟ إن لم أرضخ له، فهل تراه يشي بي؟ عليّ أن أعثر بدوري على وسيلة ضغط، في حال صار شديد الخطورة. ما كانت نقطة ضعفه؟ النساء الناضجات، لكن أيضاً... في الانتظار، كان من الأفضل الاتصال بعزيزو في أقرب وقت، قوّاد كل الفئات. لم يطل الوقت حتى رفع السماعة.

– عزيزو، أنا بحاجة عند الخامسة إلى امرأة ناضجة في نحو الخمسين.

– ماذا جرى لك، صرت مهتماً بالعجائز؟

– ليس لي، بل لفتى لا يحبّ سوى هذا النوع من النساء. له دين في ذمّتي أؤديه له.

تفحّص عزيزو شاشته، ثم استغرق في الضحك.

– لديّ ما تطلبه، امرأة برجوازية مكتنزة، وإضافة إلى ذلك هي مهووسة بممارسة الجنس.

دوّنت العنوان وحيّيت عزيزو، واتصلت بحمدان لأبلغه التعليمات وتفكيري كله في الرصيد الذي كسبته. جنيت للتو كميةً صغيرة.

كان حمدان هو الذي أيقظني مبتهجاً ويصيح عبر الهاتف: "كانت رائعة، معطّرة، نظيفة، مع عجيزة بارزة، عجيزة متماسكة وضخمة!

استمتعت كثيراً. شكراً لك. سأتصل بك حالما يكون لديّ زبون لك".

موت الحاكم كان سخيّاً معي. صرت لا أنام جيداً فحسب بل كثيراً أيضاً. وفي النهار، أشعر كأنني لا أزال مفعماً بالنعاس. كنت أتناول القهوة الثقيلة، ومع ذلك رغبتي في العودة إلى السرير لا تزال قوية. أرصدة النوم كان لها تأثيرات جانبية وغير متوقعة فيّ وحتى الآن مجهولة.

لإدخال شيءٍ من التوازن على الأشياء، قرّرت أن أعكس خطتي. سأعمل المستحيل لإنقاذ الحياة. فلو توصلت مثلاً إلى أن أتولى شأن المريض في الوقت المناسب، وجعل الأطباء يهتمون بجدية بوضعه، سأكسب على جميع الجبهات. أكون في الوقت نفسه قد ساعدت مريضاً من الممكن أن يُهمل من دون علاج، وتخفيف أرصدة النوم لديّ مسقطاً منها فائضها. لست أرى سبباً مانعاً من تطويق هذه الأرصدة، وعقلنتها، وتفعيلها، وجعلها عادلة.

لمعرفة مدى نجاح الأمر لا بدّ من المحاولة. اتصلت بحمدان وطلبت منه أن يصلني بطبيب أو طبيبين لديهما استعداد لبذل جهدهما في معالجة مريض في أمسّ الحاجة إلى معالجة. انتقلت بعدها إلى المصرف وسحبت عشرين ألف درهم وزعتها في مغلفين. هذا المال سيحتسب كأنه مصاريف استثنائية. لديّ ما يكفي من المدّخرات لكي أسمح لنفسي ببعض المصاريف النثرية.

في غرفة انتظار الطوارئ، لاحظت قروياً شاباً وقع ضحية حادث سير. أراد عبور طريقٍ سريع وأخطأ في تقدير سرعة الشاحنة التي صدمته. قرويّ في مستشفى! أمر لا يثير اهتمام أحد. تلقى الإسعافات الأولية وينتظر، مرشحاً للموت: وضعه وهو فقير أميّ يستدعي اللامبالاة. ادّعيت أنني عمه وطلبت رؤية الجرّاح المناوب الذي كان حمدان قد حدثني عنه. وبينما كنت أعرض عليه الوضع المأسوي لـ"ابن أخي"، وضعت المغلف على بعد سنتيمترات من يده التي استولت عليه بطريقة متكتمة ومحكمة. عشرة آلاف درهم الأخرى منحتها للممرضتين لتعتنيا بمتابعته والاهتمام به بعد العملية.

انتظرت في المستشفى حتى نهاية المساء، وأمضيت وقتاً قرب سرير القروي الشاب الذي يبدو ظاهرياً أن حياته قد أُنقذت. كان ينظر إليّ ويتساءل في قلبه من أكون. قال له الطبيب: "سأتركك مع عمك الذي كان سخيّاً جدّاً وأنقذ حياتك". حرّكت رأسي وأنا أشدّ على يده. أتمنى أن يمرّ تيار من الفتى إليّ، فيؤدي إلى تنظيم نومي. هو بدوره شدّ على يدي، فقد عرف أنني ساعدته. وأثناء مغادرتي اطلعت على إضبارته. كان اسمه حمزة، وهو في العشرين.

في المساء، نمت نوماً طبيعيّاً. كان استيقاظي هادئاً ولطيفاً. بعد تناولي القهوة، شعرت بأنني مستعد لمباشرة عملي. فقد طُلب مني سيناريو سلسلةٍ تتحدث عن جسم عُثر عليه عند الحدود الجزائرية- المغربية. التحقيق يقتضي مشاركة الشرطة في كلا البلدين، مع ما

بينهما من عداء. وزيادةً في تعقيد الأمور كان الضحية من أمٍّ جزائرية وأب مغربيّ... السلسلة تبدأ بشجار بين شرطتَي البلدين يتمدّد شيئاً فشيئاً حتى يشمل وزيرَي الداخلية. كنا على مشارف اندلاع قضية دولية بين "الأخوين العدوّين". اقترحت أن أكتب سيناريو فكاهيّاً ثم كان عليّ التخلّي عن المشروع، لأن الشرطة المغربيّة كأيّ شرطةٍ في العالم لا تملك أي حسّ للفكاهة.

الفصل السادس والعشرون

بينما أضحى الخوف من افتضاح أمري هاجساً لديّ، تلقيت ذات صباح اتصالاً هاتفياً غريباً. صوت هادئ ورصين، يحدثني كما لو كنا صديقين قديمين:

– سأكون بحاجة إلى خدماتك...

– ليس قبل ستة أشهر، فأنا بصدد كتابة سيناريو على شيءٍ من الدقة لمسلسل نصف بوليسي، نصف سياسي... ليس لديّ وقت لأيّ أمر آخر...

– لقد اختلط الأمر عليك، صديقي العزيز. لا يتعلق الأمر بالسينما، لكن باشتراكك في عمل أكثر تعقيداً من كتابة فيلم.

تملكتني قشعريرة. فمن أين لشخص أن يكون على اطلاع على نشاطاتي الموازية؟ فكرت مباشرةً في حمدان فهو الوحيد الذي على اطلاع...

أقفلت الخط... فأعاد هذا الشخص الاتصال بي مباشرةً.

– أنا الآن أمام مدخل بنايتك، سأصعد، الرمز هو الـ...

كان قد صار أمام الباب يقرع بإلحاح. لم يكن لديّ خيار سوى أن

أفتح له. كان رجلاً ضئيل الجسم. قدّم نفسه سريعاً: أرجنتينيّ وأستاذ موسيقا هنا منذ عشر سنوات. عمد مباشرةً إلى طرح موضوعه عليّ.

– نحن مجموعة أصدقاء، جميعنا متقاعدون، أسسنا نادياً صغيراً لمدخني السيجار الكوبي. نعقد اجتماعاتنا مرةً في الأسبوع نتحدث خلالها عن كل شيء لنشغل وقتنا. جرت الأمور على ما يرام إلى اليوم الذي أحضر فيه أماديو صديقاً له في زيارة إلى المغرب يدعى يواكيم. شعرنا بالنفور منه مباشرةً. كان يرشح منه شيءٌ ما سلبيّ لا أعرف كيف أصفه. فلنقل ضجراً، لكنه ضجر ثقيل، خانق، معد، لا يُحتمل. على أيّ حالٍ، أطلقنا عليه لقب ضجر. ليس شريراً، ولا سيئاً، لكن حضوره وحده يصيبنا بالضيق، إذ يثير فينا شعوراً أشدّ سوءاً من العياء، وأشبه بالموت البطيء الذي لا يرحم. لم يكن ممكناً للأمر أن يستمر. حاولنا أن نصرفه عن حضور اجتماعاتنا لكنه يحضر دوماً قبل الجميع. هو لا يدخن لكن يحب أن يشاهدنا ندخن ويتنشق دخاننا. هذا كل ما كان يجيبنا به حين كنا نطلب منه الانصراف إلى شؤونه.

بينما كان الأرجنتينيّ يحدثني، كنت أحاول أن أعرف كيف استطاع الوصول إليّ. أخبرني عن علاقته بطوني وعرض عليّ صوراً تجمعه به ورسائل. يا لطوني الثرثار! كم من شخصٍ كشف له أمرنا!

– أنا أعلم جيداً أنك لست قاتلاً، فما تفعله عملٌ شجاع؛ تساعد العجائز على الرحيل بهدوءٍ وكرامة. يجب أن أعترف أن يواكيم هذا ليس مريضاً ولا طاعناً في السن. لكن يجب أن تساعدنا. لم نعد نحتمل...

- لكن لستم مجبرين على قتله، ثمة أساليب أخرى...

- لأنك تراهن على جعله نشيطاً ولطيفاً وخفيف الظل؟ لقد فاتني أن أذكر لك أنه يزن طنّاً ليس بجسده، لكن بحضوره الذي يزن طنّاً وهذا ما يسحقنا ويفسد كل لقاءاتنا...

اقترحت عليه، عبر تخصيص بعض التمويل، أن يبحثوا له عن امرأة تجعله أكثر قابليةً للمعاشرة.

- للأسف! يواكيم مثليّ الجنس ولم ينجح مرةً في الاحتفاظ برجل.

هل يستطيع عزيزو مساعدتي أيضاً هذه المرة؟ على أيّ حال هو يعرف بضعة رجالٍ يخرجون مع رجالٍ آخرين، ما يشجع على الطلب منه... لكنّ زائري كان حاسماً: "جربنا كلّ شيء، لكن من دون فائدة. هو دائماً هناك، بصمته وشعره الرماديّ المسرّح بدقة والمعقود كذيل الحصان، ولحيته المصبوغة التي يتداخل فيها البياض والسواد، وعينيه السوداوين اللتين تطالبان بشيء مبهم. يحضر جميع عشواتنا ويزعجنا كونه فوق ذلك نباتيّاً لا يتناول سوى بعض الخضار، ويتجنب كل منتج حيوانيّ. تخيّل: بسبب النحل لا يقرب حتى العسل، ولا ينتعل أحذيةً من الجلد. الآن تعلم لماذا... علينا التخلص منه. إليك الآن مقدماً، وبقية المبلغ بعد اختفائه".

رفضت تسلّم المغلف متذرعاً بحاجتي إلى درس الموضوع، ووعدته بأنني سأعاود الاتصال به قريباً. كنت قد انتزعت تماماً من رأسي فكرة قتله. يجب العثور على حلّ آخر، نوع من النفي أو

الترحيل الطويل. خطرت لي فكرة إرساله للتقاعد في الهند. سأؤمن له اتصالاً بالمعلم الروحاني الكبير هاشم، تلميذ المعلم الأكبر أوشو، الذي مات عام ١٩٩٠، والذي سيسحره ويحتفظ به إلى جانبه. تبقى مسألة بسيطة هي تأمين تكاليف السفر وإقناعه به.

حين التقيت يواكيم، فهمت. كان الضجرَ مجسَّداً في الحقيقة. لإقناعه بالسفر إلى الهند على حساب أصدقائه، استفضت في الحديث عن نظرية النباتية المتكاملة وقلت له إنه على حق، وإنه سابق زمانه. حدثته عن أوشو، وكان قد سمع به وبشهرته.

السهل مع الأشخاص المضجرين جدّاً أن طريقة تصرّفهم محدودة كثيراً ويمكن توقعها بسهولة. فخلال أسبوع كان يواكيم قد صار جاهزاً للرحلة الكبرى.

حين عاد صديق طوني لمقابلتي شكرني ثم سألني هل أزلته من الوجود، فقد يشعرون بالاشتياق إليه. الحلّ الذي اهتديت إليه كان معقولاً. أراد أن يدفع لي مالاً فرفضت، وطلبت منه أن يحتفظ بالأمر بيننا كسرٍّ مطلق.

الفصل السابع والعشرون

شهر بكامله لم تصلني فيه أخبار عن حمدان. ثم، ذات صباح، ظهر فجأة ليطلب مني، كما المرّة السابقة، الإسراع.

– تعرف مومو، المغني اليهودي المشهور الذي يعشقه المغاربة، وخصوصاً المغربيات. مومو هذا الذي تجاوز الثمانين أُدخل أمس إلى المستشفى في حالة خطيرة... هو ثري ومشهور لكنه يهودي.

قاطعته مباشرةً.

– لكن، ماذا تقول؟ أنا لم أميّز يوماً بين يهوديّ ومسلم.

رمقني حمدان بنظرة متعالية: "قد لا يشكل اليهود مشكلة بالنسبة إليك، لكن بالنسبة إليّ، بلى. والكثير من المشكلات أيضاً. هيا، أسدِ خدمة إلى مغنٍّ يعاني سكرات الموت...

كان هناك جمهور محتشد أمام المستشفى، عشرات الأشخاص ومعظمهم من النساء.

في البهو الكبير، تحدث حمدان مع طبيبين. لم أدرِ ما الذي قاله

لهما، لكن بعد ذلك بدقيقتين أشار إليّ أن أتبعه.

كان مومو في غرفته غارقاً في نوم عميق. وقد ذكر لي حمدان أنه في حال غيبوبة.

- قد يستغرق الأمر أشهراً، قال لي الأطباء. أصيب بانفجارٍ في الدماغ دخل بعده في غيبوبة. لم يعد ثمّة ما يمكن عمله.

انسحب حمدان. فارتسم فجأةً في ذهني الرقم ألف. ألف ليلة؟ ألف نقطة في رصيد نومي؟ ألف يوم من السجن؟ لم أعد أدري بماذا أفكر.

في العمق تسريع موت مغنٍّ شعبيّ كان لا يروق لي إطلاقاً. وقد ينظر إلى الأمر كأنه تصرّف معادٍ للسامية، وهذا ما لا يروق لي أكثر. لذلك تركت مومو الشجاع يتولى أمر نفسه بنفسه وخرجت من الغرفة. فقد يتعافى، ربما.

أثناء عودتي إلى منزلي، وضعت قرص موسيقا في مشغل الأسطوانات، ورحت أستمع بتركيز لمومو يغني حبه المجنون لغزالة ساحرة. بالطبع لا نقاط في أرصدة نومي ما دمت قد امتنعت عن تسريع موت هذا الرجل المسكين. نحو الثامنة مساء، أعلمت حمدان بقراري. كان محبطاً.

يجب الاعتراف بأننا كدنا نرتكب كارثة، فقد خرج مومو معافى من الغيبوبة بعدها ببضعة أيام. ولأطمئن، ذهبت لزيارته في المستشفى مع حمدان الذي تولى التعارف بيننا، والتقط لنا صورة معاً. احتضنني بين ذراعيه، وشكرته على الأغنيات الجميلة التي

ألّفها لإسعاد الشعب المغربي، فمن أجل هذا صليت لكي يستعيد عافيته. حتى أنني عدت مرات عدة لزيارته حاملاً معي كل مرة هدايا صغيرة. كان شديد الشراهة، ويحب المعجنات المحشوة باللحم المغمس بالدهن الذي كنا نتناوله باندفاع، مع الشاي الذي تعده زوجته. وكنت كل مرة ألقاه فيها، أشكر حدسي لأنه حال دون أن أضحّي به من أجل حاجتي إلى النوم، وألعن في سري حمدان الذي كاد يورطني في هذه المجازفة.

في أحد الأيام التي تلت، تلقيت اتصالاً من عزيزو، يصيح بجزل: "لديّ كل ما يلزم صديقك الممرض. رجل متزوج في الثانية والخمسين، سمين وسخي، يحب التنكر بهيئة امرأة".

بدأت بالضحك أيضاً حين تخيّلت حمدان بصحبة رجل متخنث. كان من الصنف الذي لا يكتفي بالجنس التافه والعادي، فقد كانت له نزواته، وقد لاحظت أنه ينظر بشغفٍ إلى النساء كما الرجال. لم أحدّد له من سيلتقي مسروراً بالمقلبٍ الذي أهيّئه له. أجّل عزيزو الموعد إلى بعد ظهر اليوم نفسه.

مرّ أسبوع من دون أن أتلقّى خبراً من حمدان فبدأ القلق يساورني. وفي نهاية الأسبوع، اتصل بي وكله حماسة. لم يكن يتوقف عن شكري، فبفضلي اهتدى أخيراً إلى سعادته. وقد فهمت بعد تلميحاتٍ عدة أنهما يلتقيان، دوماً عند الخامسة مساءً، وأنّ الواحد منهما اهتدى فعلاً إلى شريكه. عزيزو الذي اتصلت به مباشرةً بعد ذلك أخبرني أن علاقتهما تتسم بالشغف، بل هي علاقة عاصفة. لم أكن

أرغب في معرفة المزيد، تاركاً الممرض يشبع استيهاماته الجنسية. فهو كلما ابتعد عني، ازددت اطمئناناً.

لكن بعد شهر على ذلك بالتمام، وكان السبت صباحاً، جاءت الشرطة تطرق بابي. كانت المرة الأولى التي أواجه فيها مثل هذا الموقف. بقيت هادئاً. وفكرت. لم أكن أتعامل مع ميّتي الأول بالطبع، ولم أكن موضع اشتباه إطلاقاً. فعلتي الأخيرة مضى عليها أكثر من ثلاثة أشهر على الأقل. إذن، ما الذي يريده مني هذان الرجلان بالزي الرسمي اللذين فتحت لهما بابي. أحدهما ذو نحولٍ مرَضي والآخر ذو كرش ضخم؟

– هل أنت الذي قدّمت السيد المدعي العام إلى رئيس الممرضين حمدان بلعمر؟

"لا أعرف مدعياً عاماً. لكن حمدان، نعم، هو صديق، وعلى نحو أدقّ هو الأخ غير الشقيق لصديقٍ فارق الحياة تاركاً فراغاً كبيراً في حياة كل الذين عرفوه. لو أنك عرفته"، قلت مضيفاً، "لفهمت جيداً ما الفراغ الذي أتحدث عنه...".

"يكفي"، قال النحيل، "توقف عن هذا الكلام الفارغ".

أبرزا لي صورة متخنثٍ في قفطان مطرّز بالذهب، ويغطي رأسه شعر مستعار أشقر، ومتبرج بشكل مبالغ فيه.

– هل تعرفه؟

– لا، لا أعرف هذا الرجل.

– هذا الرجل، كما تقول، تمّ توقيفه بتهمة قتل صديقك الممرض

الذي عثرنا لديه على مفكرة عناوين وفيها اسمك. وعلى هاتفه المحمول صورة "سلفي" تجمعكما، التقطت الأسبوع الماضي أمام أحد المستشفيات حيث كان يعمل.

أذكر جيداً هذه الصورة. مباشرةً قبل الذهاب لزيارة ميمو، وقفنا أمام مدخل المستشفى والتقطنا هذه الصورة. هدوئي المصطنع تحول فجأةً إلى صفاءٍ تام. حمدان تمت إزالته. شعرت بالتحرّر. ما من شاهدٍ بعد اليوم، ولا ضغوط.

أعطيت رقم عزيزو للشرطة بعد موافقته. لم يستفظع الأمر وقدّم إلى الشرطة كلّ المعلومات التي لديه. لم يكن يعرف أنّ ذاك الذي يطلق على نفسه اسم "جوهرة" كان قاضياً ذا شأن. فمن وقت إلى آخر، كان يتدبّر له زبوناً، وغالباً من أجل حفلات الجنس الجماعية... بدأ رجال الشرطة يكتشفون أنّ عزيزو ثرثار كبير. فطلبوا منه أن يقفل فمه، وألّا يتحدث عن الموضوع لأحد. حتى أن الشرطيين هدداه بالسجن إن أثار هذا الموضوع أمام الناس. عزيزو، الذي لم يكن يتمتع بالشجاعة الكافية، أقسم بالصمت. وكان يرتجف خوفاً.

بعد هذه الحادثة بأسبوعين، مات القاضي فجأةً بنوبةٍ قلبية، إذ تآكله الشعور بالذنب، بالتأكيد. الصحف جميعها خصصت صفحاتها الأولى للإشادة بمزايا الرجل العادل والإنساني، ولصفاته الأخلاقية المميزة. فقد خدم بلاده بكل حماسة، وستفتقده العدالة في المغرب افتقاداً بالغاً. أُقيم له مأتم ضخم. لم يتحدث أحد بالطبع عن الوجه الآخر لهذه الشخصية الرفيعة، كما لم يتطرقوا

إلى الأسباب التي جعلت قلبه يتوقف...

مساء المأتم، عاد الشرطيان لرؤيتي. كانا يريدان معرفة طبيعة العلاقة التي تجمعني بعزيزو والتأكد من أنني بدوري لن أتفوّه بكلمة حول الموضوع.

- أنا كاتب سيناريو، أكتب للسينما، ولهذا السبب بحاجة إلى مخالطة الجميع، خصوصاً الذين يصنَّفون غير ملائمين. عزيزو بالنسبة إليّ منجم معلومات عن مجتمعنا. لا يمكن لكتّاب السيناريو والروائيين وكذلك لعلماء الاجتماع الاستعاضة عنه. يعرف جميع الانحرافات والأسرار والألغاز للناس البسيطين كما للطبقة العليا في المجتمع. تعلمون، الجنس هو أكثر من مؤشر على التعقيدات البشرية، هو من أعراض الأشياء التي نريد سترها. قدمه إليّ الأخ غير الشقيق للمغدور. وكان ذلك منذ زمن بعيد، ولم يكن قد مضى وقت طويل على عودتي من الخارج حيث كنت أدرس السينما. ذات يوم، سأكتب سيناريو عن هذا الشخص، وسيكون مثيراً جدّاً للاهتمام حين يرضى بالإفصاح عن مكنوناته. كان هو نفسه بغيّاً وفي الوقت نفسه مزيناً نسائيّاً. هو يعرف عمّا يتحدث.

أحد الشرطيين، النحيل، مال نحوي، متذرعاً بحكّ جبيني بإصبعه. تراجعت. عاود من جديد. ثم، كأنه قلق على صحتي، قال لي: "ما هذه البقعة البيضاء، كأنّ جلدك فقد لونه الطبيعي".

وأضاف زميله: "هذا ما يعرف بمرض الأبقار الهولندية، أليس كذلك؟"

– ولماذا الهولندية؟

"لأنها ضخمة وبلهاء"، قال السمين ضاحكاً.

أسرعت إلى الحمام. لم أكن أعرف مصدر تلك البقعة. خلعت قميصي واكتشفت أن جذعي مغطى بهذه البقع الغريبة.

"هذا ليس مرضاً، هذا... كما ذكرت للتوّ عن الجنس، هذا... من الأعراض!" صرّح النحيل الواقف خلفي.

– عرض، لكن عرض ماذا؟

– لست طبيباً، لكن حدسي ينبئني أن الأمر ليس بسيطاً. حسناً، سنتركك. إذا كانت لديك معلومات أخرى، مرّ بنا، فبإمكاننا أن نقدم قهوة جيدة، فلدينا ماكينات لهذه الغاية. كما لدينا أيضاً حليب مستورد من هولندا!

ما إن غادر الشرطيان، حتى بدأت حكّ جلدي كله. كنت في حالة من التوتر الشديد. خلعت ثيابي كلها ونظرت إلى نفسي في المرآة: إنني أشبه بقرة، ربما ليست هولندية، لكن لديّ جلد بقرة.

الطبيب الذي استشرته والذي عيّن لي موعداً طارئاً كان عاجزاً عن تحديد مصدر هذه البقع. حدثني عن مرض يسمّى Vitiligo (البهاق)، وأنا لشدة ارتعابي سمعت Vertigo، وهو فيلم إثارة لهيتشكوك، فتعزّز هلعي.

نصحني الطبيب بمراقبة نظامي الصحي. لا سجائر، لا كحول، لا إفراط. فذكرني بـ*Dr Knock*[1]. سألته: "في المساء، كوب من المرق

---

[1] مسرحية للكاتب الفرنسي جول رومان Jules Romains بعنوان *Knock ou le Triomphe de la médecine* [الدكتور كنوك أو انتصار الطب].

المغليّ فحسب، أليس كذلك؟"

لم يلتقط التلميح. عندئذ بدأت تقليد لويس جوڤيه[1]. لم يضحك. كان يعتقد، بلا شكّ، أنني بدأت أفقد عقلي، وأنني أسخر منه.

---

١ Louis Jouvet، ممثل ومخرج فرنسي (١٨٨٧-١٩٥١).

الفصل الثامن والعشرون

كنت بحاجة إلى صفاء ذهني. هل لهذا المرض الجلدي صلة أم لا برصيد نومي؟ البقعُ ظهرت فجأةً من دون مقدمات، وتزامن ظهورها، على ما يبدو، مع زيارة الشرطيَّين الأخيرة. لحسن الحظ أنه في ما عدا جبيني، ظلّ وجهي سليماً. لكن لا شيء يضمن ألا تنتشر تلك البقع على كامل جلدي. كان الوضع مثيراً للأعصاب، وعليّ أن أتمالك نفسي، فلربما كنت أتمادى في الهلع.

ألعلّ بعض الأشخاص ممن سرّعت رحيلهم لم يكونوا حقاً مشرفين على الموت؟ ربما استغللت ضعفهم فأرسلتهم أبكرَ من المتوقع إلى حتفهم؟ في المدة التي كنا فيها، أنا وطوْني، في أوج نشاطنا، تركت نفسي تنساق وراء لعبته. الحياة والموت لم يعد لهما معنى. كنت مستعدّاً لكلّ شيء لأؤمّن لنفسي لياليَ من النوم الهانئ...

هيّا، هيّا، كنت أسرد على نفسي قصصاً. قصصاً للنوم... واقفاً. لا، ليس واقفاً، بل على سرير صلب ومريح في الوقت نفسه. أأكون قد ذهبت بعيداً جدّاً؟ كيف لي أن أعرف؟

أُرجئ دفن حمدان بسبب تشريح الجثة، فاستدعتني الشرطة مجدداً. في غرفة الانتظار، التقيت عزيزو وجهاً لوجه. كان شديد القلق ولا يدري ما الذي يريدونه منه بعد.

قادوني إلى برّاد الموتى من دون عزيزو، وطلبوا مني التعرف إلى جثة حمدان، إذ لم يأتِ أحدٌ على ما يبدو للسؤال عنه. حين انتهت المهمة، وضعت يدي على عينيه اللتين كانتا لا تزالان مفتوحتين. شعرت عندئذ أن شيئاً ما تحرك داخلي. كمثل موت طوني، انتقلت إليّ أرصدة الرغبة الجنسية. أنا الذي ما شعرت مرة برغبة في النساء الناضجات باتت لي الآن رغبة عارمة فيهنّ. ومن دون أن أطلب شيئاً، ورثت مباشرةً رغباتٍ ونزوات من هذا الممرض الغريب الذي برز فجأةً في حياتي كطيفٍ في فيلم رعب إيطالي.

حين صرت بمحاذاة جدار منزل جارتي، لدى عودتي إلى منزلي مساءً، تذكرت أن زيارتي الأولى إليها ظلت يتيمة. معايير حمدان تنطبق تماماً عليها. وزنت الأمر من جوانبه كافة، وقررت، والأصح أن رغبتي الجنسية الجامحة هي التي قررت، أن أطرق بابها. تذرّعتُ هذه المرة بانقطاع التيار الكهربائي وسألتها هل لديها شموعٌ.

بدت كأنها كانت تنتظر زيارتي. كانت ترتدي ثوب نوم شفافاً، ودعتني لتناول كوب من الشاي من دون نعناع، "لأن للنعناع تأثيراً سيئاً في الرغبة الجنسية"، قالت. شعرت للتوّ برغبتي تتصاعد، وبدأت أرى نفسي أخلع عنها قميصها حين تملّك حمدان مني. بتّ أتصرف بناءً على أوامره. كنت حمدان وكنت أحبّ النساء في سنّ النضوج.

لم تلاحظ شيئاً. استقبلتني بين أحضانها بسخاءٍ ونعومة، وغمرتني بالقبل، وسألتني هل أنا على سجيتي. كانت خبيرة. تلهث، تتأوه، تخرمش ظهري، ثم تبطئ قليلاً قبل أن تلتقط فمي بفمها من جديد لنتابع الغوص في ممارستنا.

لم أخرج من عندها مرتوياً بالاكتفاء والسعادة فحسب، بل شعرت بالنعاس يتسلل بلطف إليّ. مكسبٌ مزدوج، جنسيّ ومنوّم. فقررت الاستفادة من ذلك، إذ ستنفد أرصدة حمدان بين يوم وآخر، وأنقطع عن زيارة الجارة مجدداً. هي مسألة وقت واستنزاف.

الفصل التاسع والعشرون

بينما كنت مستسلماً لقيلولتي، دخل عليّ هرّوش، منتجي، من دون موعد. هذا السلوك أضحى عادة لديه. كان مضطرباً ويتحدث بسرعة كأنه أرسله سيد هوليوود الشهير هارفي ونشتاين Harvey Weinstein.

– أميركا! نعم! شركة أميركية كبرى أُعجبت جدّاً بالسيناريو الذي كتبته! حُسم الأمر، الفيلم سيصور! هم يطالبون ببعض المشاهد الجنسية لأن المضاجعة في فيلمك ليست بالقدر الكافي... دو نيرو ليس لديه الوقت، فهو يركز على المشروعات التي سبق وارتبط بها... هم فكروا في ممثل شاب، بن أفليك Ben Affleck. هو رائع، وأجمل من الشخصية التي رسمتها، وممثل ممتاز.

تركته يتكلم وكنت أفكر في أمرٍ آخر. جارتي تطلبني ولست أدري ما العذر الذي أقدمه إليها. لم تعد لديّ رغبة في ممارسة الجنس معها، مذ جاءت خدّوج، عارضة الأزياء الفاتنة من نيويورك، وأصرّت على لقائي. بينما كانت تسعى إلى دخول

المهنة، قدمت إليها بعض المساعدة وعرّفتها إلى أندرو، ممثل بريطاني يعشق النساء الثنائيات الجنس. تملّكني الفضول لمعرفة ما آلت إليه أمورها. لكن هرّوش كان نبع كلام لا ينضب.

– حسناً، عليك أن تعيد النظر في السيناريو. أنت تكتب بالفرنسية، سأترجمه وأرسله مباشرةً إلى هارڤي. سكورسيزي ليس متوافراً بدوره. أحد آخر سيتولى الإخراج لكنّه جيد. أسرع، هذه فرصة حياتك! فرصة حياتك!

حين غادر المنزل، بات بإمكان الجدران والطاولات التوقف عن الارتجاف والاستراحة قليلاً. هذا جنون، فكم من الناس يبثون نوعاً من الكهرباء السلبية ويسيئون إلى محيطهم.

خدّوج بدّلت اسمها ومظهرها. بات اسمها غرايس ووشمت نجمةً على جبينها وخطين تحت ذقنها، تماماً كما كانت تفعل قبلها النساء البربريات. إنها لا تزال بارعة الحُسن. تزوجت أندرو الذي تبين لها أنه مثليّ الجنس، وكان يمنعها من معاشرة الرجال. لم تعد قادرة على احتمال كبتها، وكانت تعيش في جحيم كما قالت لي، وتنتظر لحظة التحرّر من هذا الرجل.

رأيتها قادمة، وبدأت آلتي الحاسبة الداخلية تسجل آلاف النقاط في رصيد نومي. كنت أصغي إليها من دون تعليق. وفجأة انتابتها موجة من النحيب.

– هو يكبرني بما لا يقل عن خمسين عاماً، ويعاني من مشكلات صحية. كم أتمنى لو يسقط صريع نوبة قلبية. حدثوني عن حبوب

تسرّع الأزمة القلبية...

– أنت مجنونة! أنا لست في صدد قتل زوجك؟

– لا، ليس قتله، بل تقديم موعد موته فحسب... هو في الفندق، نائم في هذا الوقت، ألا تريد مرافقتي؟

الخطوة محفوفة بكثير من المخاطر. تسريع موت رجل استعراض مشهور كان تصرّفاً خطيراً. الإنكليز أو الأميركيون لا يكتفون بتقرير الشرطة المغربية. لم أعِد بشيءٍ وانتظرت ما سيلي.

بعد بضعة أيام، بينما كنت أمارس تماريني الرياضية لأحافظ على رشاقتي، تلقيت اتصالاً هاتفيّاً من خدّوج وهي تشرق بالدمع: "تعالَ سريعاً، أندرو في طور الاحتضار. أرجوك. اتصلت بالطوارئ لكنهم لم يأتوا. ساعدني، سيموت...".

قلت في نفسي: "الأمور الآن مختلفة. إنه يعاني من نوبة قلبية، وإذا تأخر الأطباء، ستكون نهايته". لدى وصولي كان هناك طبيب عند سريره. حين رآني ظنني فرداً من العائلة وأشار لي أن الوضع خطير. كان أندرو يتنفس بصعوبة. قلت للطبيب إنني ممرض طوارئ وإنّ بإمكاني إجراء بعض التدليكات للقلب، فأجابني بأنه عرضة للنوبة منذ ما لا يقلّ عن ساعة، وأن الأمل في نجاته ضئيل.

لم أصرّ. انسحبت وتركت الطبيب يتولى التدليك. كانت خدّوج تبكي بدموع سخيّة.

أسلم أندرو الروح بعد ذلك بساعة بين ذراعي خدّوج. حاولت تعزيتها بقدر ما استطعت. قبل رحيلي طرحت سؤالي المفضل على

الطبيب: "هل تعاني من الأرق؟" "أنا؟" أجابني، "يكفي أن ألقي برأسي على الوسادة لأستغرق في نوم عميق لا ينقطع سبع ساعات!" قطعاً...

الجثة نُقلت إلى مشرحة مستشفى ابن سينا. تشريح الجثة بطلب من السفير الإنكليزي. جاء تقريره يثبت أن الوفاة ناتجة عن توقف القلب إثر ذبحة قلبية حادّة. لم يتناول أيّ حبة. جثة أندرو نُقلت إلى منزله في نيويورك. خدّوج، زوجته الشرعية، نالت إرثاً ضخماً. لم أرها ثانيةً منذ ذلك الحين.

الفصل الثلاثون

الأيام تمرّ وأنا أؤجل دوماً إلى الغد دراسة القضية الكبرى التي سيكون فيها حلّ مشكلاتي كلها. وبانتظار حدوث المعجزة، بدأت تحضير كتاب صغير موجه إلى الذين يعانون من الأرق. ليندا الفنانة الإيطالية الشابة هي التي أوحت إليّ بالفكرة. كانت مطلقة مليونير مغربيّ أحبها قبل أن يختفي في ظروف غامضة، والتقيتها مصادفةً في إحدى المناسبات الاجتماعية.

"الناس بحاجة إلى وصفات جاهزة ليستطيعوا العيش. وليس عليك سوى معاينة نجاح كل هؤلاء المعلمين الحكماء الذين يدّعون إرشادنا إلى طريق السعادة! إنها شعوذات لكنها تنطلي. انصرف الناس جميعاً إلى التأمل حتى قبل أن يتعلموا كيف يتنفسون. عليك أن تسقط قناع الأرق"، قالت لي عندما حدثتها عن معاناتي، "امضِ إلى منبع ما يمنعنا من النوم".

بالطبع، لم يكن في إمكاني أن أكشف لها طريقتي، لكن الاستلطاف المتبادل سرعان ما سرى بيننا.

التقيتها بانتظام في الشهور التالية. كل مرة كانت تسأل عن كتابي، وهل لا أزال ماضياً في إنجازه. كنت أحب كثيراً مناقشته معها، فهذا يساعدني على المضيّ فيه. بدأت أحدث نفسي أنّ بيني وبينها شيئاً ما ربما. لكن ذات مساء تحولت أحاديثنا فجأة تحوّلاً تامّاً. فبعد صمت لافت، اقتربت مني وابتسامة متفهمة على محياها، وهمست في أذني: "علينا أحياناً أن نعرف كيف نتخلص من أولئك الذين يفسدون علينا حياتنا".

أجبتها ممازحاً أنني أتخيل أحياناً أنني أخنق ألدّ أعدائي أو أصدمهم بسيارتي العتيقة لكنهم كانوا مقاومين، لكن عطب قد يصيبهم... كأنهم وُجدوا في الحياة لمهمة ارتكاب الشر. أما هي، فأجابتني بكلّ جدية: "كان عليك الانتقال إلى الفعل، سترى، سيعود عليك ذلك بفائدة قصوى!"

– وما أدراكِ؟

– الحدس، الأنف، القدرة اللامرئية للأنف! أنا صقلية المنشأ، قريبة من الأرض والنجوم!

شعرت بالانزعاج، فشكرتها بتأدّب لنصائحها وانتقلت إلى الحديث مع أحد آخر.

بعد انقضاء بعض الوقت، عادت لتراني، واقترحت عليّ، بكل جدية، المشاركة في جريمة متقاطعة كما في فيلم هيتشكوك L'inconnu du Nord–Express [الرجل المجهول في قطار الشمال السريع]. كانت مصممة تصميماً حازماً على التخلص من زوجها

السابق وكانت بحاجة إليّ. وبشيء من ارتباك، طلبتُ منها أن تحدثني أكثر عنه.

– إنه زعيم عصابة. مهرّب كبير، كبير جداً... يملك مئات الهكتارات في ريف طنجة وتطوان. تدرّب على أيدي رجال من المافيا الصقلية قبل أن أتعرف إليه. اليوم تجاوزهم وأضحوا من يعملون لحسابه لا العكس. لديه مركب يدعو إليه البغايا والمتزلفين. حين اكتشف أنني عرفته على حقيقته، رماني كخرقة بالية. ليس لدينا، لحسن الحظ، أطفال. تصوّر أنه أجبرني على الإجهاض لأنّ الطبيب أخبره أنني حامل بطفلة. منذ ذلك الحين والحرب قائمة بيننا بلا رحمة. لكنني أعترف أنني لا أملك أساليبه ولا وقاحته لأمرّغ أنفه بالتراب. فهل أنت مهتم بالأمر؟

– لكنني لست قاتلاً، ومن ناحيتي ليس لديّ من أقتله.

– هذا الشخص أمامك!

طلبت منها تكرار قولها؛ لم أكن واثقاً أنني فهمت جيداً.

– لماذا تريدين الموت؟ لا يبدو عليكِ اليأس. وأيّ مصلحة لي في الأمر؟ حقاً، انسي مسألة الجريمة المتقاطعة، فأنت تقترفين خطأً.

– أنتَ على حق. أبحث فعلاً عن شخص يخلصني من زوجي.

قبل أن تفارقني، سلّمتني قصاصة ورق دونت عليها عناوين زوجها السابق وكلمة "باركنسون" بجانب اسمه.

– هل هو مريض؟

– نعم. لكن لا أحد يعلم بمرضه، فهو يبرع في إخفاء ارتجافه.

إضافةً إلى ذلك هو يعاني من قصور خطير في القلب. إن لم يتناول دواءه، يضيق نفسه وقد يموت.

هكذا، من دون أن تدري، دفعتني ليندا إلى ساحة العمل. إنها من الصنف الذي يخيفني لكنني كنت شديد الرغبة في تحقيق خبطة كبرى. بعدها بأيام، قصدت مقهى Central حيث اعتدت التردّد، وطلبت بتحفظ من صاحبه أن يحدثني عن الحاج حميدة. كان هذا اسم الزوج السابق. فرسم لي لوحة مثالية.

– رجل شجاع، كريم، يهتم بالعائلات الفقيرة، بنى مسجدين. لا يفوّت أيّاً من الصلوات. يقدم خدماته إلى كل من يطلبها. وكلّ ما يحكى عنه خلاف ذلك ليس إلا من باب الحسد. الناس حسودون، يرفضون الاكتفاء بما لديهم. لكن الحاج شخص رائع. نعم، صحيح أنه ثري، لكنه انصرف إلى العمل مذ كان مراهقاً. إنه يزرع أرضه، والله في المقابل أنعم عليه بسخاء... ثم هو يتكلم الإيطالية وكم جميل أن تسمعه يتبادل الأحاديث بهذه اللغة الجميلة...

– وما مصدر ماله لعمل كل ذلك؟

نظر إليّ كما لو كنت أسخر منه. أخرج السبسي[1] من جيبه وقال: "من هذا بالتأكيد!"

أشعل الغليون الطويل. تناول منه نفساً عميقاً وقدمه إليّ.

---

١ الاسم الذي يطلقه المغاربة على الغليون الذي يستخدم في تدخين حشيشة الكيف.

نوعية الكيف ممتازة. دار رأسي مباشرة. ما تحمّلت مرةً تدخين الحشيش.

– الحشيش، في السابق، كان يباع علناً، ولم يكن ممنوعاً إطلاقاً.

ثم أخرج لي صورة إعلان حيث دخان السيجارة يرسم خريطة المغرب مع هذا التعليق: "إدارة حصر التبغ والكيف المغربية".

"هل تستطيع أن تعرّفني إلى هذا الشخص الخارق؟" سألته.

– أما هذه، فلست أدري. نادراً ما يأتي إلى هنا لكن سأستعلم عنه. إن كنت من رجال الشرطة، فلا تتعب نفسك؛ هو يستطيع تمييزهم من بعيد ولا يقدم إليهم الهدايا.

لطمأنته، حدثته عن مبلغ أريد توظيفه. "ليس لي ثقة بالمصارف"، قلت له.

بانتظار هذا اللقاء القمة، كان عليّ شغل نفسي. الآن لديّ طبختان على النار. واحدة مَلْحة والأخرى حلوة. لطالما أحببت مزج النكهتين. الملْحة زوج ليندا السابق. لماذا ملْحة؟ لأنه من النوع الذي يجب إضافة الملح إلى جميع أطباقه قبل تناولها. أما الحلوة، فليس سوى المصرفي الأكثر ثراءً في المغرب، الذي تحلّى طوال حياته على ظهور الملايين من زبائنه. ملياردير وزعيم عصابة، غنيمتان مستقبليتان استثنائيتان.

حياتي لم تعد تدور من الآن وصاعداً إلا حولهما، ولياليّ باتت ذات نوعية جيدة لا بأس بها. تجهيز السيناريوات للتخلص منهما

كان يثير شغفي، تماماً كالكتابة للسينما أو تأليف سمفونية صغيرة. يجب سدّ أيّ منفذ قد يتسرّب منه الهواء. لكن ما دامت الجريمة لا تبدو لي بعد كاملةً، ليس عليّ سوى الانتظار. التنفيذ يجب فرض نفسه بحتمية مطلقة.

الفصل الحادي والثلاثون

من دون أن أفاتح ليندا بشيء، تابعت ترصّد الحاج حميدة. وبما أنه ليس شخصية عادية، لم يكن الوصول إليه سهلاً بالطبع. وقد تعرضت لنكسات متتالية.

ثم خاطرت بكلّ شيء، فزعمت لصاحب المقهى أنّ في تصرفي طائرة خاصة، وأنّ في إمكاني نقل بضاعة. كنت نصف صادق في طرحي. فصديق قديم بالغ الثراء كلفني كتابة سيرته وكان ينقلني معه في طائرته إلى اليونان أو صقلية لمتابعة تحرير الكتاب. لن يتصوّر أحد أن هذا السيد الكبير يمكن أن ينقل (في غفلة عنه) حقائب كيف.

أبدى الحج حميدة اهتماماً. أحد وسطائه اتصل بي وتمّت الترتيبات سريعاً. أُنجزت المهمة لكن لمرّة كانت الوحيدة. وبفضلها، استطعت أخيراً الاقتراب منه. كان حقيقةً الرجل الخفي. لم يكن لديه عنوان. ينام في الواقع في أحد مراكبه في بحر سبتة.

إلى هناك، بعد نجاح مهمتي، انتقلت ليلاً لأقبض المال. ركبت في قارب مطاطي توجه بي، مطفأ الأضواء، إلى يخت جاثم في البعيد.

حين نزلت وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الرجل الذي تخيلته. شخص تافه المظهر، عادي، ربع القامة، نحيل، في وجهه بعض التجاعيد، عيناه ذات زرقة غريبة. في طنجة، يُطلق عليه لقب "الثعلب"، "الأفعى"، "الذئب" (لأنه ينجح دائماً في الفرار من أعدائه وقتلهم)، "فانتوماس"، "إل روبيو" (لأنه يصبغ لحيته باللون الأشقر). نظر إليّ كما لو كان يحاول قراءة أفكاري. لم يترك فيّ تأثيراً يُذكر. خرج لحظةً ليصدر أوامره بألا يزعجه أحد. أثناء هذا الوقت، لمحتُ حقيبة أدويته قرب أوراقه وهاتفه الجوال فاستوليت عليها سريعاً. حين عاد إلى الحجرة، سألني: "أنت اليوناني، أليس كذلك؟ أنت من نقل البضاعة من طنجة إلى جزيرة يونانية نسيت اسمها...".

لم أجب. اقتربت منه وحدقت في عينيه وأعلنت له سبب زيارتي: "جئت أسرّع موتك".

انفجر ضاحكاً، واسترسل حتى كاد نفسه ينقطع. فجأةً وضع يده على صدره، كأنه شعر بألم قويّ لم يكن يتوقعه. ولم يلبث أن استعاد طبيعته. وبما أنني هنا، في نظره، من أجل حساب الحقائب المنقولة، فتح خزنةً وقدّم إليّ رزمة دولارات، وقال لي بلهجة جَهِد لجعلها لامبالية: "إذاً، هكذا، قطعت كل هذه المسافة لتقتلني؟"

– لا، لستُ قاتلاً، بل أقدّم إلى الموت مساعدةً صغيرة. فأنا رغم مظهري ملاك. لنقل "الملاك المبيد". فاستناداً إلى نسبة الكولسترول لديك، وضغط الدم المرتفع، والقصور الكلوي، والسنّ، والضغوط الملازمة باستمرار لطبيعة عملك، والباركنسون الذي تنجح في التستر عليه، بلغتَ النهاية التي حدّدتها شِفرتك الوراثية، وإن كنتَ مؤمناً،

إلى النهاية التي حددها الخالق الذي يقرر من يحيا ومن يموت.

عاد إلى الضحك من جديد، فتملكته نوبة سعال وراح يبحث عن حقيبة أدويته، ولما لم يجدها، استبدّ به التوتر.

– أنت رجل مضحك. تسرد عليّ أخباراً مهولة بلهجة هادئة وصافية، وأنا لا أغضب. أمر غريب، أليس كذلك؟ حسناً، ما الذي تريده؟ رزمة أخرى من الدولارات؟ لديك هنا ما يجعلك تعيش برخاء لأكثر من عام. سلاح؟ فتيات؟ قل، لا تشعر بالإحراج... سحقاً، أين حقيبة أدويتي؟

– لا أريد شيئاً. أنا لا أملك شيئاً ولا أرغب في امتلاك شيء مهما يكن. إذاً، للمرة الأخيرة، أصغِ إليّ ولا تقاوم.

– إنك توترني وتغيظني، سألقي بك في البحر، سترى!

– لن تستطيع ذلك. انظر إلى نفسك في المرآة. فوجهك تارةً باهت، وتارةً أخرى أحمر بلون الدم، وهذا ليس مؤشراً جيداً إطلاقاً. أنت الآن تتعرق، وقلبك يخفق بشدة. ستسقط، لقد حلّ أجلك... اسمح لي بمساعدتك في هذه اللحظة الثمينة بالنسبة إليّ وإلى جميع أولئك الذين تسببت في تدميرهم أو قتلهم.

الآن بدأ الصراخ: "أدويتي، أدويتي!" كان بحاجة إلى حبةٍ ليهدّئ دقات قلبه المتسارعة بشدة. من دونها، سيموت. كان يختنق، يرتجف، يهتزّ بشدّة ولا يتوقف عن الصياح. لكن لم يأتِ أحد لنجدته، فقد سبق وطلب من رجاله ألّا يزعجه أحد، وكانت الحجرة كاتمة للصوت.

لم أعطه حقيبته وصمدت منتظراً بصبر سقوطه. لم يحدث ذلك

مباشرةً، لكن قلبه كان في رمقه الأخير، وهو يعلم ذلك لكنه عاجز عن التحكم في الوضع.

نادراً ما سارت خطة من خططي بمثل هذه الدقة والتنفيذ السليم.

بدأ يلهث ويردّد بصوت تتلاشى نبرته شيئاً فشيئاً: "لكن لا أريد أن أموت. الآخرون يموتون، أولئك الحقيرون البائسون! أين هاتفي لأتصل بدبّاح الذي ينهي أمرك في أقل من... من أنت؟ من أرسلك؟ الكولومبيون؟ إذن، هكذا، هؤلاء الأوغاد، كنت أعلم أنه لم يكن يجدر بي العمل معهم... لكن من أين أتيت؟"

سقط الآن على الأرض، أخذت أنفاسه تتقطع من دون أن يتوقف عن طلب النجدة والمطالبة بدبّاح الذي يكون الآن في سريره في مكان ما على الجانب الآخر من اليخت. عملياً لم يعد قادراً على الصمود. أخرجت من الحقيبة الدواء الذي كان بحاجة إليه وقرأت ورقة التعليمات. يجب التصرف بسرعة. اقتربت منه، تناولت يده وضغطت عليها بشدة. كان يختنق، يرتجف، يتشبث بي. نظرت إلى الخارج، وحين رأيت أحد الحراس ماراً، أشرت إليه بالدخول واستدعاء طبيب على وجه السرعة، وأنا أعلم أننا في عرض البحر، وريثما يحضر طبيب القلب يكون قد مات.

أسرع الحارس. أما أنا، فتركته يموت ببطء ضاغطاً بين وقت وآخر على عنقه لإرهاقه أكثر فأكثر. بات مثيراً للشفقة. الزعيم الخطير صار الآن كومةً مضطربة، كتلة ألم لا حول لها، لخسارته كلّ شيء في بضع دقائق. وصل الطبيب عند الفجر. كان إسبانياً يتولى معالجته من وقتٍ إلى آخر. حاول نجدته، ثم استسلم، فالقلب سيتوقف نبضه.

مات أمام ناظريّ في نهاية هذا الليل الغريب. لكنني كنت على غير ما يرام. لعلّ السبب أنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالذنب. لكنه كان رجل عصابات ومهرب مخدرات لا يرحم، ويعرض حياة آلاف الشباب للخطر. طلبت كوباً من القهوة، ثم غادرت إلى سبتة بصحبة الطبيب.

على متن الزورق المطاطيّ، سألني عن مدى عمق العلاقة التي تربطني بالراحل. عندما أجبته: "لا علاقة"، نظر إليّ ثم قال: "آه، أنت شرطي!" لم أجبه. كان يسرّني أن أبدو بصورة شرطيّ مبيد. افترقنا من دون كلمة. بوصولي إلى سبتة، لم أتصل بليندا لأبلغها بما جرى. ستعرف ذلك سريعاً عبر الصحافة. المسألة صُنفت مسوّاة.

حجزت غرفة في فندق Parador، وطلبت من خدمة الغرف طبق عجة إسبانية، ثم نمت. أحلامي كانت مكثفة وغنية. حلمت بنفسي أتزحلق على مياه المتوسط الزرقاء، كأنني أمارس التزلج على الثلج. كنت أنطلق بسرعة وعصافير من كل الألوان تواكبني. كنت أغني وأرقص كما في أفلام فريد أستير! كنت سعيداً واعتقدت حتى أنني مغرم بامرأة سمراء ذات شعر طويل. لكن أحداً ما أسرّ في أذني: "انتبه! إنه الموت. فهو يتنكّر أحياناً ليلتبس الأمر على الإنسان!" عندئذ سقطت في الماء، وكنت أغرق. كان استيقاظي مفاجئاً.

الفصل الثاني والثلاثون

حين وصلت في اليوم التالي إلى طنجة، لم يكن الناس يتحدثون إلا عن المغادرة السريعة لسلمان، ملك العربية السعودية. فبينما كان يسبح في البحر، ومن حوله مدرّب السباحة، وأطباؤه، واختصاصي العلاج الطبيعي، ومرافقه العسكري، ومساعدوه، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام جثة امرأة طافية على وجه الماء، وقد تحللت أجزاء منها. قطع مباشرة سباحته غاضباً وأمر بإعداد الحقائب والعودة إلى بلاده.

كان قد بنى مجموعة قصور صغيرة على شاطئ يسمّى Le Mirage، قبالة الأطلسي، قريباً من كهوف هرقل. وعاماً إثر عام أخذت ملكياته تتمدّد أكثر فأكثر على طول هذا الشاطئ المعروف بأنه الشاطئ الأجمل في العالم. حين كان ينزل في قصوره في طنجة، كانت المدينة بكاملها تستنفر لاستقبال آلاف الأشخاص الذين يشكلون حاشيته. كانت اليد توضع على الفنادق الكبرى، والقوّادون يفركون أيديهم ابتهاجاً.

ما إن يغادر منازله، يستعيد نزلاء Le Mirage حقهم بالمشي على طول الشاطئ من دون أن يعترضهم رجال الحراسة الأشداء.

هذا الرحيل الفجائي وضع المدينة بكاملها في حال اضطراب. الشائعة انتشرت بسرعة كبيرة. جثة المرأة سرعان ما صارت "امرأة وعشيقها".

في المقهى كان الجميع يتحدثون عن الموضوع مبدين فرحتهم برحيل السعودي. كان لكل واحد روايته، والمخيلة تنطلق على هواها. وحدهم التجار أسفوا على خسارتهم أفضل زبون.

وجه المرأة السمراء التي رأيتها في الحلم كان يغطي الصفحة الأولى للصحيفة العربية الأوسع انتشاراً. وكان الصحافي يؤكد أنها الجريمة الأخيرة التي ارتكبها "الأفعى". ربما يكون قد خنقها بيديه ورمى بها من مركبه. لكن لا شيء من هذا مؤكدٌ. كما يجزمون أن المهرّب الكبير قتله رجل كوماندوس كولومبيّ لخلاف على توزيع البضاعة. آخرون يقولون إنه تمت تصفيته على يد زوج المرأة السمراء. الناس يحبون ابتداع الحكايات وروايتها، هازئين من الحقيقة التي كنت الوحيد الذي يعرفها.

المدينة استعادت حياتها، وتنفست الصعداء وهي تسرد رواية المهرّب. وكنت في منزلي أغطّ في نوم عميق.

III

الفصل الثالث والثلاثون

مرت الأسابيع والشهور. أنفقت خلالها نقاط رصيدي من النوم من دون أن أدرك. كنت أفقد بعض هذه النقاط عن طريق الإهمال أحياناً، أو أعثر على بعضها الآخر. إلى اليوم الذي شعرت فيه من جديد بصعوبة النوم. كانت هذه إشارة إلى أن اللحظة قد حانت للاهتمام جديّاً بالمصرفي الأكثر ثراءً في المغرب. أجريت سرّاً تحقيقاً اكتشفت به أن من ينطبق عليهم هذا اللقب عديدون، وأنه ليس هناك معلومات دقيقة يُعتدّ بها للاختيار بينهم. إذاً، كان عليّ أن أحدّد بين هؤلاء أيهم كان الأكبر سناً، ويفضّل أن يكون مريضاً ويسهل الوصول إليه. علمت بالمناسبة أن هؤلاء كانوا شديدي الحذر. لا يسمحون بالاقتراب منهم ويعلمون أنهم، مهما فعلوا، فإنهم يثيرون الحسد ويكونون هدفاً لأسوأ المتسولين اللجوجين.

أرسلت إلى أكبرهم – تسعين عاماً – رسالة اقترحت عليه فيها تصوير فيلم يسرد سيرة حياته: نجاحه، علاقته بالمال، عائلته، أصدقاؤه، خصومه، كذلك أعداؤه. أمضيت وقتاً في كتابتها واخترت الكلمات بعناية كي لا يتسرّب إليه الشك. بعد ذلك بشهر تلقيت

ردّاً من إحدى السكرتيرات. كانت الرسالة موجزة: "السيد ثوامي بن ميلود الآن في مكة. لدى عودته، سأنقل إليه اقتراحك وأوافيك بالردّ".

التصرف التقليدي. ما إن يشعر الإنسان باقتراب الموت، حتى ينصرف إلى الله، ويسافر إلى مكة لحجّ أخير. كان هذا المصرفيّ مشهوراً بإقباله الشديد على الحياة، ويملك أجود أقبية الخمور المعتقة، ويتخذ لنفسه عشيقتين أو ثلاثاً شابات ومثيرات.

بانتظار عودته، حاولت الحصول على معلومات عن ملفه الطبي. كان يتلقى المتابعة الطبية في مستشفى باريسي كبير.

عند ذلك خطرت لي فكرة الاتصال بلميا، إحدى عشيقاته السابقات، وقد هجرها لأنها طالبته بإنجاب طفل. كانت تقيم في شقة صغيرة في حيّ Sevilla. ولتأمين متطلبات حياتها، عادت إلى ممارسة الخياطة. كانت امرأة مميزة محت جمالَها الدموعُ الكثيرة التي ذرفتها. كانت تحتفظ لذلك الرجل بتقدير كبير وترفض إثارة هذه المرحلة من حياتها. لكن من أجل المال، وهو ما كانت بحاجة ماسة إليه، رضيت بمساعدتي.

– لا تنتظر مني اعترافات عن خصوصياته وعن حياتي معه. كنت امرأة الخميس. أنهض باكراً، أمارس تماريني الرياضية، أتناول طعاماً خفيفاً خالياً من الثوم. لم تكن لديه حساسية من تناول الثوم فحسب بل كذلك من رائحته. أنتقل بعدها إلى الحمّام. مدلّكتي التي صارت صديقتي وكاتمة أسراري كانت تجلوني كما لو كنت عروساً تُهيّأ

للزفاف. تغسل ببطءٍ شعري، تنتف شعيراتي - ما عدا الشعر تحت الإبطين، لأنه يحب مداعبة هذا الموضع - وتتولى تزييني بعناية فائقة. كنت أصل إلى مكان لقائنا السريّ، مشرقةً، معطرةً، مستعدةً لمنحه كل اللذة التي يحلم بها. كان لطيفاً، لكن على شيءٍ من الحزم، لا يكرّر أبداً الأمر الذي يصدره. لذا، يجب أن يكون السمع مرهفاً. كنت عشيقته، عبدته، امرأته ليوم الخميس، غرضاً من أغراضه، ولحظةَ استرخائه. وكان أحياناً لا ينتقل إلى ممارسة الجنس مفضلاً النظر إليّ طويلاً وأنا أمشي، أنحني، أقدّم إليه كأس الخمر، أشعل سيجاره. وفي مرات أخرى، كان يصل، ومن دون أن يخلع ثيابه، يجذبني نحوه ويلتهمني كمتضوّر جوعاً. لم يكن ينقصني شيء، لكن الرغبة في إنجاب طفل تحولت لديّ إلى هوس. فاتحته بالموضوع ذات يوم حين شعرت أنه في مزاجٍ جيّد، وانتصابه صلب. توقف في تلك اللحظة، وتقلص عضوه حتى اختفى بين خصيتيه، ونهض وقال لي: "لا تثيري هذا الموضوع ثانيةً. مفهوم؟"

– نعم، سيدي.

– كنت، في الواقع، حبلى. الخميس التالي بحت له بالحقيقة. اشتعل غضباً، واتصل بحسن، رجله لكل المهمات، فهو في الوقت نفسه، سائقه وحارسه الشخصي وجاسوسه، وأصدر له أمراً لم أتمكن من سماعه. ثم صفق الباب خلفه، ومن ذلك اليوم، لم أرَ وجهه ثانيةً.

– اهتم حسن بموضوع الإجهاض، ولم يغفل عن توجيه بعض الإهانات المختارة إليّ بطريقة عابرة. سلمني مغلفاً فيه بعض المال، وهذا كلّ شيء. بكيت، ولم أنجح في لقاء رجلٍ يمنحني طفلاً.

جمالي ذوى. عمري تجاوز الأربعين، عائلتي أدارت لي ظهرها، ولحسن الحظ أن لديّ بعض طلبيات خياطة العباءات. بالطبع نساء الأربعاء والإثنين لم يبدين تجاهي أيّ نوع من التضامن.

ما حصلتُ عليه كان معلوماتٍ عن حياتها لا حياة سيدها السابق. طرحت عليها سؤالين أو ثلاثة. بدت منزعجة. ثم أفلتت أخيراً الكلمة التي ستسهل عليّ الأمور لاحقاً: "فياغرا. كان يتناولها في كوب مزج فيه حسن مجموعة أعشاب يفترض أنها تقوي القدرة الجنسية. ذات مرة لم تعط مفعولها، كان عضوه بين يديّ بارداً، رخواً، شبه ميت. لم أدرِ ما الذي فعله، لعله تناول مزيداً من الأدوية، إذ أصابه، بعد عشر دقائق، انزعاج شديد. نُقل مباشرة إلى أحد مستشفياته (هو يملك منها عشرة موزعة في أنحاء البلاد) وخرج منها معافى".

أعطتني رقم هاتف حسن، الذي، كما فهمته منها، كان يزورها من وقتٍ إلى آخر. كانت تقبض مالاً، وهو لا يملك ما يضيفه من كلام. كان يجب ألّا يعرف سيده إطلاقاً ما يجري...

ما إن خرجت من عندها، حتى اتصلت بحسن من هاتفي الجوّال، وقلت له إنني أحدثه من قبل لميا. صمت لحظة ثم راح يردّد اسم لميا كما لو كان يبحث عنه في ذاكرته. تابعت من دون ارتباك: "لميا، المرأة التي ضاجعتها أمس بين الرابعة وعشر دقائق والخامسة مساءً. هل نسيت اسمها؟"

– حسناً، حسناً، ما الذي تريده مني؟

– أن نلتقي ونتحدث.

- نتحدث عن ماذا؟
- عن الأعمال وعن المؤخرات.

حين وصل إلى موعدنا الذي حدّدته في اليوم التالي في ركنٍ خلفيّ في أحد المقاهي، كان وجهه متعباً وقسماته مشدودة، وتجاعيده عميقة، وأسنانه غير منتظمة، وصلعته متقدمة، وعيناه ماكرتين، ويبرز له بعض الكرش. صنّفته مباشرةً في خانة "أ. د. م"، أوغاد دون منوّمات. كان من النوع الذي يستغرق في النوم من دون مشكلات.

لم نتصافح. جلس إلى طاولتي وبدا عليه القلق.

"أعلم أن سيدك الآن في مكة"، قلت له من دون مقدمات، "وسيعود قريباً لحضور زواج ابن شريكه القديم. عليك أن تدبّر لي لقاء معه. تصرّف، وإلا، أنت تعلم البقية".

رفعت أمامه من بعيد هاتفي النقال من دون إضاءة شاشته، وحركت في الهواء سبابة يدي اليمنى. هذه الحركة التي لا معنى لها أثارت خوفه. فرفع ذراعيه نحو السماء وتمتم مبتهلاً: "كلّ شيء بين يدي العليّ".

رفعت كتفيّ وغادرت مديراً له ظهري.

الفصل الرابع والثلاثون

كل مساء تبدأ معاناتي لحظة أتوجه إلى سريري. أحدث نفسي في ما يشبه الهلوسة: انتبه، ليل الأرق في انتظارك، لا تتعامل معه بفوقية أو خفة، اعثُر سريعاً على الخلل، الضعف، الثغرة التي يتسلل منها الوجع اللامرئي، تعلّم كيف تتفاوض مع الليل، وكيف تهيوءه، وتزيّنه، لطّفِ الهواء، عطّر الجو، انزع كلّ ما يمكن أن يلحق به الأذى، أزل الصور والأصوات، اجعل من غرفتك ملاذَ سلام، استخدم فقط ملاءات من قطن مصر، لا ترتدِ إطلاقاً أقمشة صناعية، احجر الغبار أو احظر حتى أصغر جزيئات الفتاتِ في سريرك، تفقد فراشك والوسادات، تنفّس وعلّق على مقبض الباب قصاصةً من ورق مقوّى تكون قد هيّأتها خصيصاً:

هنا، لا مكان للأرق!

وكي لا تتعرض للإزعاج، يمكنك أن تبدّل الصياغة يوميّاً: "هنا، لا مكان للدخلاء!" أو بكل بساطة: "الضجة ممنوعة، نحن نائمون!" غرفتك يجب أن تكون سرداباً، قبراً، سحابةَ بضع ساعات، ميدانَ

خصوصية مطلقة. كلّ ذلك تكتبه بكلّ وضوح.

لكنني في سريري كسمكةٍ في مقلاة. أتنقل من زاوية إلى أخرى. جسدي نشيط، بالغ النشاط. يتجاوز حدوده من دون أي رحمة بي. ألقي بشراشفي أرضاً. ألتقطها، لكنها فوقي تتحرك، تبدع أشكالاً، تبصق غيوماً. أراها تتنفس ببطء. شراشف تتنفس؟

جنوني يحتلّ المجال كله. يلتفّ بجلابية حمراء فاقعة ويحمل على ذراعيه باقات من الزنبق والأقحوان جمعها للتوّ. إنني أعرفه. حاسم، مصمّم على قتلي. مهّد له الليل السبيل. يجب أن أتناول حبوباً مضادة للاكتئاب. لكنني مصرّ على الاحتفاظ بذاكرتي. من دونها، تكون نهايتي. لن يعود بإمكاني الكتابة، ولا السفر. إنني أحرص عليها. وأمارس من أجلها تمارين يومية ينصح بها الاختصاصيون.

لطالما قيل لي أنني أتمتع بذاكرة ممتازة، لكنني، والحقّ يقال، أشكّ. فمن وقتٍ قريب، في مهرجان ضخم، اقتربت سيدة مني وطبعت قبلةً عليّ وجنتي. نظرت إليها، لا بل حدّقت، وكان من المتعذر عليّ تذكر اسم عائلتها أو اسمها. إنني موقنٌ أنني أعرفها، لكن لا جدوى. دفعتها إلى الكلام لعلني أعثر على اسمها في سراديب ذاكرتي، إنه على طرف لساني، لكنه يرفض الخروج. رحلتْ مغتاظة. بعد بضع دقائق، تذكرت اسمها واسم عائلتها، بصورة بديهيّة. دونتهما على قصاصة ورق في حال جمعتنا الظروف مجدداً.

فجوات كهذه ليست في نظري إلا دليلاً على عواقب الأرق. الأرق لا يفلت فريسته. التعب يُتلِف الذاكرة، يجعلها مضطربة ومليئة بالثقوب، ثقوب تأخذ معها الأسماء والوجوه المعروفة. علاجي: القهوة. ولكنني أتوقف عن تناولها ابتداءً من الظهر، فللكافيين تأثير يدوم وقد يستمرّ حتى الليل.

إذاً، أُمضي قسماً من نهاري في تهيئة ليلي، لجعله محتملاً، هانئاً، هادئاً، لطيفاً، إيجابياً. مذ عاودني حديثاً أرقي، اتخذت قراري بالامتناع عن تناول الأدوية. كان لديّ ملء الأمل في التخلص منها نهائيّاً. قراءة الإرشادات داخل العلب تخفّض معنوياتي إلى حدّها الأدنى. فهذه الأدوية تعدك بمعالجتك لكنها تنبهك أيضاً إلى المضاعفات التي يمكن أن تنتج عنها. فهذه المضاعفات المؤذية تفوق في تأثيرها إيجابياتها المتوقعة. أقرأ وأعيد قراءة تلك الأعمدة التي كتبها اختصاصيون مقتنعاً أنهم كتبوها خصيصاً لي. إنْ كان الأمر يتعلق بحالات موتٍ نادرة، فها أنا أرى نفسي في هذه الحال. ينطبق عليّ على نحو غيرٍ قابلِ للخطأ كلّ ما يزعج ويرهق. أطوي الورقة وأعيدها داخل العلبة. لن تنالوا مني!

على الطاولة الصغيرة التي اشتريتها من سوق الخرضوات علب أدوية مرصوفة جنباً إلى جنب. وظيفتها أن تكون هنا لتشيع جوّاً من الطمأنينة. أراقبها مستحضراً العبارة التي كتبها مارسيل بروست Marcel Proust على لسان بيرغوت في *La Prisonnière* [السجينة]:

"قلت استعمل، ولم أقل أفرط. بالطبع، كلّ علاج، إن بالغنا في استخدامه، تحوّل سيفاً ذا حدّين".

أرى أو أتخيّل غلاف مجلة مع كومة علب أدويتي على سبيل الرسم التوضيحي. العنوان على الغلاف بسيطٌ ورهيب: هذه الأدوية التي تهيئ الإصابة بالزهايمر! هكذا، المعادلة سهلة: أرق + حبوب منومة = زهايمر. يا للرعب! إنه المرض الأكثر إثارة للرعب في العالم، على ما أظنّ.

أنهض لأرمي كلّ هذه العلب في سلة المهملات. ما كان يجدر بي النهوض. الآن أدور في حلقة. أرتّب الصالون. أعيد رصف كتاب مرميّ على الأرض. أفتح مجموعة أشعار رمبو. قراءة رمبو لطالما أراحتني. لكن هذه الليلة لا طاقة لي على القراءة. أُطبق الكتاب وأعيده إلى مكانه. أتخلص من صحيفة يعود تاريخها إلى الأسبوع الماضي. أرتب وضعية لوحة عُلقتْ خطأً. أفرغ سلة مهملات الورق في كيس من البلاستيك.

وأخيراً أجمع علب الأدوية. أتأكد من أن الباب موصد بإحكام، وأن النوافذ لا تكشف عن شيء من فوضاي العارمة. أعيد قراءة رسالة من المصرف تقترح عليّ أن أصير ثريّاً. إنهم يسخرون مني. توظيف أموال من دون مجازفة، لا وجود لشيء كهذا. أقرأ مقالة عن المصارف ومشروعاتها البالغة التعقيد التي تُمارس عبرها السرقة الشرعية. لا أحد يستطيع أن يقف ندّاً لها ولوحشيتها الخفيّة.

الليالي الخالية من النوم لديها في الغالب نصيبها من الإبهار.

حقائق تتكشف لك بكلّ تأكيد.

الأرض زرقاء
القمر لوحة بريشة ميرو[1]
السماء تبتلع زرقة البحر.

١ Joan Miró، رسام ونحاّت إسباني (١٨٩٣–١٩٨٣).

الفصل الخامس والثلاثون

لأنني لم أتوصل إلى تنظيم شيء من مشكلاتي مع الأرق، اكتشفت ذات يوم أن زوجتي تتابع زياراتها السرية. في الواقع، لم أنجح في استرجاع نسخة المفتاح التي في حوزتها. منذ غادرت المنزل بعد طلاقنا، لم تتوقف عن اختلاق الأعذار للعودة والتنقيب في أغراضي، وتمزيق صور، وانتزاع صفحات من مفكرتي، والدخول، لست أدري بفضل أيّ عبقري معلوماتيّ، إلى بريدي الإلكترونيّ واتصالاتي، لتسرق أحياناً ما يقع تحت يدها. لكنها هنا تمادت كثيراً: جاءت بصانع أقفال لفتح خزنتي. ففيها وضعت مستنداتي المهمة وجواهر والدتي وبعض الأوراق النقدية. ما أخرجني عن صوابي كان سرقة الأوراق. كانت تعلم أنني شديد الحرص عليها، وأنه من المستحيل أن أحصل على نسخ عنها.

أعود إلى الموضوع دوماً: عليّ قتل زوجتي. كان يجب قتلها. ليس فقط من أجل تعزيزٍ محتمل لرصيد نومي الذي أنا بحاجة ماسّة إليه هذه الفترة، بل لتعطيل قدرتها على الأذى تعطيلاً تاماً. لكن ما دامت تثير فيّ هذا الغضب، لن أستطيع التخلص منها. يجب أن

أعرف كيف أتمالك أعصابي، وأتصرف بدم بارد، ولا أترك مجالاً لإثارة أيّ شك، لو لجزء من ثانية.

هذه الليلة، فكرة دفنها تحت التراب في مأتم يليق ببرجوازية كبيرة من المجتمع المغربي، ومجرّد التفكير فيها باردة وجامدة أمّن لي بضع ساعات من النوم الرائع واللطيف والمنشط.

قتلها، نعم، لكن كيف؟ لم أكن أدري هل سأتوصل إلى ذلك في اللحظة الأخيرة. من ثمّ ما من أحد يمكن أن يساعدني. إنها مسألة شخصية جدّاً. كان في إمكاني البحث عن شخص يعاني مع زوجته ما أعانيه أنا مع زوجتي ونتفق على تبادل الأدوار فأقتل زوجته ويقتل زوجتي. استيهامات جديرة بمجرمي الأحد الصغار[1]. لكن ذلك لا يحدث إلا في السينما، في قطار سريع، أو سفينة سياحية حيث تكتب عجوز إنكليزية عقدتها البوليسية الألف تحت الأنظار المغتبطة لمرافقتها التي تحلم يوماً بوراثة ثروة الكاتبة الأوسع انتشاراً في أوروبا. الأمور في الحياة تجري على نحو مختلف. هناك المصادفة، الحدث غير المتوقع الذي يسهّل لك المهمة، وكذلك محالفة الحظ.

من هذه الناحية، لم أنل حصتي كما يجب. لم أكسب يوماً في "اللوتو"، ولم ألتقِ امرأة تموت رغبةً فيّ إلى درجة أن تتوسل إليّ لممارسة الجنس معها. لا، حياتي كانت طبيعية إلى درجة أنه لا يُؤمل معها بشيء. نادراً ما أثير انتباه أحد. بقتل زوجتي، أصير بطلاً سريّاً. أستمتع بغيابها من دون أن أجاهر بذلك فوق السطوح. لهذا السبب،

١ Les Assassins du dimanche [مجرمو الأحد] فيلم فرنسي للمخرج ألكس جوفّيه Alex Joffé من إنتاج ١٩٥٦.

يجب أن تكون جريمتي عبقرية. أعرف عن ظهر قلب الأفلام التي تسقط ضحية تفصيل صغير يفسد كمالها، هفوة بسيطة، خطوة خطأ، شعرة، مفتاح، زلة لسان... لا يمكن أن نستعيد من جديد فيلم Les diaboliques [الشريرات][1] لكلوزو، أو Le crime était presque parfait [الجريمة كانت شبه كاملة]، وLa corde [الحبل] لهيتشكوك. هذه الأفلام كانت قد كشفت كلّ الخدع وأثبطت عزيمة معظم المرشحين لارتكاب جريمة. على أيّ حال، إن أولئك الذين نجحوا في ارتكاب الجريمة الكاملة لن نعرفهم أبداً.

لكن، كيف أعرف أن زوجتي، في هذه اللحظة بالذات، لا تضع بدورها خطةً للتخلص مني من دون أن تثير من حولها الشكوك؟ هي أكثر قدرةً مني على التكتّم. فلا شيء ينعكس على وجهها. الناس جميعاً يصدقون كلامها ويحبونها كثيراً، وصورتها لامعة في المجتمع، وهي خدومة، وتبتسم للجميع، فلا تحوم حولها الظنون. إنها نموذج المجرمة المثالية.

لكن، ما الذي يدفعها إلى ذلك؟ كان لديها كلّ ما ترغب فيه.

غضبي تراجع شيئاً فشيئاً، وقررت بهدوء أن أنتقل إلى التنفيذ. لكن الأمر هنا لا يتعلق بتسريع موت أحدهم: زوجتي لا تزال في صحة جيدة، وهي أصغر مني بكثير. يجب أن أشكّل استثناءً وأصير لمرةً وحيدة قاتلاً عادياً. رجل يقتل زوجته لأنه لم يعد يحتملها.

أضحى الأمر كحتمية مفروضة عليّ. وبينما أنا أسير على الطريق

---

[1] فيلم للمخرج الفرنسي هنري-جورج كلوزو Henri–Georges Clouzot (١٩٠٧-١٩٧٧).

الدائري الجديد في طنجة، تذكرت حكاية ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي تناول ذات يوم شالاً وخنق به زوجته التي عاش معها على مدى أكثر من ثلاثين عاماً. أحبها كثيراً، وكرهها كثيراً. حكاية حب اختارت نهاية مأسوية. اتصل بالطبيب من منزله، ومات في مستشفى الأمراض النفسية بعدها بسنوات تاركاً وراءه مئات رسائل الحب التي كتبها لها.

لا، لم أكن فيلسوفاً، ولا خريج السوربون أو المعهد العالي للإدارة، ولا مغرماً بزوجتي. لم أكن سوى كاتب سيناريو بسيط من دون أهمية، يكتفي بالقليل ليعيش. اشتهرت بكوني رجلاً معوزاً وسيئ الطباع نوعاً ما. هذا على الأقل ما أفلت من زوجتي ذات يوم أثناء شجار. كانت تعرف كيف تختار الكلمات التي تجرح. أنا، معوز؟

ماذا يعني أن تكون معوزاً؟ ما الذي يقوله المعجم؟ "من كان في حاجة" (بمعنى من كان بائساً، مفلساً). لا، هذه الكلمة لا تناسبني. لا هي صحيحة ولا تنطبق على حالتي. أما "شرس"، "مشاكس"، "سيئ الطباع"، فيكفي التلفظ بالكلمة ليطالعك فم مجعّد، وجسد ذابل، ونظرة قاتلة، وحركات آلية. الشراسة تتماشى والجنون. يحدث لي أحياناً أن أكون شرساً. أدفع بتصرفاتي إلى حدودها القصوى. أبالغ، أصير شريراً، ويميل لون سحنتي إلى الاحمرار الضارب إلى السّواد، وأبدأ الصّياح. ألعب مسرحية مشؤومة، مخيفة، شريرة، كل ذلك لإخافة زوجتي، حين يحدث ونلتقي. لكن يلزمها أكثر بكثير من أجل التأثير فيها. هي لا تخاف من شيء. لا من الظلمة، ولا من الأشباح

التي تؤمن بوجودها، ولا من السارقين، ولا من العناكب الضخمة ولا حتى من الصراصير السمينة ذات الرائحة الكريهة. الموت؟ لا يخيفها بدوره. تعتقد نفسها عصيّة على الموت. على أيّ حال هي تقود كأنها كذلك.

حدّدتُ اليوم والساعة. منتصف الجمعة، أثناء زواج ابن جارنا. حجة ممتازة. أنسحب من العرس في اللحظة التي يصل فيها العروسان في موكب الزفة حين تكون الأنظار جميعها منشغلة بهما. لديّ بضع دقائق. دخلت على زوجتي من الباب الخلفي وأنا أحرص على ألا أصدر أيّ ضجة. في جيبي جورب من النايلون. بوصولي إلى باب غرفة النوم، سمعت صوت قدميها. نهضتْ بكامل استعدادها، وفي يدها خنجر مستعدة لغرزه في صدر الدخيل. استدرت مباشرةً على أعقابي. أمسكت بي وقالت مع ضحكة عريضة: "لقد أخفتني، لكن ابقَ، لا تقلق. لن أقتلك لمجرد أنك دخلت عليّ على رؤوس أصابعك!"

هكذا اضطررت إلى تأجيل قتل زوجتي إلى موعد لاحق!

بعد وقت، في الحيّ الذي أقيم فيه، لمحت من بعيد رجلاً عجوزاً، من دون منزل ثابت، يسقط أرضاً في الشارع، بلا حراك، فاقداً الوعي. أسرعت إليه ودفعت عنه المارة زاعماً أنني أعرفه. استغرق وصول سيارة الإسعاف أكثر من نصف ساعة. أثناء هذا الوقت كنت أمسك بمعصمه وأتفقد نبضه. عيناه المغمضتان لا تنبئانني بحاله. رافقته

إلى مستشفى محمد الخامس زاعماً أنني ابن أخيه. لم يكن في جيبه أيّ مستند يدلّ على هويته، فقررت أن أدعوه زروال، بشير زروال، وأعطيت مكتب الدخول هذا الاسم. لم أعلم في أي لحظة أسلم الروح لكن حين أراد الطبيب فحصه وهو يسدّ أنفه أشار مباشرةً إلى الممرضين بنقله إلى براد الموتى. غادرت وأملي أن أكون قد حصلت على بعض النقاط في رصيد نومي. لكن في الليلة التالية لم يطبق لي جفن، وصار مزاجي سيئاً للغاية. اعتراني شعور بأنني أضعت وقتي بطريقة بلهاء. فأخذت حماماً ساخناً للتخلص من الروائح الكريهة التي انتقلت إليّ من الرجل المسكين. خطأ في التوجيه. كنت آمل في نقاط في رصيد نومي، فإذا كلّ ما حظيت به رائحة كريهة لا تزول.

الفصل السادس والثلاثون

بعد أسبوعين على هذه الحادثة، استطاع حسن أن يتدبر لي لقاءً مع السكرتير الذي كان بدوره مقرباً من كاتم أسرار المصرفيّ. يسمونه "العكاز" لأن سيده يستند غالباً على كتفه أثناء المشي. متوسط القامة، نحيل وعلى شيء من أناقة. كان يضع نظارات صغيرة تجعله يشبه طير الطرائد. بشرة سمراء، وتجاعيد عمودية على الوجه. ذكرني بالجنرال أوفقير الذي كان في خدمة الحسن الثاني، قبل أن يحاول الإطاحة به مرتين على التوالي.

ما إن نظر إليّ، حتى شعرت كأن جهاز "سكانر" يتفحّصني ويخترق خصوصيتي وأفكاري العميقة. ارتعاشة لا تنبئ بالخير اخترقت جسدي من جهة إلى أخرى. وهو يدعوني إلى الجلوس، قال لي: "إنك تعاني من صعوبة في النوم. قسمات وجهك مشدودة، وعيناك متعبتان ويبدو عليك أنك ذاهل قليلاً... هل أنا على خطأ؟"

– لا، إطلاقاً. لقد أمضيت ليلة سيئة لأنني كنت أهيئ نفسي للقاء سيّدكم ولم أكن أعرف بماذا أبدأ.

– تبدأ، ماذا تقصد؟

- وضعت برنامجاً اقتصادياً يقضي بأن ينقذ أصحاب المليارات في المغرب هذه البلاد.

لم أدرِ لماذا قلت له ذلك. شخصية السكرتير جعلتني أفقد قليلاً من تحكمي في الوضع.

- هل أنت جادّ حقّاً في اعتقادك أن السيد بن مولود ينتظر زيارتك المحتملة لتمويل مشروعات في حقل التربية والرياضة والثقافة؟

- بالطبع لا. لكن ما أقترحه جديد ومستوحى مما فعله بيل غيتس للولايات المتحدة. تقوم الفكرة على تشجيع أصحاب المليارات على تأسيس صندوق من مليارات الدولارات لتمويل مشروعات أساسية. أخيراً سأشرح فكرتي أفضل عندما أقابل السيد شخصيّاً.

- إن كنت قد فهمتك جيداً، تريد أن تعطي الفقراء، جميع فقراء المملكة، وتجرّد أصحاب الثروات الضخمة في البلاد من ثرواتهم. أنت ساذج وغبي. كلما ازدادت الثروة، طالب أصحابها بالمزيد. هذه قاعدة عالمية!

فضلت تجنّب الردّ عليه. قطع الصمت الذي ساد بأن سألني عن مهنتي.

- كاتب سيناريو.

انفجر بالضحك.

- هذا يفسر كلّ شيء. تخترع حكايات وتبحث عن راعٍ لها ثريّ ليمولها... لذا أرسل إليّ ثلاث نسخ من السيناريو الذي كتبته، إحداها بالإنكليزية وسنجيبك. إن لم تتلقَّ جواباً في غضون شهرين، فاعلم أن السيناريو لم يحظَ بالرعاية.

نظر السكرتير إلى ساعته. نهض ثم غادر وهو يضحك. كنت يائساً، محبطاً، مرهقاً. ظللت جالساً في مقعدي في الفندق حيث تواعدنا وتركت نفسي تغرق فيه كأنني وسط رمال متحركة. كنت أشعر بالخجل والاكتفاء من واجب اختراع حكايات لأحظى بالحقّ الشرعي والبديهي في النوم. أحد خدام الفندق اقترب مني ودعاني بلطف إلى المغادرة. استجمعت قواي للوقوف على قدميّ، وغادرت الفندق. في الخارج، استعدت جرأتي وقلت لنفسي إنني سألتقي المصرفيّ بوسيلة أخرى.

هذا الرفض دفعني مباشرة إلى دوّامتي المعتادة: تسريع موت مجهولين من دون ترك كثير من الأذى في الطريق.

كان عليّ الاختيار بين بواب بناية "النهضة" الذي لم يعد يخرج من حجرته مسنداً إلى زوجته كل سلطاته، وبين السمّان الذي يستدين منه الحيّ بكامله. ضعف نظره كثيراً، وسمعه تعطل، وذاكرته تخونه، وهذا ما يناسب أولئك الذين له في ذمتهم أموال. خطة عملية؛ الوصول إلى السمان أسهل، وقد يكون أغنى من البواب، خصوصاً أن موت البواب لن يثير اهتمام أحد ولن يعود عليّ بنفع كبير.

كان السمان يُدعى بن جبارة. لا أعرف من أين هو. لكأنه كان هنا منذ البداية، ولا يعرف له عمر، أو كأنه جزءٌ من الأثاث والبضائع في مخزنه. كان يقيم وحده، يأكل وينام في مخزنه. وضع فيه مجموعة من المرايا من أجل مراقبة السارقين، وعصاه الغليظة لا تفارقه. سرت شائعات في الحي أن الرجل يعاني من مشكلات صحية. ففي العام

الماضي، كاد يموت من لقاح ضد الزكام. تفاعل بطريقة سيئة مع الفيروس. قدمت نفسي أنني ممرض، وادعيت أنني مكلف حملة وقاية من الزكام. طلب مني أن أعود مساءً في موعد الإقفال. يفترض أنه تجاوز التسعين الآن. وقد عجبت لمدى تراجع حالته في السنوات الأخيرة. ففمه خلا تماماً من الأسنان، وكان شديد القذارة ورائحته كريهة، ومخزنه تفوح منه رائحة الهرّ الذي جاء به ليخلصه من الفئران.

حين عدت مساءً قال لي، بلهجة محبطة: "ما الفائدة من هذا اللقاح الجديد؟ أنا الآن ميت، ولا أعتقد أن الزكام يجرؤ على مقاربتي ما دامت رائحتي كريهة إلى هذا الحدّ! أخيراً... بما أنك رجل لطيف وأزعجت نفسك بالمجيء ثانية لرؤيتي، أعطني الحقنة وساعدني على النهوض إلى سريري".

ما سماه سريراً كان مقعداً عتيقاً تبرز منه نوابضه وخصل القش. كان جسده قد اعتاد النوم هناك وتكيّف مع هذه الأجسام الحديدية التي تترك أثرها في جلده.

في اللحظة التي كنت أستعدّ فيها لحقنه باللقاح، غاب عن الوعي. اغتنمت الفرصة وأفرغت محتوى الحقنة في ذراعه. الوخز أيقظه. أجلسته على سريره. ردّ فعله على اللقاح كان غريباً لكنه ما زال يتحرك. حين أغمض عينيه، علمت أنه لن يفتحهما مجدداً. حمله الموت إلى ليله.

بقيت إلى جانبه حتى شروق الشمس رغم الروائح الكريهة التي يعبق بها المكان. هذا الموت حرّك جوعي وعطشي. فتحت علبة

سردين من أحد الرفوف. وهناك في ركن من المكان نصف رغيف، فحضّرت سندويشاً التهمته بشيءٍ من سرور. شربت بعدها مياهاً غازية معدنية. إحساسي بالشبع أشعرني بأنني في أحسن حال.

بن جبارة كان بالتأكيد صفقة جيدة لي. رغم المظهر التعيس لمخزنه، كنت واثقاً أن النقاط التي سيضيفها إلى رصيد نومي مهمة. أبلغت الجيران ورئيس الحي. وصل طبيب. لم يقل كلمة. أعلن الموت، وكتب شيئاً ما على وصفة طبية وغادر وهو يقول: "موت طبيعي. ادفنوه سريعاً فالرائحة لا تحتمل...".

جارته في الطابق العلويّ جاءت بالمتسولين لتلاوة القرآن. دفعت لهم من أغراض المحل. أحدهم طلب زجاجة بيرة. لم يعثر عليها فوق الرفوف. آخر راح يفتش تحت الصندوق وأخرج علبتين من ماركة هولندية. شربوهما دفعة واحدة، ثم رفعوا الأيدي وتلوا الفاتحة، السورة الأولى في القرآن. أمام هذا التدنيس الفاضح لم تملك الجارة سوى أن تصيح بهم: "هذا منكر!" "هذه فضيحة، خطيئة!" لكن احتجاجها لم يبدل شيئاً.

دُفن بعد صلاة الظهيرة. جسده الأعجف الهزيل كان في حجم جسد فتى. اهتم به المتسولون جيداً. ملؤوا جيوبهم بأشياء كثيرة: معلبات، مراطبين مربى "عايشة"، علب "تايد" و"أومو"، بيكربونات الصودا، علب لبن، مغلفات سكر ناعم، ملح، علب جبنة "البقرة الضاحكة"، قناني زيت، صابون سائل. أفرغوا المحل ولم يستطع أحد تأنيبهم. الجارة، شديدة التأثر، تمتمت في أذني: "ليس في يدنا حيلة!" ومن دون أن أجيبها، نصحتها بإقفال المحل

والاحتفاظ بالمفاتيح، فلربما ظهر قريبٌ له بعيد ذات يوم. ثم غادرت قائلاً لها إنني لن أعود ثانية.

كنت شديد التعب فليلي بدأ مع غروب الشمس. ليل جيد وهانئ وهادئ. في الصباح، أخذت دوشاً لكنني اكتشفت أن ما لديّ من صابون لا يكفي لإزالة الرائحة الملتصقة بجلدي. فقصدت الحمّام العموميّ في الحيّ. هناك التقيت وجهاً لوجه مع سكرتير المصرفيّ. ولسبب لا أعرفه، بدأ التحدث إليّ بالإنكليزية. أجبته بأنني لا أفهم هذه اللغة.

يبدو أنه من الروّاد الدائمين للمكان بدليل أن الجميع يلقون عليه التحية وينادونه بالحاج مصطفى. وبينما يفرك مبارك ظهري لإزالة الجلد الميت، قال لي الحاج مصطفى إن فكرتي أثارت اهتمامه بعد تفكير، وإنه لمّح أخيراً لرئيسه بالموضوع، ومن المفترض أن يعيّن لي موعداً قريباً معه. وأضاف أنني محظوظ لأن المصرفيّ من كبار عشاق السينما، وأن عملي كاتب سيناريو لعب لمصلحتي. في محاولة للتأثير فيّ، أخبرني بأنه في الزيارة الأخيرة لمارتن سكورسيزي وفرنسيس فورد كوبولا إلى المغرب للمشاركة في مهرجان مراكش السينمائي أقاما في أحد قصور سيده. فأجبته، بدوري، أنني تواصلت مع مارتن سكورسيزي الذي يفكر في تصوير أحد السيناريوات التي كتبتها. أبدى اهتماماً لكن من الواضح أنه لم يكن يصدقني.

الفصل السابع والثلاثون

بعد شهر على ذلك اللقاء، تلقيت رسالة من الحاج مصطفى. وافق رئيسه أخيراً على مقابلتي، شرط أن أكون موجزاً وسريعاً وعمليّاً. لا ثرثرة، والتطرّق مباشرة إلى الهدف. اللقاء سيكون في أحد مكاتبه، في الطبقة الأخيرة لمصرف من مصارفه.

في اليوم الموعود، وفي الساعة المتفق عليها، جاء شاب إلى منزلي وأقلّني بسيارة "ليموزين" فخمة إلى المبنى الأنيق للمصرفي.

الرجل الذي تقدم ناحيتي في مكتبه المشرف على المدينة كان في أكمل مظهر. أنيق، طويل القامة، ذو ذوق مرهف في اللباس. يفترض أن ما يرتديه يقدر ثمنه بعشرين ألف يورو، من دون احتساب ساعة الذهب. نظر إليّ بتمعّنٍ ثم قال: "إن جئت تصدع رأسي على طريقة الجمعيات لإنقاذ أقزام المدينة، أو التنظيمات التي تناضل ضد شعر عانة النساء المشعرات، فأنت تضيع وقتك. اعلم، يا صغيري، أنني لا أتحدث إطلاقاً عن المال، وأنا لا أحمل منه في جيبي، ولا أعرف رقم أيّ من حساباتي، وأنني لست بحاجة إلى شيء، وأنني مكتفٍ

جدّاً، خصوصاً بعد عودتي من مكة حيث وليّ العهد نفسه تولى دور دليلي. إذاً، هيّا، ما الذي تريده؟ لديك عشر دقائق لعرض طلبك".

شعرت مباشرة أن رواية أصحاب المليارات لن تصمد طويلاً حتى النهاية. ومن دون أن أرتبك، استعدت اقتراحي الأول: "لا شيء، لا شيء إطلاقاً. لست بحاجة إلى المال، فأنا أجني منه ما يكفيني لعيش حياة لائقة. لا، جئت لأقترح عليك وضع كتاب عن حياتك...".

- آه، تعتقد أن نهايتي اقتربت، وأن لحظة إقامة الحساب قد دنت! بعد كلّ شيء سيرة حياة شخص من أكبر أثرياء البلاد لا بدّ أنها تثير اهتمام عدد لا بأس به من الناس. أضف إلى ذلك أنني دوماً كنت مقتّراً في مسألة الإفصاح عن خصوصياتي، لا بل أعتقد أنني بخيل باختصار.

- كتاب وحتى فيلم ربما...

- ها أنت تكشف عن نيتك... ليس لديّ ما أقوله. ثروتي لم تعد لي. حياتي تتميز ببساطة مذهلة، ولذا لن تتعدى صفحات كتابك الاثنتين أو الثلاث، إلا إن اخترعت حياةً لا تمتّ إلى حياتي بصلة.

نظر إلى ساعته، فأدركتُ أن الدقائق العشر التي خصّصها للقائنا انتهت. نهضت، كما لأغادر، وسألته هل ينام جيداً.

- يا له من سؤال! بالطبع نومي جيد، لا بل جيد جداً. لماذا تبدي اهتماماً بنومي؟

- لأن لي معاناة مريرة مع الأرق وأبحث عن الناس الذين لا يعانون مشكلة في النوم. أنا أغار منهم وأحبّ مخالطتهم على أمل أن يكشفوا لي سرّهم.

طلب مني الجلوس، وضغط على زرّ وطلب قهوة وحلوى التشاراك. لاحظت ارتجافاً خفيفاً في يده اليمنى يخفيه بوضع يده اليسرى التي لا ترتجف فوقها. فكرت: إنه الباركنسون، واستعدت سريعاً في ذاكرتي التأثيرات المضرّة التي تخلفها أدوية العلاج. تذكرت خصوصاً دواءً يحدّ من تفاقم المرض لكنه يتسبب في مشكلات أخرى. المريض يغيب عن الوعي ويقع أينما كان. لم أقل شيئاً. شربت قهوتي وأكلت نصف التشاراك. كنا نراقب بعضنا بعضاً وأنتظر ما سيتبع.

لقاؤنا قطعه اتصال هاتفي. يبدو أنه الطبيب لأن المصرفيّ كان يكرر بعده أسماء أدوية وطريقة تناولها ويدوّن ذلك على ورقة. يبدو أنه نسي أنني هنا وأعلن أمامي متفاجئاً: "في الواقع نتائج تحاليلي الأخيرة لا تدعو إلى الاطمئنان؛ يجب أن أمرّ بالمستشفى على وجه السرعة. إذا شئت، يمكنك أن توافيني هناك، سيكون ذلك أسهل، مختبري ممتاز".

أقفل الخط، نظر إليّ مندهشاً: "ماذا تفعل هنا؟"

– نتكلم على نومك...

– لماذا؟ هل أنت طبيب كذلك؟

– لا، أنا كاتب سيناريو، لكنني في الوقت نفسه اختصاصي بالنوم. درست في باريس على يد البروفسور شرتوك Chertock.

ازداد إعجاباً بي أكثر فأكثر ويبدو أنني صرت محبباً إليه. سيدرس الفكرة التي طرحتها عن سيرة حياته، قال لي. وكان مستعدّاً ربما لمدّي بالعناصر اللازمة لكتابتها ضمن بعض الشروط. لكن هذا لا

يمكن أن نتحدث عنه اليوم. سيستدعيني مجدداً. وسأبلَّغ بالموعد حين يحين الوقت، وعليّ أن أبقى دائم الاستعداد. وفيما هو يبوح لي بأنه احتفل أخيراً بعيده التسعين، وضع سبابته على صدغه في إشارة إلى أن رأسه لا يزال يعمل جيداً.

عدت إلى منزلي وانتظرت أكثر من شهر اتصالاً منه. لا بد أنه نسيني. من جديد، أضحت لياليّ عذاباً حقيقيّاً.

الفصل الثامن والثلاثون

خواءٌ، خواء مطبق، هوةٌ نتخيّلها مع شعور بالموت الوشيك. موت مهدِّد، يمضي ويعود. شعور جبار لا لون له. محدلة لرصّ الأرض تتقدم. يجب الفرار منها. خفقات القلب تتسارع. أنفاسي تصبح قصيرة جدّاً، لا تكفي، وتطلق الإنذار. إنني أتعرق. ورائي كتلة ضخمة من الباطون تلتفّ حولها أسلاك شائكة. إنها تتقدّم، تسعى إلى سحق جسدي. الآن هي تبتلع ظلي. أركض، ليس بالسرعة الكافية. الموت يدوس الستائر وزهور الزنبق، يمزق الشاشة، يضرم النار في النعوش الفارغة. هذه الكتلة السوداء تتضخم وهي تتقدم. سوداء حيناً، وحيناً حمراء. سحقت حتى الآن جزءاً من عقلي. وطهت أحشائي مرَقاً. أركض كمريضِ طاعون، كسارقٍ قُبض على خناقه. البرد شديد. إنه برد من الزمن الذي لم يعرف الإنسان فيه الدفء. إنني أتعرق، وأتنفس بصعوبة، وأعتقد أنني أرتجف. زيارة، لا، تجلّي أفكار، اجتياح. تسليم آلة موت للمنازل. الدولاب ابتعد. قلبي يخفق سريعاً. هذا ليس خوفاً، بل شعور آخر، مسألة أخرى. نوع من مباشرين يستعجلون الانتهاء،

أو وكلاء مآتم بأثواب الحداد الكاملة، كما في *Les fraises sauvages* [الفريز البريّ] لإنغمار برغمان Ingmar Bergman، يرتدون الأسود والأبيض، والوجوه مطليّة بالبودرة البيضاء. الموت المفاجئ يطلب شيئاً أو أحداً.

أنا ربما؟

الساعة فقدت عقاربها.

والزمن أضاع نقاط استدلاله.

المباشر يصرخ بصوت غاضب. يرتدي بذلةً من ثلاث قطع مبقعة بالدهن. هو هنا، وهو نفسه لا يدري ماذا عليه أن يفعل. أغرق في ملاءات متعاركة، ممزقة، مجعلكة، مرفوضة.

ابتعد الموت.

صوت بعيد يتوجه إليّ بالإيطالية: O anime affannate, venite a noi parlar, s'altri nol niega.

ما معناه: "أيتها الأرواح المعذبة، تعالي وكلمينا، إن لم يكن هناك من يحظر عليك الكلام".

ما الذي جاء بدانتي؟ ولماذا هذه الكلمات المأخوذة من "جحيمه"؟ إذاً، هذا، لقد تهت. اللوعة الكبرى رمتني أرضاً، لم أعد أستطيع الحراك. وهذا الصوت يكرر عليّ وجوب الالتحاق بعالم آخر.

كوب ماء سريعاً! وضعت رأسي تحت الماء وشعرت كأنني عدت من مكان بعيد. وهمٌ صرف. ضجيج الكتلة لا يزال يصفر في أذنيّ، وإن أغمضت عينيّ، تعود الكتلة. جلست على حافة السرير وانتظرت.

الليل هو هكذا. لا يتنازل إطلاقاً، حافلٌ بالموارد والعذابات. ولست في مستوى التفاوض معه. في العمق لا أحد قادر على ذلك. ليس لأننا نتناول أدوية منوّمة ذات مفعول قويّ نكسب الجولة.

الفصل التاسع والثلاثون

"التنويم المغناطيسي، كما سترى، هو معجزة حقيقية. ستغرق في النوم للحظتك! جرّب، أقول لك، ودع نفسك ترحل...".

لكن ترحل إلى أين؟

المنوّم المغناطيسي، رجل في الأربعين، بالغ التكتم، نموذج مغربيّ، هادئ وراضٍ عن نفسه، حدثني عن مرج حيث أكون فيه في سلام... حدثني بصوت منخفض كما لو كنا نتبادل أسراراً. كان عليّ أن أصيخ السمع، وبذلت جهداً. كنت جالساً برخاء في مقعد مريح. تملكتني رغبة مباشرة في أن أشتري لنفسي مقعداً يشبهه، أضعه وسط الصالون وهناك أنام. رغبت في أن أطلب منه عنوان المحل الذي اشتراه منه. لكن لم تكن تلك اللحظة الملائمة. سأبحث على الإنترنت.

فجأةً، أمرني المنوّم المغناطيسي بلهجة حاسمة: "تناول كيس مهملات أسود، افتحه وخضّه، ضع فيه مشكلاتك، كلّ ما يؤلمك وينغّص عليك حياتك، هيّا، إنني أنتظر...".

تملكتني رغبة في أن أجيبه: "لكن، ما الذي تقوله، ليس لديّ

كيس نفايات أسود! هذا محض خيال!" مع ذلك، أغمضت عينيّ وتناولت كيساً أخضر غامقاً، هذا ما وجدته. لكنه كان يعاند، يلتصق، يرفض أن ينفتح.

وما الذي سألقي به أولاً؟

استعرضت في ذهني ما عساه يكون أصل اضطراب النوم عندي:

– اختفاء زوجتي للمرة الأولى، ذات ليلة من عام ١٩٨٧.

– طلاقي: حرب لم أخرج منها من دون عواقب خطيرة.

– سرطان. علاج هرموني، علاج بالأشعة.

– أخيراً بعض التفاهات، كخلافات مع أشخاص سيئين وشرسين، أشخاص جديرين بالازدراء أخفوا لعبتهم، منتج فاشيّ وآخر لا يتحدث إلا عن المال.

امتلأ الكيس، وفاض. مستحيل التخلص منه. المتاعب كانت معاندة. تظاهرت برمي الكيس. كان ثقيلاً. ركلته. كنت شديد التوتر والاضطراب.

خرج المنوّم المغناطيسي عن تحفظه. "بعض اللياقة على الأقل!" وتأملني طويلاً، ثم قال: "الآن، أفرغ رأسك، أعني كيسك!"

أحنيت رأسي وانتظرت أن تتساقط منه الأشياء التي جمعتها فيه. خضضته، بدّلت موضعه، لا شيء. أغمضت عينيّ، وحاولت الإغفاء. لكن من دون جدوى. لم تجرِ الأمور كما يجب، فبتّ أشك في قدرة المنوّم المغناطيسي.

بعد خمس وأربعين دقيقة من الانتظار، نهض وطلب مني أن أمرّ بسكرتيرته. ١٣٠ أورو مع اقتراح موعد جديد. قلت له: "لا تزعج

نفسك، لن أعود".

حين عدت إلى منزلي، تذكرت أنني نسيت أن أضع في الكيس سبباً جديّاً لأرقي. لا أحتمل أن أبقى متعطلاً لا أعمل شيئاً، فأثناء النوم، لا أكتب، لا أتخيل، لا أبدع شيئاً. من وجهة النظر هذه، أرى أن النوم مضيعة للوقت. أعرف أن هذه فكرة غبية. لكن أنا هكذا، ما تعلّمت ولا عرفت كيف يكون الشعور بالملل. إنني أشغل وقتي.

مهجوساً بالشفاء دوماً سعيت إلى استشارة الدكتور رضا، صديق العائلة. عالج والديّ واعتنى كثيراً بوالدتي حين بدأت تفقد عقلها وذاكرتها. اتصلت بعيادته مرات عدة من دون أن أتمكن من محادثته. وذات يوم، وجدت رسالة على هاتفي الثابت: "الدكتور رضا بإمكانه استقبالك. فهل تتكرم وتتصل به على هذا الرقم ابتداء من الحادية عشرة صباحاً...".

حين حضرت إلى عيادته، فتحت لي الباب سكرتيرة عجوز في ظهرها حدبة خفيفة. نظرت إليّ كما لو كنت المسيح، المخلص، ذاك الذي سيحلّ مشكلة خطيرة. غريب مثل هذا التصرف مع مريض. كان الطبيب مباشراً. كان يريد الموت لكن القانون يمنع الموت الرحيم. كان يقترب من الثمانين. يعيش وحيداً. زوجته هجرته مع بحّار إندونيسي وأولاده موزعون في أمكنة مختلفة من العالم. أحدهم استقرّ به المقام في أستراليا لكيلا يسمع اسم المغرب في أذنيه. كل هذا كان يصعب على الدكتور المسكين رضا احتماله. أضف إلى ذلك أن تشخيصاً أجراه أخيراً أظهر إصابته بداء التصلب اللويحي.

الانتحار بصمت وسط وحدة قاتلة لم ترق له. يريد أن يجعل من حالته مثالاً ليحثّ الدولة على سنّ قانون يشرّع "الموت بكرامة". ترى، كيف عرف أنني أعمل في تسريع موت الناس؟

وبما أنني لم أقل شيئاً، مدّ ذراعيه واحتضنني وهو يقول: "شكراً يا ولدي!" هذا ما جعل السكرتيرة العجوز في مزاج سيئ. لم تعد تطيع أوامره. طلب منها أن تعدّ لنا الشاي لكنها رفضت بكل وقاحة. لتطييب خاطره، قلت له إن كوباً من الماء يكفيني، وجئت به بنفسي وجلست قبالته. رأيت في الواقع أنه لم تكن لديه رغبة في الموت.

– أشكرك لأنك استجبت ندائي. أنت تعلم، دائي الحقيقي هو الوحدة. العجوز لا ترتب الأشياء. هي تعيسة هنا لكنها ترفض الرحيل. نعم، الوحدة، خصوصاً في المساء، حيث تلتصق بجسدي كالطفيليات التي تنهشني. حتى جلدي بات لا يحتمل سريري. بتّ في حالة من السخط يتعذر عليّ معها القراءة ولا حتى مشاهدة فيلم. كل شيء يوتر أعصابي. إنني أتألم بصمت.

أخيراً أحضرت السكرتيرة الشاي. هي التي أشارت عليّ بالعلاج الحقيقي: "ما يحتاج إليه السيد حقاً هو حضور امرأة شابة وحسناء إلى جانبه، كتلك اللواتي يراهن في الأفلام غير السوية التي يشاهدها. اعثر له على واحدة بهذه المواصفات وسيجري كلّ شيء على ما يرام".

حين غادرت الغرفة، قال لي الدكتور رضا بصوت منخفض: "هي على حق. لكن هذا أقرب إلى المعجزة. فأيّ حسناء شابة ترضى بملازمة رجل عجوز مثلي لطالما أحبّ النساء؟"

قلت له إن هذا أمر يتعلق بالدرجة الأولى بالإرادة، وبالمال أيضاً، بنسبة أقلّ. يجب أن يتمكن من المتابعة. أشرق وجهه وبدأت عيناه تلمعان.

"لكن المال ليس مشكلة إطلاقاً بالنسبة إلي. ادخرت مبلغاً على استعداد لإنفاقه على الخروج من وحدتي. أريد تحديداً حضوراً محبباً لطيفاً جذاباً، بعض حيوية الشباب إلى جانبي، فقد أصبحت غرضاً عتيقاً، أحنّ إلى الجمال والحب. أنا لا أطلب أكثر. نعم، لا تمارين رياضية. سيقتصر الأمر على 'فايني ونايسي'"، هكذا كان يلمّح إلى العلاقات الجنسية.

لم تعد المسألة الآن مسألة تسريع موت إطلاقاً، بل على العكس دفع هذا الموت بعيداً بتحويل أيامه ومساءاته إلى أبهى حللها.

غادرت وأنا أعده بأنني سأهتم بوضعه. كانت لديّ رغبة في مساعدة هذا الرجل الذي كان شديد اللطف مع والديّ ونسيت لأيام عدّة مشكلاتي مع النوم.

الفصل الأربعون

السعي المحموم إلى النوم قد يكون مميتاً. كوّنت هذه الملاحظة يوم كدت أُقتل على يد الشخص الذي كنت أريد تسريع موته. كان رجلاً مسنّاً نوعاً ما، نحيلاً وجافاً، بنظرة شريرة. أُدخل إلى أحد المستشفيات لعلاج ألمه. كان الرئيس السابق لأحد أنسبائي. رجل مهووس يحب السيطرة على موظفيه وتعذيبهم، وقد عذبه نفسياً. في اليوم الذي أدخل فيه المستشفى، حدثني نسيبي، الذي شعر بالارتياح، عن جحيم الحياة التي كان يعيشها معه. كان بحاجة إلى أن يفضي بما في نفسه إلى أحد ما لأنه كان يشعر أن اختفاء هذا الرجل يعني له بالتأكيد نهاية مرحلة من التنكيل طويلة.

معتقداً أنني أقوم على عمل جيد، استعلمت عن اسم المستشفى وقررت أن أزور هذا الوغد في أقرب وقت ممكن. قدمت نفسي أنني أحد مساعديه، وأرشدني أحد الممرضين إلى غرفته مع تحذيري أنه ليس مريضاً مريحاً. كان نائماً لكنني لاحظت مباشرةً أن نومه خفيف. ما إن فتح عينيه، حتى بدأ بالصراخ: "من أنت؟ النجدة، النجدة!"

لم يأتِ أحد. طمأنته شيئاً فشيئاً بالتحدث إليه. سكت، وأشار إليّ بالاقتراب منه كأنه يريد أن يهمس في أذني. كانت الفرصة المنتظرة لتسريع موته.

حين صرت بجانبه، قال لي: "لديّ أشياء مهمة أقولها لك. أنت ابن لالا فاطمة، أليس كذلك، شقيقتي البكر؟" أومأت برأسي إيجاباً، وكنت قد صرت ملتصقاً به تقريباً لأتمكن من سماعه، حين أطبقت يداه كلتاهما فجأةً على عنقي محاولاً خنقي. كانت لديه قوة لا بأس بها في ساعديه. ضغطَ، قاومت، وطلبت النجدة. أظفاره انغرزت في جلدي. وسال الدم. صرخت عالياً فهرع الممرضون إليّ ونجحوا بصعوبة في انتزاعي من مخالبه.

أخذت المبادرة واتهمته بكلّ الشرور. جئت أزوره لأقدّم إليه تقريراً عن وضع المصنع، فظنني لصّاً، مجرماً!

– لا تبالوا، هو مجنون. فقد عقله وبات يشكّل خطراً في المدة الأخيرة.

خرجت راكضاً تقريباً وأشعر بالراحة لأنني أنقذت حياتي. في اليوم التالي، أخبرت نسيبي بما جرى فتعجب كيف أنني ذهبت هكذا لزيارته. أجبته، بلهجة محايدة، أن فضولي دفعني لرؤية شخص بمواصفاته. وهو فضول يساعدني كوني كاتب سيناريو.

طمأنه ذلك. وباح لي أن فكرةً راودته مرات عدة: أن يدخل ويضع وسادة على وجه رئيسه وهو نائم. لم أنصح بذلك. فقد رأيت إلى أي مدى كان العجوز خطيراً. لحظة موته لم يكن موعدها قد حان بعد.

بالفعل، بعد ذلك بأسبوع، خرج من المستشفى وسافر إلى مكة ليشكر الله على شفائه.

كان من النوع الذي لا يُقهر. الإخفاق الأخير في مسيرتي القصيرة.

الفصل الحادي والأربعون

وأنا أحاول أن أستعيد قليلاً من النوم بأخذ قيلولة بعد الظهر، دقّ الحاج مصطفى بابي. سيّده يطلبني. تناولت دفتراً كبيراً وقلمَي حبر وتبعته. في الطريق، أخبرني أن المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب كان مريضاً وأنه بحاجة إلى أن يفضي ببعض ما لديه لشخص من غير المحيطين به. كنت رجل الموقف.

كان المصرفيّ في سريره لكن مفعماً بالطاقة. أشار إليّ أن أدوّن كل ما يقول. فجأةً ونحن وسط الحديث، دخلت ممرضة. حان وقت الحقنة. طلبت مني الخروج لحظةً. الموظفون كانوا رهن إشارتي. لا بدّ أن أوامر قد صدرت في هذا المجال. بعد مغادرة الممرضة استمرّ حديثنا ما يقارب الساعة لم يتوقف المصرفيّ خلالها عن الإفصاح عما لديه، قبل أن يتوقف فجأةً ويسألني أن أعود في اليوم التالي في الموعد نفسه.

خمسة عشر يوماً كنت خلالها في خدمة ضحيتي المقبلة. وبما أن حالته لم تكن تتحسن، كنت أهيئ نفسي لكل الاحتمالات. تملّكني التعب أكثر فأكثر بما أنني لم أكن أحظى من النوم إلا ما

توفّره لي قيلولتي. أنام عند المساء ساعةً واحدة ثم أستيقظ لأمضي ليلي كله في مواجهة شياطيني. كنت كرجل عصابة يسعى إلى تنفيذ خبطته الكبرى ليقصد بعدها إحدى الجزر الفردوسية يمضي فيها أياماً هانئة. إنْ نجحت هذه المرة، فسأعرف السكينة في ما تبقى لي من أيام وليالٍ. خبطة كبرى. خبطة هائلة. خبطة غير متوقعة، ضخمة، مثيرة للدهشة! كنت أعزي نفسي بالحلم فيها.

– اكتب!

وحيال استغرابي، صاح بصوتٍ أعلى: "اكتب!"

فتحت الدفتر الكبير. وأزلت سدادة قلم الحبر وانتظرت أن يبدأ.

" في الخامسة عشرة من عمري، طردني والدي من المنزل. لم يكن من الصّنف الذي يتقبّل العبث معه. ليس لديه حسّ الدعابة. ولا الرأفة. ولا هو من الصنف الذي يعرف المجاملات. لم يُظهر السرور مرةً. هذا أمر لم يفعله أحدٌ عندنا، أما هو، ففعله. متشدّد. لم أكن مفلحاً في المدرسة. وكنت أشعر فيها بملل كبير. لم أحصل منها إلا على علامات رديئة وملاحظات من أساتذتي تدعو إلى اليأس. وجدت نفسي في الشارع من دون مال في جيبي. وعلى مدى عام، عشت مشرداً، لكن واقفاً، لأن مشرداً ينام هو مشرد ينتهي أمره. ينساق إلى نمط الحياة الجديد ويتحوّل سريعاً إلى خرقة. واقفاً ونظيفاً. كنت أحرص دوماً على الاغتسال والمحافظة على ثيابي في حالة جيدة. مارست جميع المهن: حمّال، ملصق إعلانات، ناقل أثاث، غاسل أموات، حفّار قبور، كاتب عمومي،

حاوٍ للأفاعي، بنّاء، مشعوذ، بهلوان، سائر على الحبال، ممثل إيمائي، تحرٍّ، جاسوس، حارس ليليّ، عامل في مرآب، سبّاك، كهربائيّ، عامل توصيلات، ساحر... وحتى مغنٍّ. عملت كلّ شيء. كنت المترحّل الدائم. لم أطرح على نفسي أسئلة. لم أكن أكسب من المال ما يتيح لي حجز غرفة في فندق. كنت أنام في الحافلات. أحد السائقين أراد أن يتبناني لكنني رفضت. فقدَ ابنه الوحيد فحوّل إليّ كامل عاطفته. لم أسرق إطلاقاً أو أتسوّل. لكنني كنت جاهزاً لكل شيء لكيلا أجبر على الاستعطاء. في ذلك الوقت، كنت أشعر نفسي وحيداً لكن قويّاً لأن عليّ مواجهة التحدي. ممنوع الوقوع، ممنوع الفشل... الأمل في العودة يوماً إلى المنزل. كنت أعرف كيف يجب أن أعود، ليس ككلب وذنبه بين قدميه، لا، العودة وأنا شخص ما، مستقلّ، نظيف، ثريّ، ليس فاحش الثراء لكن لديّ ما يكفيني كي لا أدين بشيء لمخلوق، ما يكفيني لأحدث التأثير المطلوب في والدي.

لزمني عام فحسب. تلقيت مساعدة فتيات كأنّ العناية الإلهية أرسلتهن إليّ. كم من مرة النساء هنّ اللواتي أنقذنني! نظرة كانت تكفي. لم أكن قبيحاً، حتى أن هناك من كان يجدني شبيهاً بآلان ديلون! بعضهن آوينني، أدخلنني حمامهنّ، وأخريات دعونني إلى النوادي. ذات يوم، إحدى أولئك النساء، وكانت أكبر مني سنّاً، أرادت أن تعطيني مالاً لقاء النوم معها. رفضت. ومارست معها الجنس بلا مقابل. أحبت كثيراً ما فعلته، وما عدت رأيتها. امرأة أخرى، اسمها كريستينا وكانت أرجنتينية، أرادت أن تقدمني إلى والديها على أنني خطيبها. كانوا يعيشون في المغرب. وكنت لهم دليلاً وأنا أروي لهم حكايات تضحكهم. كنت أمزج الفرنسية بالإيطالية لأحصل على إسبانية مفهومة. كنت دليلاً لكن بالتأكيد

ليس خطيباً. قلت لها: ما دمت من دون مهنة ثابتة ومناسبة، لا أستطيع الارتباط. قالت إن بإمكان والدها أن يجد لي عملاً في الأرجنتين، لكنني لم أكن أريد الابتعاد عن الدار البيضاء. أعتقد أنها كانت مغرمة جدّاً. يوم رحيلها بكت. أنا لا. لم يكن الوقت ملائماً للحب. الحب كان من الكماليات التي لم أسمح لنفسي باكتسابها.

لم أشكُ الجوع مرةً، ولا الوحدة. كنت أعلم أنه سيأتي يوم وأخرج من هذا الوضع. كان ذلك يقيناً، اقتناعاً، وخصوصاً مسألة وقت. كنت أقول لنفسي: يجب المتاجرة، شراء وبيع أيّ شيء كان، لكن حذارِ الوقوف مكتوف اليدين. حينذاك التقيت مارسيل، يهودي من مراكش، بارع، على شيء من جنون، لنقل إن شخصيتَينا تتشابهان. تعارفنا. أنا أجمع جلود الخراف غداة العيد الكبير، وهو يبيعها. خلال أسبوع تكوّن لدينا مبلغ مهم. بعد جلود الخرفان بعت الخيم للذين يرغبون في زيارة المحطة الحرارية في سيدي حرازم. تلك الخيم كانت من فائض أميركيّ كان والد مارسيل قد جمعها في مخزنه في الدار البيضاء. أعمالنا بدأت آنذاك تصير ذات شأن فعلاً. كنا، أنا ومارسيل، نقيم في منزل في الملاح[1] في الدار البيضاء. وكنت أقيم علاقة سرية مع سارة، شقيقته، فتاة مثيرة، ممتعة، بالغة اللطف. في العشرين من عمري، كان لي مجتمعي الخاص. لم يكن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل. من وقت إلى آخر، كنت أتصل بأمي لأطمئنها عني لكنني لم أكن جاهزاً لمواجهة والدي. وضعت لنفسي عتبة: ليس أقلّ من مليون. بمليون في جيبي، أحظى باحترامه.

لسوء الحظ انتقلت عائلة صديقي مارسيل بكاملها إلى إسرائيل

١ الحي اليهودي.

فجأةً. فوجدت نفسي مسؤولاً عن شركتَينا. أدخلت شركاء جدداً. كان القطاع العقاري هو منجم الثراء في تلك المدة بسبب رحيل اليهود. كان والد مارسيل قد عرّفني إلى حاخام عجوز لم يغادر المغرب كي يتولى إدارة ممتلكات الطائفة. انطلقت عبره. وسرعان ما اكتشفت فيه المحتال المثالي. لم يكن يشعر بأيّ وخز ضمير. كان يسرق إخوته وأنسباءه! رغم كلّ شيء، اشتريت وبعت عشرات المنازل وحققت أرباحاً كبيرة. كنت أحياناً لا أشعر براحة الضمير. لكن ما يؤلمني أكثر هرب آلاف اليهود الذين كانوا يعيشون بسلام مع المسلمين. في الحقيقة، أنا أشعر حيالهم بالامتنان. فبفضلهم، كنت أزداد ثراء. لكنني حزين لأنهم لم يعودوا هنا. يا لها من خسارة! خصوصاً أنني أعلم أنهم لن يكونوا سعيدين هناك. في المدة نفسها بعض السفهاء كانوا يضعون في صناديق بريدهم رسائل مغفلة رُسمت فيها حقيبة وتابوت. ساد الخوف. لم يكن المغرب يلاحظ أنّ كل رحيل يزيده فقراً. كان يفقد جزءاً من روحه.

في الواقع، لم أكن قد وصلت إلى مرحلة أعدّ فيها نفسي ثريّاً بما يكفي. يجب أن أعبر كذلك الحدود. السفر إلى أميركا كان الحلم المطلق. تعلمت الإنكليزية في بضعة أسابيع والتقيت مارسيل في نيويورك. لم يقدّر له النجاح في إسرائيل. نيويورك باتت ميداننا، نحن الاثنين! يا للتحدي! كنا بعيدين عن الدار البيضاء وعن الملاح وبات علينا التكيّف مع النظام الأميركي. لكن في غضون ثلاثة أشهر صرنا أميركيين أكثر من الأميركيين أنفسهم. ذكاؤنا مجتمِعاً يجترح العجائب. الواحد منا يكمّل الآخر. كنا نعيش في دوامة ما يهمنا فيها أكثر، لم يكن المال، بل كيف نجعله يتكاثر، وكيف نتعامل مع الأشياء لجعله يتضاعف. تعلمت أنّ أسوأ الأشياء أن تكون مهووساً بالمال. المال ليس المهم بل الطريقة التي يحفّز فيها ذكاءنا وما

يوقظه داخلنا من جرأة وخيال وابتكار.

في نيويورك، صرتُ مقاولاً. كوّنت ثروتي ومنحت نفسي استراحة. تخلّيت عن المضاربات. أعيش دوماً حياةً متواضعة من دون أن أنسى السنة التي أمضيتها في الشارع. عدتُ إلى المغرب. والدي المريض استقبلني والدموع في عينيه. كان نادماً على ما فعله بي. طمأنته وشكرته. بعد موته، تزوجت، لكنني للأسف لم أرزق بأولاد. بدأت لعب الغولف والاختلاط بأشخاص ذوي شأن في البلاد. هنا أعترف أنني كنت متفاجئاً جدّاً، فقد كانوا في الواقع منقسمين فئتين. رجال الأعمال على الطريقة القديمة، أولئك الذين لم يغادروا المغرب يوماً، ومن ثَمَّ الآخرون، أولئك الذين سافروا، ورأوا واجتمعوا بأشخاص آخرين، واتصلوا بحضارات أخرى. كان الفارق كبيراً. في المقابل، كان الجميع منغمسين في الفساد. ويفتقرون إلى أدنى جدارة. أن تنجح لأنك اشتريت حقوقاً ما إنما هو أمر يدعو إلى الخجل. تعلّمت الحذر منهم. كنت أتبيّن المحتالين وأتجنبهم. ذات يوم دعوت أحدهم إلى فنجان قهوة وأفهمته أنه يضيّع وقته في ما يحاوله معي! قال لي ممازحاً: "يجب ألا نتعب من المحاولة، فلا أحد يعلم!" بعد أشهر على لقائنا، عُثر عليه ورصاصة في رقبته في أحد مرائب الجزيرة الخضراء."

— في المرة المقبلة سأحدثك عن إقامتي في اليابان. الآن يجب أن أرتاح. هل دوّنت كلّ شيء؟ كلّ شيء؟

لدى خروجي صادفت الممرضة. فواجهتها بابتسامة عريضة. عليّ أن أكسب صداقتها. تحادثنا واتفقنا على أن نبقى على

تواصل، وتبادلنا أرقام هواتفنا. في المساء، حظيت بما أسميه غفلة عين خفيفة. كان نومي خفيفاً إلى درجة أنني بقيت معلقاً بين اليقظة والنوم.

الفصل الثاني والأربعون

طوال يومين، لم أتلقَّ خبراً عن المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب. كنت أتنقل من دون هدف في منزلي متبطلاً حين جاء الحاج مصطفى يقرع بابي: "يريد العجوز أن يقرأ ما كتبته. وسنسلم دفترك لسكرتيرة من أجل طبعه".

أجبته بأنّ الدفتر ليس معي، وأنّ المصرفيّ منعني من حمله معي. لا شكّ في أنه نسي. غادر الحاج مصطفى مغتاظاً.

بعد أسبوع وبعض نوبات الأرق بين ٥ و٦ درجات على مقياس حمّو (عندنا معادل مقياس ريختر)، اتصل بي الحاج مصطفى فانتقلت مجدداً عند المصرفيّ لأستمع له يملي عليّ فصول حياته.

اعترف لي بأن لياليه كانت شديدة الاضطراب في المدة الأخيرة.

– لا أدري ما الذي جرى لي لكنني لا أعرف النوم. لا بد أن السبب هو الآثار السلبية للأدوية التي أتناولها. حسناً أريد أن أحدثك عن تجربتي في اليابان. آه، اليابان، يا لها من بلاد، ويا لها من حضارة، ويا لها من ثقافة! اليابان هي المغرب ناقصاً المرارة! كدت أتزوج

يابانية لكنها كانت بالغة الخضوع والانقياد، فشعرت بالبرودة حيالها. أحب النساء المزاجيات. على أيّ حال زوجتي المغربية رهيبة. أخيراً ما الذي كنت أتحدث عنه؟

صمت فجأة وعيناه مثبتتان على سقف الغرفة. لا بدّ أنه يحلم ويستعيد في ذاكرته اللحظات اليابانية الجميلة. حتى أنني رأيت دمعةً تنحدر على خدّه. غرق بعدها في رقاد عميق إلى درجة أننا ظننا، أنا والممرضة، أنه دخل في غيبوبة. ما العمل؟ وضعت الدفتر على طاولة السرير قرب الأدوية وتردّدت في الرحيل. عندئذ دخل الحاج مصطفى الغرفة وأمرني بالمغادرة.

كانت الممرضة سميرة قد أنهت نوبتها وجاءت ممرضة أخرى لتحلّ محلها. كان الوقت ليلاً، فلن أدع هذه الحسناء الشابة تعود بمفردها إلى منزلها. سألتها هل لديها متسع من الوقت لتشاطرني عشائي. بدا عليها التردّد، ثم قالت لي: "حسناً، وقت للأكل، لا للمضاجعة". كنت أعرف أن الجسم الطبي يستخدم لغة فجّة لكنني صُدمت نوعاً ما. طمأنتها بكل لباقة، حتى لو أن رغبتي فيها كانت حقيقية.

في المطعم، بدأت تبوح لي بخصوصياتها. فقد كانت حتى وقت قريب عشيقة المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب. كان لا ينتصب، قالت لي مباشرةً، لكنه يحب تلمّس جسدها، ومداعبة ما تحت إبطيها. وقد طلب منها أن تترك الشعر ينمو في ذلك المكان. جلساتهما كانت نهاية النهار، في الوقت الذي تغيب فيه الشمس. كان مأخوذاً

برغبة مختصرة وملحّة، فيطلب منها أن تجلس إلى جانبه وتسلس له قيادها. كانت تبذل ما في وسعها، وتفعل كل شيء لتجنب الرداءة والابتذال، وتحاول طويلاً أن توقظ عضوه البارد. تتوصل أحياناً إلى جعله يستمتع حتى من دون قذف. لا بد أن يكون قد أجرى عملية البروستات لكنها لم تطرح عليه السؤال قطّ. تكتفي بجعله يمضي لحظات ممتعة وتعود إلى منزلها. أحياناً لم تكن تنتظر حتى مغلف الحاج مصطفى.

كنا قد بلغنا مرحلة التحلية وحانت لحظة طرح أسئلة عليها عن العلاج الدقيق للمصرفيّ. فكتبت فجأة على منديل الورق أسماء الأدوية التي تذكرتْها. انتزعت الورقة ووضعتها خلسة في جيبي. وأنا أشير إلى النادل أن يأتيني بالحساب، وبلهجة مشاكسة، سألتني هل أنا مقيم بمفردي، أو مطلق، وهل أحبّ النساء...

– أنت شديدة الفضول.

– في الحقيقة، لا رغبة لديّ في العودة إلى المنزل.

– إذاً، هيا بنا إلى منزلي. إنه ليس بمثل فخامة فيلّا مريضنا، لكن سترين، ستشعرين بالراحة فيه. حتى بإمكانك أن تبقي فيه قدر ما تشائين، وأنا بدوري لا رغبة لديّ في البقاء وحدي!

مددت لها يدي. تريثت قليلاً، أصدرت تأوهاً قصيراً، ثم قالت لي: "هل ستكون لطيفاً معي؟"

حين وصلنا إلى المنزل، وضعت حقيبتها ودخلت الحمام. ثم خرجت بعد لحظات، وجلست على المقعد الكبير وطلبت مني أن أقدم إليها كأساً.

– كأس ماذا؟

– من كلّ ما يحرّمه علينا الدين! كخمرة جيدة مثلاً.

شربنا، واستمعنا لليو فيرّيه Léo Ferré الذي كان يغني C'est extra. وحين بدأ مطلع المقطع "تحت الشفاف الذي لا يكاد يستر..."[١]، بدأت الضحك ثم أخذت تتعرى ببطء. كانت الفتاة التي تأرجحت ثم جاءت ترسو. لاحظت أنها حلقت الشعر تحت إبطيها. سألتها هل ستتركه ينمو من أجلي أيضاً. انفجرت بالضحك: "أنتم جميعاً فاسقون!"

تناولت عن المائدة عنقود عنب. انتزعت حبتين. طلبت مني فتح فمي ودسّت فيه الحبتين وطلبت مني ألّا أقضمهما. ثم وضعت حبتين في فمها، واقتربت مني بلطف وراحت تقبلني وهي تحاول مقايضة حبتيها بحبتيّ. فدخلنا في مبادلة شهوانية، بين فمين شرهين استهلكا حبات العنقود بكاملها.

على المائدة أيضاً حبات تين طازجة. تناولت حبة ناضجة جداً ووضعتها بين مشفريها. وأمسكت برأسي ودفعته إلى أسفل بطنها. كانت أطيب ثمرة تين تناولتها. حين نهضت، قالت لي: "أنا أيضاً لديّ شعر يهبط كالمساء" و"موسيقا أسفل خاصرتيّ"![٢]

في الليل، سردت عليّ أخباراً طريفة عن المصرفيّ العجوز الذي يعاني خوفاً رهيباً من الموت. "تحديداً"، قلت لها، "موته هو الذي يعنيني".

---

١ عبارة من أغنية فيرّيه المذكورة.

٢ العبارتان أيضاً من أغنية فيرّيه المذكورة.

- لا تتوهّم، هو بخيل، بخيل جداً.
- أنا لا أريد ماله.
- إذاً، ما الذي تريده؟

تعمّدت الغموض. هنا أدارت سبابتها ناحية صدغها وتمنّت لي ليلة سعيدة. مضى وقت طويل لم تنم فيه امرأةٌ بجانبي. كانت عارية. ضوء ناعم يداعب خاصرتها ومؤخرتها. تأملتها طويلاً ومررت يدي بين فخذيها. كان شعوراً رائعاً. قذفت وأنا أستمتع بإحساس عذب غير مسبوق. وبالطبع، لم يغمض لي جفنٌ طوال الليل.

الفصل الثالث والأربعون

في اليوم التالي، رافقتها إلى منزل المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب. أخبرَنا رجاله أنه نُقل ليلاً إلى أفضل مستشفياته. ركبنا مباشرةً سيارة تاكسي إلى ذلك المستشفى المخصص لواسعي الثراء. قدمت نفسي أنني ابن أخيه. أحد الأطباء قال لي إنه في غرفة الإنعاش. يجب الاقتراب منه بأيّ ثمن. أخرجت من جيبي مسبحةً وقلت للتوّ: "يجب أن أصلي إلى جانبه، هذه مسبحته، لا تفارقه أبداً، يجب وضعها بين يديه، سترون، ستعيد إليه وعيه". سميرة فضّلت الرحيل. رافقني الطبيب وتركني وحيداً عند سرير المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب. المجال مفتوح أمامي لتسريع موته. بينما كان الطبيب مغادراً، وجّه لي إشارةً تعني أن أمره انتهى. تظاهرت بالصلاة. وضعت رأسي على صدره. كان يتنفس بصعوبة. لقد حلّت ساعته. لم يكن عليّ سوى الانتظار. تناولت يده وضغطت عليها بقوة، لم يصدر عنه أيّ ردّ فعل. وضعت يدي على وجهه من دون أن أضغط. شعرت باقتراب الموت. لا يصدر الموت صوتاً. كان فمه مفتوحاً. ثقب أسود. راودتني

رغبة في حشو فمه بالمسبحة وخنقه. لا، هذا يلاحَظ. عليّ التحلي بالصبر. عبثت أصابعي بحبات اللؤلؤ الصغيرة للمسبحة وباشرت حساباتي. لم أتوسل إلى الله ولا أنبيائه. كنت بصراحة خسيساً وحقيراً باهتمامي. لا خجل ولا حياء. كان الوقت يمرّ ببطء غريب. الوقت يستغرق كامل وقته. بدأت أخيراً تلاوة بعض آياتٍ القرآن.

عاد الطبيب، تفقد نبضه، وضغط الدم، وأصدر الإشارة السابقة نفسها. تابعت تلاوة الآيات. ثم قال لي: "خير، هذا لا يمكن إلا أن يعود عليه بالخير". حين غادر الغرفة وضعت رأسي ويديّ على صدر "زبوني". ضغطت بقوة. رقبته قست، ثم تصلبت وأصدر حشرجته الأولى بطيئةً وعميقةً، ثم حشرجة ثانية أقصر، تبعها صمت طويل. تفقدت نبضه. كانت النهاية. أسلم الروح. وضعت مسبحتي بين أصابعه. كانت الخامسة وأربعاً وثلاثين دقيقةً مساءً. كنت مرتاحاً وحزيناً في الوقت نفسه. بعد لحظة تأمّل فكرت فيها في نهايتي الشخصية، خرجت أبحث عن الطبيب.

– أعتقد أنه مات.

– سنرى.

أكد الوفاة، وسألني عن الساعة ثم استدعى ممرضين: "مباشرة إلى برّاد الموتى ب".

المصرفيّ الأكثر ثراء في المغرب استحال الآن شيئاً صغيراً عفا عليه الزمن، جسداً هزيلاً عادياً، غرضاً، قطعة خشب. ما من أثر إنسانيّ على هذا الوجه المتشنج. رحل منزعجاً. ربما تسنى له

وقت للبكاء، للمرة الأخيرة. البكاء الليل بطوله في هذه الوحدة الباردة وهو يعدّ الدقائق والثواني. لا ثروته الهائلة، ولا ممتلكاته، ولا أناقته أو شخصيته المؤثرة تبعت النقالة الذي حملته إلى براد الموتى "ب" المخصصة للأموات الذين لا يمضون الليل هنا. لن تلبث العائلة أن تطالب بالجثة. إخوته سيسجّونه، بناء على طلبه، في نعش فخم مزيّن بكتابة اسم الله ورسوله محمد. سيحرقون بخور الفردوس، ومئة قارئ سيتولون ترتيل آيات القرآن. مأتمه سيكون في مستوى ثروته وشهرته. حتى وهو ميت سيتحدث الناس عنه مقاولاً والمصرفيّ الأكثر ثراءً في البلاد. سيذكّرون بأعماله الخيرة، وبإرادته وجرأته، وسيجعلونه قدوةً لحثّ الجيل الشاب على رفض الاستسلام والعمل من أجل تبديل مصيرهم. ستصدر له الصحافة أعداداً خاصة جاعلةً منه "بطل المغرب الجديد".

لقد أدركت أنني نفذت أكبر عملية سطو في العصر. نقاط رصيد النوم تراكمت بسرعة كبرى. بات لديّ منها ما يغذي أكثر من حياة. لقد نلت الآن الإرث الأكبر في المغرب. ليس من المال أو العقارات، بل من نقاط أرصدة النوم التي لا تقدّر بثمن. رأسي يضج. نقاط النوم تتراكم بسرعةٍ قصوى. ثمة ضجة غريبة داخلي، كأنّ مطراً غزيراً يهطل على سطحٍ من صفيح. طلائع خفيفة للصداع أنبأتني باحتقان خطير. يجب اللجوء إلى السرير مباشرة.

بقيتُ مدة قصيرة في ممرات المستشفى، رأسي محنيّ،

جسدي ثقيل، قلبي قلق. أفكار مضطربة تتسبب لي في دوار. كان من المفترض أن أهلل لانتصاري لكن ليس لي حقّ، خصوصاً في هذا المكان وهذه اللحظة. يجب تمثيل الدور حتى النهاية. عليّ الرحيل قبل حضور العائلة.

الفصل الرابع والأربعون

تقتصر عائلته على شقيقين كانا ينتظران موته منذ مدة طويلة. لم يُرزق بأولاد وكان منفصلاً عن زوجته الأخيرة. اتصلت بالحاج مصطفى وقدمت التعازي. استمع لي بصمت، ثم قال: "حسناً، ليس هذا كل شيء، لكن يجب أن أشرف على التدابير". كان يعني تدابير المأتم. عليه قبل كل شيء استشارة الأخوين اللذين يعرف عنهما أنهما صعبا المعاملة ولا يسهّلان الأمور. وقد أخبرني أن العقم كان يشكّل للراحل مصدر ألم مزمن. فقبل بضعةِ أشهر، كان يرغب في تبني فتى ليعوّض هذا النقص، لكن أخويه عارضاه، مذكرين إياه بالشريعة الإسلامية حول هذا الموضوع. يمكنه رعاية ولد يتيم لكن لا يمكن بأيّ حالٍ أن ينقل إليه اسمه. الآية الرابعة من السورة ٣٣ حاسمة: "أولادكم بالتبني لا يمكن أن يكونوا أولادكم". مهما كانت العاطفة تجاهه قوية، يبقى غريباً عن العائلة واسمها، وفي النتيجة عن الميراث، إلا إذا جرى تزوير المستندات وادعاء أنه ولد في العائلة. لكن الأخوين ساهران ولم يكونا ليسمحا بمثل هذه السرقة للهوية.

المصرفيّ الأكثر ثراء في المغرب يجب أن يحظى بمأتم يتجلى فيه كامل الأبهة، وتولى الأخوان سريعاً المهمة. وزراء حضروا مباشرةً لتقديم العزاء إليهما كما تلقّيا اتصالاً من القصر. وقد سرت شائعة غير موثوقة: الملك سيرسل شقيقه لحضور المأتم. ولكن لا، ستحضر الدار البيضاء بكاملها وكذلك الرباط، لكن الأمير لن يحضر.

بينما كلّ واحد في ركنه يفكّر في موته الخاص، كنت أجري حساباً ذهنياً، حسابي الشخصي. سيكون زبوني الأخير. هذا محسوم. لم أعد بحاجة إلى الركض وراء المشرفين على الموت. رحيل المصرفيّ كفاني. لديّ الآن أقلّ بقليل من خمسة عشر ألف ليلة من النوم العميق. ما يكفيني للسنوات العشرين المقبلة، وسأموت قبل أن أستنفد كامل الرصيد. وداعاً للمعاناة المريرة، وداعاً للساعات المضنية التي كنت أمضيها في انتظار النوم. كنت جاهزاً لحياة جديدة.

مساء الدفن كنت في منزلي غارقاً في أفكاري حين جاءتني سميرة باكية. لم أعرف سبب بكائها. ربما ترك لها العجوز شيئاً على سبيل الامتنان. لكنه كان، باعترافه، بخيلاً. ذاك الذي رأيته يُنقل إلى براد الموتى كان عارياً. لا يحمل نقوداً من المصرف، ولا صكوك ملكية ولا حليةً، لو بسيطة.

بين تنهيدتين، قالت لي إن المصرفيّ كان سخيّاً معها إلى حدّ ما. بدت لي دموعها صادقةً. كان ذلك يناسبها ويجعلها أكثر إثارةً أيضاً. وللغرابة، تملكتني رغبة فيها. كلما استمرّ بكاؤها، ازداد انتصابي. وبعد وقت من إفراغ حزنها أمامي، طلبتُ منها التوقف، وإلا لن

تخمّن عواقب تصرّفي. نظرت إليّ قلقةً، ومدت يدها لأمسكها. جذبتها إليّ وضممتها بقوة. وضعت رأسها في فجوة كتفي. وعدتها بمواساتها في المساءِ نفسه. ممارسة الحب معها قبل مأتم المحسن لكلينا لا يمكن إلا أن يكون مبادرة رائعة. فمن غير أن يدري مهّد للعلاقة بيننا. ستكون أيضاً طريقتي في الاحتفال بالإرث الكبير الذي حصلت عليه من دون أن يدري به أحد.

دخلتْ لأخذ حمام ساخن. من الصالون سمعتها تردّد لحناً حزيناً. رغبت في الانضمام إليها لكنني أحجمت. كان من الممكن أن تقف أمامي عارية تماماً لكنها كانت محتشمة. خرجت من الحمام بعد ربع ساعة متدثرة بردائي الخاص بالحمام، شعرها مرفوع بشكل كعكة جميلة، ومن دون أي كلمة استلقت على سريري. تأملتها طويلاً وبحنان عميق. كنت أحبها نوعاً ما على ما أعتقد. أحبّ حضور هذه المرأة ابنة الثانية والأربعين. إنها سنّ رائعة، قلت لنفسي، كلّ مرة أكون فيها بين ذراعيها.

رغبت في قراءة الشعر لها، التغني بجمالها، أن أكون رومانسياً، لكن الكلمات لا تطاوعني ولا أنجح في الخروج من صمتي. لا بدّ أنها تفكر أنني متأثر بموت المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب. كيف أصارحها بالحقيقة؟ على أيّ حال، كان من المحرّم عليّ أن أكشف لها عن نهايتها الحقيقية. تحدثنا عن العجوز وعن هوسه. كانت قد بدأت تتحوّل عشيقته حين كان لها من العمر ثلاثون عاماً أو أقلّ. من البداية، لم يجرِ شيء يُذكر حين كانا يلتقيان في غرفة في قصر.

في يوم الدفن سيارات شرطة عدة كانت متوقفة قرب قصر المصرفيّ. حضرتُ باكراً في الصباح مرتدياً الأبيض بالكامل، ودخلت من دون أن أثير الشبهات. كانت سحنتي صافية نتيجة نومي العميق والهنيء. فأنا أدرك أن نقاط رصيد النوم التي كسبتها من الملياردير كانت من النوعية الجيدة. ناس في حركة في كل مكان. رجل في الستين كان يوزع أوامره. لا بدّ أنه أحد الأخوين. كانوا في انتظار وصول من يتلون القرآن. الحاج مصطفى اتصل بمعارفه من أجل أن يكونوا مئة قارئ على الأقل. غاسلو الموتى وصلوا بدورهم. أسرع الأخ نحوهم ليعطيهم الكفن الذي هيّأه المصرفيّ لهذا اليوم. وللتوّ، بدأت التلاوة. الحاج مصطفى أحضر محارق مع بخور يسمونه "عطر الجنة". خدام يوزعون عبوات مياه معدنية. النساء كنّ منفصلات عن الرجال. في أحد الصالونات، لمحت سيدةً عجوز تنوح وتبكي بدموع حارة وهي تردد: "لقد رحل، لقد رحل، من تراه يفكّر فيّ يوم العيد، من يمنحني خروف العيد؟ لم يعد هنا، الله استدعاه إليه، الله أكبر"... أمام البيت، يطارد أحد البوابين المتسوّلين الذين توافدوا من جميع نواحي الدار البيضاء. كانوا يعرفون البيت جيداً. ففي أيام الجمعة، كان السائق يوزع على المحتاجين الخبز والسكر.

جهاز الأمن كان يتوقع توافد أعداد هائلة. ناس يَصلون من جميع مدن البلاد. نحو العاشرة، وضع الجسد الملفوف بالكفن على حصير وسط الصالون. كان يبدو، رغم طول قامته، صغير الحجم. جلست في ركن من القاعة بحيث لا يفوتني شيء. ألاعب بتوتر

حبّات مسبحتي، وأنا محاصر بين رجلين باديي السمنة. تلاوة القرآن تولاها بدايةً شاب فتيّ، الفائز هذا العام بالمسابقة الوطنية لأفضل قارئ قرآن. كان مأخوذاً بالكامل بترانيمه. كان الجميع يصغون إليه، فقد كان صاحب صوت جميل، يرفع رأسه، وعيناه مغمضتان حين كان يرنم. حين توقف، بدأت جوقة "الطلبة" مباشرة تلاوة سورة البقرة. كان البيت يغصّ بالحضور. الخدام ينفذون أوامر متعهد تقديم الطعام. الماء يوزّع بلا انقطاع، وكذلك المراوح الصينية لأولئك الذين يشعرون بالحر. المأتم كان ضخماً، جديراً بثروة المصرفي الأكثر ثراءً في المغرب. بعدها بدأ وصول الرسميين. خصصوا لهم أمكنة للجلوس. بعضهم كانوا يتفقدون هواتفهم. هناك شاب ملتحٍ تجرأ والتقط صورة للميت. نحو الظهر، أصدر رجل أمراً بالوقوف. تبعه الجميع. البكّاءات ارتفع صوت نحيبهنّ، فرجاهم الرجال أن يخففن قليلاً من ضجيجهنّ. وضع الجثمان في عربة الموتى. الوجهة مسجد الحسن الثاني الكبير، ومن بعده مقبرة "المجاهدين". سائقو دراجات نارية كانوا يسهلون مرور الموكب.

في المسجد، كانت الصلاة أكثر سرعة. رجل صاح موجهاً كلامه إلى الحضور: "مأتم رجل"، الصيغة التقليدية. لم يكن المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب، ولا الرجل صديق المتنفذين، ولا لاعب الغولف ساحر الفتيات، كان رجلاً، لا شيء سوى رجل بين كثيرين سواه. عاد إلى التراب بعرائه التام.

الدفن جرى بدوره بسرعة استثنائية. في أقل من ساعتين، كان كل شيء قد أُنجز. المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب صار تحت التراب.

وفق التقليد، عند رأسه الآن ملاكان ليحملا روحه.

تقبّلت العائلة العزاء. متعهد تقديم الطعام وزّع على المتسوّلين خبزاً وتيناً مجففاً. تفرّق الناس، والمقربون اجتمعوا في القصر الكبير حيث الغداء في انتظارهم. رصفت طاولاتٌ كما في عرس. لو لم تكن هناك فرقة صغيرة من قراء **القرآن**، لالتبس الأمر في هوية الاحتفال. متعهد توزيع الطعام كان المعروف عنه أنه المفضل في المملكة. كان يدّعي أنه يقدم خدماته إلى القصر.

بعد معاينة كل ذلك فضلت الانسحاب لشعوري بأنّ حاجةً ملحة إلى النوم بدأت تتسلل إليّ. كنت مفعماً بالنعاس. وسريري في انتظاري. كانت الثالثة عصراً. ما كدت أصل إلى منزلي، ارتميت على فراشي حتى من دون أن أخلع ثيابي. كان النوم يطالب بي، لا أستطيع أن أجعله ينتظر أكثر. شربت كوب ماء ونمت نوماً عميقاً.

خاتمة

مضى عليّ عشرة أيام على الأقل وأنا نائم. أنهض أحياناً للتبول ثم أعود إلى سريري وأرتمي عليه ككيس ثقيل وأغرق في ليل أسود حيث الأحلام تصير أكثر فأكثر وحشيةً وتقذف بي من قارة إلى أخرى.

الليلة الماضية لم أنهض للتبول. غريب. هل تبولت في سريري؟ لا. لم تكن بي حاجة إلى التبول لأنني لم أعد أشرب ماءً، ولربما لم أعد من هذا العالم. أقول هذا ثم أفقد الإحساس بكل شيء. لا أعرف أين أنا ولا من. الممر طويل. يتحدثون عن نفق في آخره ذاك الشعاع الشهير. لكنني لا أرى شعاعاً. أمشي ولا ألتفت إلى الوراء. يجب أن أمضي حتى النهاية. لكن نهاية ماذا؟ لم أعد أعرف احتساب الأيام والليالي. لم أعد أعرف أن أعمل شيئاً. لا قدرة لي على شيء. كل شيء يهملني وينساني. لقد قيل لي ذات يوم أن "أترك الأمور تأخذ مجراها". إن كنت قد توصلت إلى ذلك، فعلى أيّ حال لست أذكر شيئاً. أنا دوماً هنا لكنني أشعر كأنني مفرَغ. كأن أحداً صرف كلّ ما في جسدي. لم أعد سوى هيكل، جلد، كومة عظام، من دون أي عضلة، من دون أي عضو. ربما وُهب جسدي للعلم. على أيّ حال جثتي لم تُحرق بعد، فلطالما

رفضت. مذ حُرقت جثة العزيزة كاترين، إحدى أكثر من أحببت من عشيقاتي، لم أعد أحتمل رؤية جسد من دون روح وقد تحوّل إلى كومة رماد في إناء فوق المدفأة. كاترين كتمت عني تلك الرغبة. مع أننا كنا نتصارح بكلّ شيء. كانت شابة لتثير مثل هذا الموضوع. لكن الموت لم يتردد في اختطافها وهي دون الخامسة والأربعين.

إذاً، هل يكون الموت ما أراه في هذه اللحظة؟ نفق، ثم ملاءة بيضاء شاسعة. لا ريح تعصف، ولا شيء يهتزّ. منذ عشرة أيام، توقف كلّ شيء، كساعة جمدت عقاربها، كعربة موتى يجرها حصان هرم مريض في شارع تنيره أضواء ساطعة، ربما أضواء كاشفة جبارة كالتي يستخدمونها في التصوير السينمائي.

لكنني لست في فيلم. أتسكع في ليل حتى القطط فرّت منه. أشعر كأنني من دون بطاقة في محطة قطار أو موقف حافلات. لا أتوقف عن ترداد: "لست أحلم، لست أحلم".

***

بتّ أعلم الآن. أرصدة نوم المصرفي الأكثر ثراءً في المغرب أغرقتني في غيبوبة عميقة. أسمع كل شيء، أشعر بالأشياء، أشمّ حتى روائح المطبخ. لكنني لست جائعاً. في الواقع، فقدت أيّ رغبة. رغباتي سكنت. ومثلها نوبات غضبي. إيقاعي مسطح، وأنا مرهق. لا أشعر بشيء. لكن لماذا أنا محاط بزمرة من اليابانيين يتحدثون إليّ كأنني واحد منهم. وكيف أفهم كلّ ما يقولونه لي. يتحدثون عن غيشا ستفرّ

من سيرك مغربيّ. كانت ستتبع مزارعاً من أعالي جبال الأطلس يملك جملاً دُرب ليرقص الجاڤا[1]. اليابانيون يؤدون إشارات ويعتقدون أنني أعرف أين ذهبت فتاتهم الغيشا. سخيف! ولمّا لمْ ينجحوا في نيل شيء من نومي العميق، رحلوا. ممرضة انحنت فوقي ونادت باسمي وهي تربّت على وجنتي. لم أتجاوب معها. بالطبع، لا أشجعها على إيقاظي. أشعر بالراحة في هذه الحالة من النوم اللذيذ. أنام بشكل ممتاز، إلى حدّ أن يقيناً تملكني: لن أخرج من هذه الغيبوبة. ستدوم وقتاً طويلاً، وبالتأكيد إلى الأبد. الأبدية هي هكذا. ننام ونسمع الضجيج من حولنا. هذا ليس بالأمر السيئ.

إذاً، أنا ميت، ميت من دون أن أُدفن. ليس بعد. أنا ميت، ميت جداً، مسحوقاً بأطنان من نقاط أرصدة النوم. مسحوق، مسطح، مرمي في القطن.

المصرفيّ الأكثر ثراءً في المغرب قتلني. هو قوي! بالمال، نجح في النيل مني بعد الموت. أكثر مما ألحق بي الأذى، أبادني. أنا هنا، أضحيت ثمرة خضار لا قيمة لها. ما من أحد ليسمع حكايتي عن اليابانيّين مثلاً. مع ذلك هم لا يزورون بلادنا بأعداد كبيرة. بين طوكيو والدار البيضاء المسافة هائلة. بين اليابانية والمغربية محيطٌ من الاختلافات...

في غيبوبتي، أحلم. أحلم أكثر فأكثر. ليس لديّ ما أفعله سوى هذا. الغيبوبة هي الكسل المتجدّد.

هذا الصباح عاد اليابانيون. لقد عثروا على فتاتهم الغيشا. حملوا

---

١ رقصة ذات أصول شعبية ظهرت في باريس نحو ١٩٢٥.

لي معهم هدايا: مناديل، بطاقات بريدية، أقلاماً ملونة. وضعوا كلّ ذلك على طاولة صغيرة قرب السرير وغادروا وهم يقولون لي أشياء لطيفة باليابانية.

لو أستطيع، لرغبت في أن يحفر على شاهد قبري: "هنا يرقد أرِقٌ مزمن". ربما خطرت لأحدهم مثل هذه الفكرة فجأة. لقد نسيت أن أهتم بذلك حين كنت بصحة جيدة.

سمعت هذا الصباح طبيباً يقول إنه كان عليّ إخلاء المكان! هو بحاجة إلى السرير. توهمت أنني في منزلي. لكن من الذي جاء بي إلى هذا المستشفى؟ هو على حقّ؛ يجب أن أعود إلى منزلي. يبدو أن جارتي، الأرملة، هي التي اقترحت أن يعودوا بي إلى المنزل. والأرجح منزلها. آمل أن تراودها فكرة تسريع موتي، فسترث ليس من نومي العميق فقط، ولكن أيضاً من مدخراتي.

***

أنتظر القطار. قطار المتأخرين. سكارى وأوغاد. تائهون وسفهاء. قطط وحشية وحمير عوراء. أولئك الذين يجب أن يكونوا في أسرّتهم لكنهم يتسكعون في البارات. أولئك الذين أخطأوا الحياة والشارع. مداومو الشقاء. حالمون مسافرون. مهووسو تهوّر واستهتار. جانحون مشاكسون. أولاد شوارع. لصوص المصادفة. مخادعو الليل الصغار. أجساد متروكة. أجساد مشوهة. نفايات ومخلفات.

أنا هنا منذ بعض الوقت. وصلت مسبقاً. لن أسامح نفسي على

تخلفها عن قطار النوم، خصوصاً أنه لن يمرّ مجدداً. مواعيده الغريبة تتحدى المنطق. ينسى أحياناً أن يتوقف. لكلٍّ، كما يبدو، قطاره الذي يجب ألّا يخطئه. يحدث أحياناً أن نركب القطار الخطأ آملين أنه يمكن أن يفي بالغرض. نشعر فيه بالضيق مباشرةً، كأننا دخلنا لدى أحدهم بالاقتحام. الذين يتمتعون بنوم هانئ، الذين يهيئون أسرّتهم، ينظرون إليك بخبث. ليس مرحباً بك، فتعتذر، نتمتم بضع كلمات لتلطيف التوتر، لكن من دون فائدة. لا يمكننا أن نسرق الليل من شخص آخر. عليك النزول فوراً وانتظار قطارك. عبثاً تضغط على زرّ الطوارئ، فالقطار لا يتوقف. يتملكنا الرعب، نشعر بالضياع، نشاهد مناظر الطبيعة تتوالى ونعدّ الخراف كما كنا نفعل ونحن أطفال. الخراف هي غيوم تتبعنا.

أعرف قطاري. هو بطيء وقديم. على العربة القاطرة مكتوب اسم بريجيت باردو Brigitte Bardot. غريب أن يطلق هذا الاسم على عربة قديمة في نهاية عمرها. لعله خطأ. لا أريد أن أجري تحقيقاً حول ذلك. كنت أفضّل أن يحمل قطاري اسم غاري كوبر Gary Cooper أو برت لانكستر Burt Lancaster. كما يمكنه أن يحمل اسم العدّاء المغربي، بطل العالم، عويطة. ما همّ. هو لا يمرّ كل مساء. يحدث غالب الأحيان أن يتعطل أو يقدّم خدماته إلى محطات أخرى، مرات عدة، في حين أن وصوله وشيك، صوت غير واضح وكريه يعلمني عبر مكبر الصوت أنه "لأسباب تقنية وميتافيزيقية ب. ب. لن يؤدي خدماته لهذه المحطة". الصوت يكرّر كل خمس دقائق رسالته من دون أيّ توضيح.

في المرة الأخيرة التي جئت فيها أنتظر، وجدت نفسي قرب امرأة

لا بدّ أنها جميلة جدّاً. ممثلة من "الموجة الجديدة"[١]، وأعتقد حتى أنها كانت زوجة مخرج. كانت تضع قبعة واسعة، بلون أحمر مائل إلى السواد على ما أعتقد. حين أعلن مكبر الصوت أن القطار لن يتوقف، أطلقت صيحة وسألتني، كما لو كنا معاً: "وماذا عسانا نفعل الآن؟" اقترحت عليها أن نمضي الليل وأنا أسرد عليها الحكايات. فتحت عينين كبيرتين من الدهشة وأجابتني: "نعم، لَمَ لا، حكايات، أعشق الحكايات خصوصاً حين تأتي من بعيد وتعبق برائحة القرفة والزنجبيل. لكن، لا تنسَ أنك جعلتني أفوّت قطاري، وهذا ليس بالأمر البسيط". ابتسمتُ وشرحت لها أن قطارنا أُلغي بكل بساطة وأنه لن يمرّ هذه الليلة. ولا يد لي في ذلك.

دخلنا إلى مقهى حيث لم يكن أحد. طلبتْ نصف كأس من النبيذ وطلبتُ كوباً من مغليّ رعي الحمام verveine، تملكتها الدهشة: "رعي الحمام؟ هل تعتقد حقاً أن هذه النبتة ستساعدك على النوم؟ هذه مزحة. الكحول يسهّل النوم أكثر بكثير. الناس يصدقون ما يقال لهم! عليك بالخمرة، مفعولها المنوّم معروف". قلت لها إنني نادراً ما أشرب، وإنني أكره الخمور العادية.

بعد لحظة من الصمت سألتني أن أحزر لماذا هي لا تنام.

– لأنك ممثلة. لا تسكنين غالبية الأحيان جسدك. تعيرينه للآخرين وتنسين أن تسترديه.

بدأت تضحك، ثم اقتربت مني وهمست لي هذه الكلمات:

---

١ *la Nouvelle Vague* حركة سينمائية ثورية نشأت في فرنسا بين أواخر خمسينيات القرن الماضي وأواسط ستينياته.

"حين أنام، يتملكني السأم". هذا الاعتراف أفرحني لأنني لم أجرؤ مرةً على صوغ الأشياء بهذه التعابير. "لماذا النوم، ما دام في إمكاننا فعل أشياء كثيرة؟ قلت لها. تأليف موسيقا، كتابة حكايات، رسم أشجار إلى ما لا نهاية، إعداد أطباق بتوابل من بلاد بعيدة، ممارسة الحب، الاستماع لسمفونية من تأليف مالر Mahler... أشياء كثيرة يمكن فعلها، أشياء نافعة ومجانية... هذا رائع".

"من ثم أيضاً مشاهدة أو إعادة مشاهدة أفلام كلاسيكية بالأسود والأبيض، والأفضل أن تكون صامتة"، أضافت، "السينما اليوم ثرثارة، وتفتقر إلى الدقة، وبحوارات مجمّعة من الحانات، ولا ذكاء فيها. السينما انتهت، ماتت. لذا بات الناس اليوم يفضلون أكثر فأكثر المسلسلات. أعشق المسلسلات المصوّرة في أستراليا، أو بلدان الشمال، في الثلج والصقيع، مع شخصيات مزعجة، وأغراض غريبة، وأولاد شريرين، مجرمين... أحب خاصة الأولاد الشريرين، هم في الغالب رائعون ومثيرون للاهتمام أكثر من سواهم الأفضل تربيةً وتعليماً. أراقب تمثيلهم، وأفكر في لياليّ الثقيلة. الآن، الأمر مختلف، إنني ملأى بالنعاس، إلى درجة أنني لن أنهض مجدداً. النوم الكبير. الصمت الكبير. الملاءة الهائلة البيضاء من الثلج الأبديّ التي لن يلوثها عصفور. أنا أخيفك، أليس كذلك، ولا بدّ أنك تقول إن هذا بفعل الكحول لكنني واضحة تماماً، أقول ما أرى وما أحسّ، وأزعج العالم. سأصبح مبتذلة... سأتوقف. لكنك لا تتكلم، لم تعد تقول شيئاً. لست ميتاً على الأقل؟ أجب، بحق الله، حرّك إصبعاً، جفناً. أعطني إشارة، إشارة رقيقة، رقيقة كالهواء...".

المحطة وجوارها كانت غارقة في ضباب كثيف. فاجأتها حين اقترحت عليها السير قليلاً بانتظار قطار الخامسة وإحدى وأربعين دقيقة الذي يمرّ ليلتقط التعيسين أمثالنا.

– وإلى أين يمضي بهم؟

– إلى الجنة.

انفجرت بالضحك، وأمسكت بذراعي، وها نحن نمشي على حافة طريق لا يرى السائر فيها أبعد من أنفه.

وصل قطار الخامسة وإحدى وأربعين دقيقة. كان قطاراً سريعاً، جديداً، نظيفاً. حين صعدنا إليه، اكتشفنا أنه قطار المبكرين إلى أعمالهم. كنا غريبَين، من دون تذاكر، ولا مقاعد. من دون تشاور بيننا نزلنا من القطار في توقفه الأول وسلك كلٌّ منا طريقاً مختلفاً. طريقي رسمه مهندس مجنون. كان متعرجاً. لم يكن لديّ خيار. كان عليّ سلوكه من دون طرح أسئلة. أما طريقها، فيبدو طبيعيّاً أكثر، طريق من دون عوائق، مستقيم، أفقي، كالموت.

أشرقت الشمس فامّحى كل شيء. لم أعد أراها. وحده عطرها لا يزال يطفو في الهواء.

***

هذا المساء، لا مجال أن أفوّت قطاري، هذا المخصص لي أنا تحديداً، الذي سيضمن لي رقاداً عميقاً. وصلت باكراً من جديد

إلى المحطة التي أكل الصدأ اسمها. ساعة الواجهة فقدت عقاربها. وأخرى تجمّدت عقاربها عند العاشرة وعشر دقائق. لا شيء يتحرك. على الرصيف بعض المسافرين من دون أمتعة. كنت الوحيد الذي يحمل حقيبة عتيقة من الورق المقوّى. تبدو ثقيلة نوعاً ما. لا أعرف ما داخلها ولا من أعطاني إياها. أجرّها معي كأن عليّ تسليمها لأحد ما، ولكن لم يكن يحقّ لي طرح أسئلة.

سمعت صوت القطار. كان قديماً ويتحرك بصعوبة. يصفر ويطلق دخاناً أسودَ كثيفاً. إنه قطار Règlement de comptes à O.K. Corral[1] [تسوية الحسابات في أو. ك. كورال]، أو ذاك الذي كان ينتظره غاري كوبر في Le train sifflera trois fois[2] [القطار سيصفر ثلاث مرات]. لن أتمكن من معرفة أيّ منهما يتقدم بصعوبة في هذا الليل البارد. مزجت الفيلمين فرأيت كيرك دوغلاس يلقي التحية على غاري كوبر، فيما يحاول برت لانكستر تقبيل الحسناء المثيرة غرايس كيلي. كل هؤلاء الممثلين يفتنونني. لكنني أعلم أنهم يمرّون أمام عينيّ فحسب، وأن لا وجود لهم. يروقني النظر إليهم، خصوصاً في هذه اللحظات حيث لا شيء مكانه.

ثمة دخان، ضجيج، توتر، انتظار. رجل يغني: "إن أنتِ أيضاً تركتني...". غاري كوبر يواجه الخطر وحيداً. هذا بطل تماهينا معه جميعاً ذات يوم.

---

١ فيلم وسترن أميركي من إنتاج ١٩٥٧. إخراج جون ستورغس وبطولة برت لانكستر وكيرك دوغلاس.

٢ فيلم وسترن أميركي آخر من إنتاج ١٩٥٢. إخراج فرد زينمان وبطولة غاري كوبر وغرايس كيلي.

سيبقر القطار بين لحظة وأخرى شاشة الليل ويمزق كلّ شيء في طريقه. يتقدّم وصرير قضبان الحديد يصدر صوتاً رهيباً.

إنني أنتظره وحقيبتي في يدي، وأنا مجبر على حملها ما دامت غير مزوّدة بالدواليب كحقائب اليوم جميعها. حتى أنها ليست حقيبتي. هل تهت في حلم؟ لا، أنا فعلاً على رصيف المحطة التي تآكل اسمها. أنا هنا منذ لحظة وأنتظر قطاري. حقيبتي ثقيلة. أعتقد أنها ملأى أحلاماً ورقاداً.

أنا جاهز. قسماتي مشدودة لكنني لا أعتمر قبعةً ولا أحمل مسدساً. أنا كومبارس في فيلم بالأسود والأبيض أخطأ زمنَه والبلادَ والسماء.

لحظة دخولي العربة، جذبتني يدٌ قوية وحاسمة إلى الوراء ناحية الجهة الأخرى. كدت أفقد توازني وأقع. كانت اليد تمسك بي بقوة حتى رحيل القطار. كان من المستحيل أن أتحرك، أن أتخلص منها. يد حديدية، جبارة، لا ترحم. لكن ما الذي فعلته حتى تسمّرني هكذا؟

أمام ناظريّ أطياف تدخل إلى العربة الوحيدة. عرفت بينها أمي، فتيّةً، حسناء، بين ذراعي رجل أكبر منها سنّاً. هي لم ترني. أعتقد أنني صرت غير مرئيّ. تتبعها لالا زينب، أختي غير الشقيقة، ترتدي عباءة خيطانها من ذهب وفضة. نحل جسمها كثيراً. ملائكتي الحارسة سترحل من دوني.

أقلع القطار، أراه يبتعد فأفلتتني اليد أخيراً.

أنا وحيدٌ على الرصيف ومن دون حقيبة. اختفت أو اختطفها أحدٌ مني. لم يعد هناك أحد، ولا حتى متشرّد أبادله الحديث. كلب

يتسكع بلا مبالاة. لست شيئاً بالنسبة إليه. أشعر بالبرد، والعطش. حلقي متيبّس، ريقي القليل طعمه مرّ. قررت انتظار حافلة. رقمها مرمّز: X2KLQ7. الأولى يجب أن تمرّ نحو الخامسة صباحاً. إنها الأولى التي تنطلق هذا اليوم. وأنا الذي أنتظر دوماً بداية ليلي... لكنّ الليل انقضى منذ زمن طويل. ركب القطار مع أبطالي السينمائيين المفضلين. ليلي انسكب في ليل آخر كحلم يفتح الأبواب لحلم آخر، وهكذا حتى اللانهاية... متاهة ترتسم أمام عينيّ. لا أتوصل إلى تقرير شيء. المغادرة أم المعاندة؟

الليل، ليلي احتجب كأنّ آخرين استولوا عليه. يجري جولة في المدينة، يبلسم الأرواح المنكسرة، يهدّئ الأولاد المشاغبين.

صعدت إلى الحافلة. السائق أفريقي. إنه في مزاج طيب ويغني No Woman No Cry [لا يا امرأة لا تبكي] بصوتٍ عالٍ. أنا الراكب الوحيد. عيناي تغمضان ببطء. لا بأس، أتقبّل الموت. نعم، لا مقاومة بعد الآن. السُّبات الكبير، الأبدي، يمكنه أن يأتي أخيراً ويرحل بي.

‘قدرة هائلة على إثارة الواقع من الخيال‘

Encyclopedia Britannica

‘قليل من النوم لو سمحت... قليل من هذا الغياب اللطيف الممتع... نزهة مع النجوم في الظلام المطلق‘.

كاتب سيناريو من طنجة يعاني أرقاً مضنياً. يكتشف أن قتل أحدٍ ما يمكّنه من النوم. أمه كانت أولى ضحاياه. لكن التأثير يتلاشى مع الوقت... عليه تكرار فعلته. يتحول كاتب السيناريو إلى نائم مأجور: بحذر تام، يرتكب جرائم يريدها كاملة كما في الأفلام. وكلما كانت الضحية أهم، كان النوم أعمق وأهنأ. لتبدأ رحلة التصعيد.

هل يتوصل إلى التخلص نهائياً من أرقه؟ لا شيء مضمون. خطأ في السيناريو، وينهار كلّ شيء.

الطاهر بن جلّون كاتب وروائي مغربي حائز جائزة ‘غونكور‘ الفرنسية. من إصداراته عن دار الساقي: ‘العنصرية كما أشرحها لابنتي‘، ‘الإسلام كما نشرحه لأولادنا‘، ‘عينان منكسرتان‘، ‘عشر ليالٍ وراوٍ‘.

ISBN 978-614-03-2179-3

CENTRE NATIONAL DU LIVRE

DAR AL SAQI دار الساقي

www.daralsaqi.com